رواية

آل رعاف

محمد عامر حسنين صبيح

دار المرتضى
العراق - بغداد

العارف

تأليف

محمد عامر حسنين صبيح

أسم الكتاب :

تأليف : محمد عامر – حسنين صبيح

العراق – بغداد – شارع المتنبي

)٠٧٧٠٢٦٩٧٩٨٢

(٠٠٩٦٤

ali_hadi2@yahoo.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الاشكال دون أذن مسبق من الناشر.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٢٢٢٦ لسنة ٢٠١٤

مقدمة

إن الادب العربي قديم العهد، ولكن في مراحله الاولى كان منحصراً في فن الخطابة وفن الشعر، وفي عصور مابعد صدر الاسلام بدأ الادب الروائي أو القصصي بالظهور، وتبلور هذا الادب في العصر العباسي، فقد إنفتحت الثقافة العربية على كل من ثقافات وداي الرافدين، وبلاد وفارس والشام ومصر واليونان، فظهرت أعمال فنية ماتزال حتى الان من أكبر الاعمال التاريخية عظمة، كالبخلاء للجاحظ، والتوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسي، وكليلة ودمنة لابن المقفع، وحي بن يقضان لابن سينا، ثم أعاد تأليفها ابن طفيل، فقدمت أرضاً صلبة لاعمال عظيمة في القرن التاسع عشر والعشرين، كذلك اسهمت الف ليلة وليلة، ومنطق الطير في تطور الادب الغربي في العصور الوسطى وعصر النهضة، ولكن قمة الادب العربي كانت لربما في الرسالتين – رسالة ابن القارح ورسالة الغفران – التي كان صداها ذا تأثير واضح في الادب القديم، فكان ابن طفيل والمعري وغيرهم من القصصاين الذين جاءوا من اقصى تخوم المستقبل قبل الموعد بقرون، هم الذين نقلوا الادب القصصي الشرقي الى اوربا، ولكن بعد سقوط الدولة العباسية والاندلسية، أفادت الثقافة الاوربية من نتاج الثقافة العربية التي أضمحل فيها الادب القصصي والروائي، فقد امتصت دوارس القرون ملامح وسمات القصص والملاحم العربية، حتى اصبحت اطلالاً لا يمر على ذكرها الا المختصون الذين لا صلة لهم بالمجتمع الادبي، او المجال الفني، إلا ما ندر. حتى أتى عصر النهضة العربية في بداية القرن العشرين، فازدهر الفن المصري وفن المهجر اكثر من غيره، واثبت نفسه عالميا في بعض المحاولات لادباء عظماء مثل نجيب محفوظ، والطيب صالح، وعبد

الرحمن منيف، وجبران خليل جبران وغيرهم، ثم عاد الادب العربي ليقتصر على محاولات لا ترتقي إلى المستوى العالمي في الغالب، فاصبحت مشكلة الادب هي العقم الابداعي في وقت الحروب ووقت القمع بعد الثورات التي حدثت في منتصف القرن الماضي في كل البلاد العربية، فأصبح الادب في هذه السنين يستهوي المستحدثين أمثالنا، إذ نجد فيه ميداناً رحباً، خيل لنا لجهلنا إننا نستطيع ان نقول عبره كل ما نريد ان نقول، من مشاعرنا المكبوتة، والافكار الساذجة في الاصلاح الاجتماعي، الذي يأخذ حيزاً كبيرا في هذه الايام، وهو الشغل الشاغل لمعظم القراء والكتاب، وإن إنتاج معظم القصصاين في الغالب في هذه الحقبة قد كتب بلغة فيها الكثير من الضعف والركة، ليس لضعفهم اللغوي او لعدم قدرتهم على إنجاز شيء أعمق وأبلغ، بل لانهم كتبوا للمجتمع القارئ، ولم يكتبوا للادب القصصي نفسه، فهبط الكاتب الى مستوى المجتمع الذي يحاول اصلاحه في المقام الاول، حيث يعتمد القاص القصة كوسيلة لنقد الواقع الاجتماعي، فيسهب في التصوير الوثائقي لحياة الناس البسطاء في الاوساط الشعبية، والكادحة، لكشف الظلم الاجتماعي، فلقد ارمضهم واقع مجتمعهم وآلمهم التخلف الذي يرزحون تحته، لكنهم لم يكونوا قادرين على ان يكتشفوا السبل التي يمكن ان تنهض بهذا المجتمع الى ما يحلمون أن يصل اليه، إن أبرز الاتجاهات القصصية هي الاتجاه التقليدي، والاتجاه الرومانسي، والاتجاه الواقعي البسيط. ولعلنا هنا في محاولتنا هذه استبقنا الى العناية بالمضمون الهادف، دون النواحي الفنية ، فإن اغلب القصصاين المعاصرين شأنهم شأن القدماء في الزيادة في الارتجال مما أدى الى اختفاء الملامح الفنية في الكثير من القصص، وكان أفول نجم الماورائيات وغلبة الايديولوجيات المادية والوضعية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، عنصراً مهماً، فأصبحت القصص لا تحاكي الا واقعاً بسيطاً، يخلو من العمق الادبي، ويبحر في التقنية الفنية بصورة مبالغة، فاصبح الفنان يتقيد بالقوانين الادبية اكثر

منه من ان يبحر في الابداع الفني، فأصبح الادب تحليلياً ونقدياً، وهذه مشكلة، لان العلوم الانسانية لا يكرس ممثلوها حياتهم للتحليل والنقد وحسب، من دون أن يتجرأوا على التقدم بفرضية عمل او رسم معالم نظرية (تعميمية) ما، فالفكر البشري لا يتوصل الى العمل على هذا النحو المجزأ إلا على حساب إبداعه، ربما كان هناك علماء في مختلف فروع المعرفة العلمية، لم يتخطوا في حياتهم مرحلة (التحليل والنقد) لكن هؤلاء هم ضحية التنظيم الحديث للقوانين، ولكن الرواية في نهاية الامر او القصة ترمي الى الابداع الثقافي والى تغيير حال الانسان، وليس التمسك بقيود ثقافية والاستمرار برضاعة طفل قد بلغ الحلم.

وفي كتاب الادب القصصي في العراق – الجزء الاول– يذكر الدكتور عبدالاله احمد من مقال نقله عن أحد الكتاب والنقاد، "بأن الاديب في العراق سريع الغرور، سريع الشعور بأنه حقق غاية بعيدة المدى، واصبح استاذاً في اقصر وقت، ثم أنه كسول فاتر الهمة، قليل المطالعة والكتابة، بحيث لا يأخذ نفسه مأخذا جدياً، ولا يأخذ مسؤوليته تجاه فنه على نفسه من الجدية ، فيعاب عليهم عدم تعلمهم لغة اجنبية، فظلوا اسرى اهواء المترجمين وحركة الترجمة، فاصبحت اكثر الروايات والقصص المترجمة تحوم حول الرومانسية المفرطة الحديثة، او النقد الماركسي الفرنسي، او مايسموه النقاد بالواقعية الاشتراكية".

ولربما نبالغ قليلاً عندما نقول إن الاديب العربي في الغالب سريع الغرور وليس فقط الاديب العراقي، والدليل على هذا غياب تأثير الادب العربي في الساحة العالمية، فأصبح القارئ العربي، يحوم في البساطة في الادب العربي الحديث.

حاولنا هنا تقديم عمل فني او أدبي، ليس موجها للتعقيد فقط، وإنما للتركيب بين أمور مختلفة، وهذا لا يعني أننا قطعنا أشواطاً في الادب الروائي والقصصي، او إننا أصبحنا

الان أفضل مما نراه من واقعنا الادبي، وانما هي محاولة، لربما ليست ادبية، فهي بمنظور النقاد لربما بعيدة عن العفوية والارتجال، ولكن يوجد في طياتها محاولات يكثر فيها ثمار قراءة واسعة ومراقبة واعية للتاريخ والمجتمع والادب العالمي.

نقدم هذا العمل بوصفها محاولة، لكي تكون إشارة إنطلاق، اذا امكن، ونقطة بداية لكل من اراد الالمام ببعض أحداث التاريخ لاسيما في القرن الثالث عشر، الذي يمثل نقطة تحول زمنية في أغلب أصقاع الارض أنذاك، ويمكن للقارئ أن يطلع على فلسفات، وافكار بعض الشخصيات التي نوقشت في سياق الاحداث، إذ صيغت افكارهم وفلسفاتهم بشكل مبسط لكي يتسنى للقارئ فهمها، وكذلك يمكن للقراء الاعزاء حين المرور على سطور هذا العمل في الاطلاع على مجموعة من أجمل ما كُتب من القصائد العربية في العصور الذهبية للشعر العربي، وكان منا التعمد والتقصد في استعمال بعض الكلمات العربية الفصحى القديمة والصعبة جداً محاولة منا أن نستعيد جزءاً من جماليات اللغة العربية، ولم يغب العامل الاسطوري فيها إذ إن كل ثقافة تتكون في النهاية من سلسلة من التفسيرات والتقويمات المستجدة (لاساطيرها) او لايديولوجياتها المخصوصة، فكانت الفانتازيا حاضرة كمحاولة او تجربة كتابة الفانتازيا بعد ان كانت فقط باللغات الاجنبية والاساطير القديمة التي طعمنا بها قصتنا، فضلاً عن العديد من المصادر المختلفة من أساطير عالمية، واحداث تاريخية وجغرافية حقيقية، وفلسفات فكرية متنوعة، وحكايات وتقاليد شعبية، وتواريخ زمانية حقيقة.

ولربما ينتقدنا القارئ إذ سيجد في إتجاهنا هذا إتجاه يختلط فيه التراث بالحكاية، بالخرافة، بالخاطرة، ويسعى الى النقد الاجتماعي المباشر، ويتجاوز الى قص حكاية فيها خيال مسرف لا نجده الا في أجواء القصص الشعبي، فلم نفرض على أنفسنا شروطا فنية، ولم نسرد على غرار الروايات والقصص المتواجدة، ولربما سيقول لنا النقاد اننا لم

نستطع تقديم عمل فني متكامل لجهلنا الشنيع باصول الفن القصصي، وإننا أنتجنا زيفاً وصوراً شوهاء نسميها قصة، ولا نقول غير هذا، لاننا نعلم أننا مازلنا في بداية حياتنا الادبية، ولكن في نهاية الامر، هذا العمل القصصي هو نتاج كاتبين مبتدئين لم يهتديا الى طريقهما بعد، فهو محاولة جديدة، للابتعاد من المسار التي تسير فيه القصة العربية، الذي لا نعتقد انه يتجه الى الطريق الذي سينتج ما تتناقله الاجيال لعظمتة وقيمته الادبية، فاننا نضع هذا العمل بين يدي القارئ لتقديم شيء يعيد إحياء شيء بسيط من التاريخ الادبي القديم، وعمل ربما هو الصراع بين الادب القديم والحديث.

شكر خاص

لا يسعنا هنا إلا أن نتقدم بشكر خاص لأصدقاءٍ لولاهم لما إكتمل هذا العمل

مريم الاشبال

ليث حسام

اركان خيرالله

احمد النجار

الإهداء

إلى من علمني أن الحياة عمل بدون أن يلقني كلمات ... أبي

إلى نبع الحنان الذي لا ينضب ... أمي

إلى السند الحقيقي ... زوجتي

إلى أخي وإخواتي

إلى اطفالي، علهم يتعظون من التاريخ ... احمد وعلي

بإختصار الى عائلتي

وبامتنان إلى من كان مفتاح فكري، ليحرر ما اكتنزته من أفكار ليكون كلمات في كتاب ... محمد عامر

حسنين صبيح

لها ...

وله ...

ولهم ...

محمد عامر

المصادر

بحكم ان العمل الذي نقدمه هنا هو عمل تاريخي وفلسفي لا يخلو من الفانتازيا، فاننا لا نستطيع الا ان نذكر المصادر التي استطعنا من خلالها ربط النقاط، والاشخاص، والاعمال، والوقائع التاريخية، وغيرها مما ادخلنا عليه من اشعار عربية، او اقتباسات من كتب تاريخية، او ما اخذنا من الحكايات الشعبية والاساطير القديمة.

الف ليلة وليلة – مجهول

رسالة الغفران – ابو العلاء المعري

ملحمة نيال – مجهول

المعلقات العشرة – الزوزني

اديان العرب وخرافاتهم – انستاس ماري الكرملي

دور العرب – د.عبد الرحمن بدوي

التاريخ الاسلامي (الدولة العباسية) – محمود شاكر

اطلس التاريخ العربي الاسلامي – الدكتور شوقي ابو خليل

الكامل في التاريخ – ابن الاثير

في التاريخ العربي والاندلسي – احمد مختار العبادي

محنة الاسلام الكبرى – د. مصطفى طه بدر

تاريخ الاندلس – د. علي محمد حموده

كتاب النفس – ابن باجة الاندلسي

الموجز في الطب – ابن النفيس

من كتاب المخلوقات الوهمية – خورخي بورخيس

مختصر التاريخ الاسلامي – محمد عبدالله عودة، حكمت فريحات، ابراهيم الخطيب

مجمل تاريخ المغرب – عبد الله العروي

الوشم كلغة جسد لدى المرأة الامازيغية (مقال) – فاطمة فائز

الوشم الامازيغي ابعاد ودلالات (مقال) ذكي بوشتي

اطلس ثقافة البربر – مهند حدادو

الحلي الامازيغي الليبي – نوميديا ؤمادي

الابعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف – آنا ماري شيميل

التربية الاجتماعية عند جلال الدين الرومي – الدكتور مراد مولوي

حدائق الروح – ماهر سقا اميني

هكذا تكلم ابن عربي – د. نصر حامد ابو زيد

ملحمة الرامايانا – مجهول

بحار الحب عند الصوفية – احمد بهجت

ثلاثة حكماء مسلمين ابن سينا السهروردي ابن عربي – سيد حسين نصر

ملحمة قرطاجة – باتريك جيرار

قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز – جلال الدين الرومي

الحكايات الشعبية العراقية – مجلة التراث الشعبي

الحقيقة عند فلاسفة المسلمين – نظمي لوقا

تاريخ الفلسفة العربية – حنا الفاخوري، خليل الجر

ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس–سالم يفوت

الروح في دراسة المتكلمين والفلاسفة – د. محمد سيد احمد السير

الفلسفة الاسلامية (المجلد التاسع) – عباس محمود العقاد

المعتزلة تكوين العقل العربي– إبراهيم الفيومي

بين الدين والفلسفة في راي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط– محمد يوسف موسى

رسائل ابن سبعين – د. عبد الرحمن بدوي

قصة الحضارة – ويل ديورانت

مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – د. طه باقر

سرجون الاكدي – د. فوزي رشيد

الشاهنامة – الفردوسي

ملحمة كلكامش – د. طه باقر

موسوعة الاديان السماوية والوضعية – حسن نعمة

اسرار الالهة والديانات – ميغوليفسكي

الملك الظاهر – عز الدين محمد بن علي بن شداد

تاريخ العراق بين احتلالين – عباس العزاوي

التوارق (عرب الصحراء الكبرى) – د. محمد سعيد القشاط

العوامل السياسية واثرها في ضعف الخلافة العباسية (بحث ماجستير) – مساعد بن مساعد محمد الصوفي

انتشار الاسلام في بلاد المغرب (رسالة ماجستير) – أوكيل مصطفى باديس

أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى – سامي بن عبدالله المغلوث

سيرة الظاهر بيبرس – جمال الغيطاني

ديوان مجد الاسلام – احمد محرم

تاريخ علماء الاندلس – إبن الفرضي

تاريخ الدولة العباسية – د. نبيلة حسن محمد

تاريخ الامازيغيين – محمد شفيق

بيت الحكمة في عصر العباسيين – د. خضر احمد عطاالله

الحشاشون – برنارد لويس

انتشار الاسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء – د. نبيل لوقا بباوى

الجانب الفني في قصص القران الكريم (رسالة ماجستير) – د.عمر محمد عمر باحاذق

اساطير من الشرق – سليمان مظهر

الفتوحات العربية في روايات المغلوبين – حسام عيتاني

الانسان والاديان – د. محمد كمال جعفر

تاريخ الفلسفة – اميل ابراهيم

اخوان الصفا وخلان الوفا – احمد علي زهرة

ابن رشد وفلسفته – فرح انطوان

ابن طفيل – مدني صالح

مقالات في الفلسفة العربية الاسلامية – محمد مبارك

بغداد بين متصوفة الامس وفلاسفة اليوم – د. علي حسين الجابري

وعاظ السلاطين – علي الوردي

منطق ابن خلدون – علي الوردي

مختصر تاريخ الطب العربي – د. كمال السامرائي

صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي – ميخائيل عواد

امثال العوام في مدينة دار السلام – محمود شكري الالوسي

متصوفة بغداد – عزيز السيد جاسم

العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري – بدري محمد فهد

قصة اكسفورد – سيسل هيدلام

تشكيل العصور الوسطى – ريتشارد ساوذرن

الحروب الصليبية كما راها العرب – امين معلوف

تاريخ العصر الوسيط في اوربا – ج. دروزيل

تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي – علي محمد الصلابي

ملحمة سونديانا – جان يانسن

حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر – عبد الرزاق البيطار

أثر الإسلام في غانة ومالي في العصر الوسيط – امين توفيق

خارجين عن القانون في العصور الوسطى – غلين بورغيس

دراسات في تاريخ نيقية البيزنطية – د. اسمت غنيم

الموسوعة البريطانية

الويكيبيديا (الموسوعة الحرة)

لندن ١٢٥٠

"لقد قيل لنا بأنك الافضل لهذه المهمة..." بنبرة مرتبكة، وشفاه مرتجفة، انطلقت هذه الكلمات من شخصين دخلا الى حانة البقرة المرقطة[١]، التي تقع في زقاق ضيق، متعرج، وغير مُعبّد في شارع أوكسفورد في لندن، كانت الحانة ماتزال جديدة، فبنيت من حجر إحدى القلاع القديمة، وماتزال النباتات المتسلقة لم تغطي الحائط الخارجي، فقد بُنيت هذه الحانة لطلاب الجامعة التي أصبحت قبل أكثر من عام واحد مركزاً لكل طلاب أوربا فهي أول جامعة باللغة الانجليزية، خاصة بعد الاعتراف بها من قبل ملك إنجلترا الحالي هنري الثالث.

لقد كانت هذه الليلة مختلفة للطالبيّن، فهما تعودا دخولها مع أصدقائهما وزملائهما في الجامعة، وعادة ما يكون دخولهما بعد غروب الشمس ويخرجا منها قبل منتصف الليل، للسهر والترفيه بعد عناء الدراسة، ولكن هاهما يدخلانها في منتصف الليل في مهمة سرية، فبعد أن دخلا على صاحب الحانة الذي كان ينجز التشطيبات الاخيرة، لكي يخلد الى النوم، ولم يكن أحد في الحانة غير ذكرى صخب السكارى، وشِعر البارد[٢]، وموسيقى العازفين التي انتهت قبل ساعات قليلة، وعمّ الصمت في الحانة مثل كل ليلة، يبقى "الخاني"[٣] كما يحبون الطلاب أن ينادوه، ينظف، ويقوم بالترتيبات اللازمة، وملء براميل الخمر للطلاب عند قدومهم حين المساء، فدخلا وأقدامهما ترتجف، وأعينهما تبحثان في كل مكان، فيقول لهم الخاني "أهلاً يا سيداي، الحانة فارغة، وإنها مغلقة الان".

---

١ The Turf Tavern حانة في في شارع اكسفورد بنيت عام ١٢٤٨

٢ Bard شاعر، ومغني ، وعازف في اوربا ايام العصور الوسطى

٣ الخاني: صاحب الحانة

"نحن نريد أن نشرب كأسين من الماء، وسنعجل بالرحيل" ردّا عليه، وهما يجلسان على إحدى الطاولات المصنوعة من شجر البلوط، وريثما يأتيهما الخاني بالماء، كانا ينظران إلى الحائط الابيض الذي بدأ يكتسي بالسواد من السناج[1].

"هذا هو الماء، هل لكما بخدمة اخرى؟" يأتي الخاني ومعه كأسين من الماء ويضعهما على الطاولة، وهو ينظر اليهما متسائلاً.

فيرتشف أحدهما من الماء، ويرد على الخاني قائلاً "شكراً لهذا الماء المقرور[2]" ونظر الى عين الخاني، فيومئ الخاني برأسه، ويتجه نحو السُلَّم، فلقد علِم أنهما قد قالا كلمة السر المتفق عليها مسبقاً، فتوجه الطالبان يتبعان الخاني الى الغرفة العلوية ذات النافذة الوحيدة، التي يدخل منها ضوء القمر الفضي ليضيء بعض أجزاء الغرفة، يدخلانها ولا يوجد أحد فيها، بل يسمعان صوت شيء يتحرك، إنه صوت أحد الكراسي المتحركة، وهنالك رائحة دخان الغليونات، ونار الغليون[3] تضيء في ظُلمة الغرفة.

فينظر الطالبان أحدهما إلى الآخر ويُتمتِمان "لقد قيل لنا بإنك الافضل لهذه المهمة...".

فيعم الصّمت لوهلة في الغرفة، ويتوقف صوت الكرسي المتحرك الذي كان يتحرك كبندول الساعة ذهاباً وإياباً، وتشتعل جمرة الغليون، ويسمعون نفث الدخان، فيتراقص الدخان على ضوء القمر الفضي، ثم يتلاشى "ليس هنالك أفضل، فكل مهمة ولها رجالها" كان الصوت يأتي من العتمة ملأته الثقة.

"وأنت رجل هذه المهمة" يردُ أحد الطالبان.

"أرى أنكما تثقان بي كل الثقة" يردُ الصوت القادم من الظلام.

---

١ أثَر دخان في الحائط

٢ مقرور: بارد

٣ الغليون: إنبوب للتَّدخين له رأس مجوَّف يُحشى فيه التَّبغ

"لا نثق بأحد ولكن الامل متوقف عليك" يرُدان عليه ومازلا يرتجفان.

"وما هي المهمة؟".

"لا نستطيع إبلاغك الان ايها المُهرِّب".

"لماذا؟" يتغير الصَوت القادم من الظلام فيه نبرة تسائل.

"غيرُ مسموحٍ لنا بإبلاغك" يردا على هذا المجهول، وينظر أحدهما الى الآخر.

كانت هناك لحظة صمت، وهناك ظهر نصف وجه معتم يقع عليه ضوء القمر، وعيناه وضاءتان تنبع حنكةً وحيلة، "أرى أن قراركما ليس بيديكما، كما يبدو أن مهمتي ليست معكما أيها المتحذلقان" وعاد الوجه الشاحب ذو الدهو[1] إلى عُتمته، وعاد صوت الكرسيّ المتحرك يقتل السكون، والرهبة في الغرفة تملأُ الطالبين إبلاساً[2].

"مهمتك معي أنا!" دخل الغرفة رجلٌ يرتدي عباءة سوداء، تغطي رأسه قلنسوة مربعة في أعلاها خصلة بدل، وجهه أبيض كالقمر، ويلبس لحية سوداء على وجهه، لكزه قليل من الشيب في عوارضه، ملامحه شابة حَسن المنظر، وجسمه صَلب كعود يافع، ولكن على وجهه ترتسمُ قرونٌ مُكدرة، عيناهُ فيها من البأسِ والحكمة مالا يُمكن أن يُكتسب في حياةٍ واحدة "لقد أتممتُما مُهمتكُما أيها السيدان، عودا الى منزلِكما، وتهَدهَدا في نومِكما" وأبتسم لَهما، فيُحاولان الكلام "يا سيدي العارف ...".

فتربد[3] وجهُ السيدِ ذو اللحية السوداء وعيناهُ تَقدحُ غَضَباً، وإذ بالرَجلان يَهرعان خارجَ الغُرفة ويُغلقانِ البابَ خلفهُما.

---

١ دهو: مصدر دها و تعني دهاء
٢ إبلاس: يأس
٣ تربد وجهه: عبس وجهه

أحسَّ المُهرّب الذي إنطفَأتْ جَمرة غِليونه بالرَهبة، وقَدحت عيناهُ بالفضول، وعينيّ العارِف إستَدنت المُهرب للظهور تَحتَ ضَوءِ القمر، فتقدم المهرب خطوة، كانَ قصيراً، نحيلاً، مُدَبب الانف، عينيهُ حادَتيّن، أسمر البشرة، ذا إبتسامة مُتكلفة "مُهمتي معكَ انت؟" سألَ المُهرب العارِف.

"نعم" أجابَ العارِف.

"مُوافق" رَد المُهرِّب.

"بهذه السرعة؟".

"أجل".

"لماذا؟" سأل العارِف.

"لقد انتابَني الفضول عندما دخلتَ أنت الغرفة، وأحسَسْتُ بعُتمَة الغرفة بَدأتْ تَنجلي، وكَأنك أتيتَ بقبس، كما أتى الاهورا مازدا[1] على الوجودِ بضوئهِ".

"ومَاذا تَعلم عَن الاهورا مازدا؟" يَسألُ العارِفَ وهو يرفَع حاجِباً واحداً.

"ليسَ الآن" يَردُ المهرِب بنِصف ابتسامة.

"أنتَ العارِف؟ مَاذا تعرِف؟" يَسأل المهرِب العارِف.

"ليسَ الآن" رَدَ العارِف بنِصف ابتسامة.

فضَحِك المهرِب، وقال "ستكون رحلة جميلة" حيث أطالت عيونهم التزنير[2]، وضَحِك العارِف ايضاً.

---

١ الاهورا مازدا: هو الإله الأوحد الذي يمثل الخير عند الزراداشتيين
٢ تزنير: دقق النظر فيه

"سأقوم بإيصالِكَ الى بغداد بِشرطٍ واحد، وهو أن تقومَ بإطاعتي وأن لا تَسألني عن شَيء، لأن طَريقتي غَريبة، وسأقومُ بأعمالٍ لم تَحِط بها خُبْرا" يقولُ المهرِب وصَوتهُ مَسموعٌ خارجَ الغرفة.

"نَحنُ كَالقمرِ والشمس، لا الشمسُ يَنبَغي لها أن تُدركَ القمرُ، ولا الليلُ سَابِقَ النهار، وكلٌ في فَلكٍ يَسْبَحون، كِلانا يُريد الشيء نفسه ، ولكن كلٌ بِطريقتهِ" يَردُ عَليهِ العارِف.

فمَسكَ المهرِبُ يدَ العارِف، وأحسَ العارِف بأنَ الوقتَ قد تَباطأ، وأن الالوانُ المُعتِمة في الغرفةِ بَدأت بالتَجمعِ وأصبحَ الهواءُ ثقيلاً، وأحسَ أنه الآن في مَكانين، فهو يتَجزأ الى أجزاءٍ صَغيرةٍ كَالذرات التي بدأت بالانتِقال، وبعدَ أقل من لَحظةٍ في الواقع، ولكِنها لحَظاتٌ للعارِف اختفَيا من الغرفة.

تَعجبَ الطالبان اللذَانِ كانا يقفان وراءَ البابِ لِعَدم وجودِ صَوتِ الحوارِ والنقاشِ الذي كانَ مَسموعاً ومَمزوجاً بالضَحِك، فدَخلا الغرفة بِدون استِئذان، لَم يَجِدا أحداً واستَغرَبا، فهَرعا الى أسفَلِ السُلّم، وخَرجَا مِنَ الباب يُلوِحان بفانوسَيهما، فَظهر مِن عُتمةَ الزُقاق رَهطٌ مِن جِنودِ المَلك، يَدخلونَ الى الحَانة ويَبحثونَ في كُلِ مَكان.

"يَبدو أن طُلّابكَ قد وَشوا بك" يَقولُ المهرِب للعارِف عِندَما ظَهرا فَجأءة على سَطحِ أحدِ البناياتِ المُجاوِرة للحانة، بَعد أن عَادت ذَرّاتِهم بالتَكون، بعدَ الاختِفاءَ من داخلِ الغرفة في الحانة، والظهورِ على السَطحِ "لِكُلِ شَيءٍ سِعرهُ ويبدو إنَ ما أعطاهمُ المَلك مِن صَندوقهِ، أكثرَ مِمَا أعطَيتَهم أنتَ مِنَ الصَندوق الذي فتحتَهُ ليُقرِضَ الطلابَ مالاً بِدون فائِدة" فنَظرَ المهرِب يَميناً ويَساراً، ورَفع رأسَهُ الى السَماء "نَحنُ في وَهَنِ الليل، ويَجبُ أن نَصِل الى الغَابة قَبل الفَجر" قالَ المهرِب، ثُمَ هَزَ برَأسِهِ "بدون فائِدة!!" وشَزَرَ المهرِب العارِف، رافِضاً فِكرَةُ العارِف التي ساعَدت كَثير مِنَ الطلابِ على الدِراسة، فَسَهُلَ الأمر على الكَثير للدِراسة في الجَامِعة، إنَ المَال المَقروض لَم يَكن بذي فوائِد إذ

أنَ المهرِب لا يَعترِف بالأعمالِ الخَيرية، فكُلِ شَيءٍ يَجب أن يكون له مُقابل، فهو يُحبُ الدراهِم والدَنانير.

"عِندما فَتَحتُ صَندوقَ القَرضِ مِنْ دونِ فوائِد، كُنتُ أُحاوِلُ مُساعَدةَ الطلابِ ليتعَلَموا في الجامِعةِ، حتى وإن لَم يَملِكوا المال".

"ولكن يَبدو أن أموالَ المَلكِ، أهمُ وأكثَر مِن القَرضِ البَسيطِ الذي أعطَيتَهُ للطلاب، فوَشَيا بِك".

فلَم يُجِب العارِف، ونَظرَ الى المهرِب بطَريقَةٍ كُلُها تَعجُب، وسَأل"حيلَةٌ جَديدَة؟".

"إنه القَفزُ بالاختِفاء، تَنقُلُ ذَرّاتِكَ مِن مَكانٍ الى مَكان بِسرعَة الضَوء" يَردُ المُهرِب "ألَم أقُل لَك أن لا تَسألني" وكَشَر عَن أسنانِهِ.

"كانَت مَسرَحيةٌ جَيدة في الداخِلِ، هَل كانَت ضَرورية؟" يُضيفُ العارِف.

"أنتَ قُلتَ لي في رِسالَتِكَ، عِندَما نَلتَقي، يَجبُ أن أتَصرَف وَكَأني لا أعرِفُ مَنْ أنت".

"صَحيح، ولكِن بالَغتَ قليلاً".

"إنطَلَت عَليهِمُ الحيلة" يَردُ المهرِب.

"وما هذهِ الحيلة؟".

"الطلاب قَد شَغَلوا الحَرسَ عَنا، فالحَرسُ الآن كُلُهُم يَترَبَصونَ بِنا في الحانةِ او المَناطِقَ المُجاوِرةُ لَها، ولكِننا في الحَقيقةِ مُتجهانَ الى البَوابة".

"لا بَأس" يَردُ العارِفَ مُتهَكماً.

وإنطَلَقا يَسيرانِ على الأسطُحِ، فكان المهرِب بارِعاً بأساليبِ التَخَفي، فَهوَ كالحرباء، فينزِلانِ الى الشَوارِعِ المُظلِمة، يسيرانِ كظِلينِ في لَيلٍ مُعتِم، لا تَسمَعُ الأرضُ دَعسَهُما، ولا تَأخذُ الريحُ رائِحَتهما، فهُما كالجَلمودِ المُتحَرِك اللامَرئي، بِلا أثر، بَينَ أروِقةِ لَندَن القَديمةُ والقَذِرة، فتارَةٌ هُما سِكيران، وتَارَةٌ فَقيرانِ مُتَسوِلان، وتَارَة نائِمانِ على قارِعةِ الطَريق كالمُتَشرِدين، ولَم يَستَطِع جُنودُ المَلك العِثورِ عَليهِما.

فوَصَلَ المهرِبُ والعارِفَ خارِجَ أسوارِ المَدينة، وهُما يَسمَعانَ صَرخاتُ النَاسِ الذينَ بَلغَ بِهِم الأمرَ من التَعاسَةِ حَداً، فلَقد بَدأ حُكمَ المَلكَ المُبَجلِ يُهَددَ الأمنَ الداخِلي بِطَيشِهِ، حَتى وإن كانَت الحالةُ الاقتِصادِيةُ بَدَأت تَتَطَوَّر، ولكِنَ الشَعبَ مازالَ يُعاني الفُقرَ والأمرَاض، وكان التَنقُلُ صَعباً، لأنَّ جَمهَرة الخارِجينَ عَنِ القَانونِ قَد تَجمَعوا غَيرَ آبهينَ لِحُكمِ المَلك، فكانَ الإقطاعِيينَ في حُصونِهم يَنعَمون والشَعبُ يُعاني مِنَ الإضطِهاد، والآن وبَعدَ حادِثَة أُستاذِ الرياضيّات والفَلَكِ والفيزياءِ في جامِعَة أوكسفورد، الذي هَربَ مِنْ يَدِ المَلك، أصبَحَت الطُرُقُ مُراقَبة وكُلٌ يَخضَعُ للتَفتيش، وإنَ المَلكَ قَد وَضَعَ مالاً لِمَن يَجلِبُ لَهُ العارِفَ حَياً، فَبدأ الجُنودُ بتَفتيشِ كُلِ شيءٍ حَتى المَنازِل لَيلاً.

في طَريقِهِم خارِجَ أسوَارِ المَدينةِ الى مَقصَدِهم، دَخَلا إحدى القُرى القَريبة مِنَ المَدينةِ، حَيثُ الدُورُ المُتناثِرةُ تُغطيها أشجارُ البَانِ، تَملأ القَرية الضَوضاءَ النَائِية مِنْ شَخيرِ البَقَرِ والحَميرِ والخُيول، والذُبابُ على الجيّف، والعَرَباتُ المُكَسَرةِ والمُبعثَرة، وأدوَاتِ الزِراعَةِ كما يَبدو تَركَها المُزارِعونَ في مَكانِها بَعد الانتِهاءَ مِنَ العَمَل، فالدَجاجُ مازالَ نائِماً، وصُرّارَ الّليلِ يُغَني بَينَ الحَشائِش، فدَخَلا أحدَ الأكواخ، وسَرَقا حِماراً مِن إحدى الإسطَبلات، وإنطَلَقا بهِ نَحو الغابة. كان العارِفُ مُمتَطياً الحِمارَ، والمهرِبَ مَاشياً على الأقدام، وعِندما وَصلا عِند مُفتَرقِ طُرُق، نَزَلَ العارِف عَن الحِمارِ الذي كانَ يَمتَطيه، فأطلقا الحِمار نَحوَ جِهةِ الغَرب، بَعيداً عَن طَريقِ الغابة، كي يُغطوا آثارَهم لَو تَبعَهُم أحد،

وأنَطَلقا صَوبَ الغابة، وبَدأت أشِعَةُ الشمسَ تَكسِرُ دَياجير الّليل، وتوقِظ الديك ليَصيح، فوَصَلوا عِندَ طَرفِ الغابةِ التي تَكسو وديانَها أشجارُ البَلوط ذوَاتَ الرؤوسَ العَريضَة والأغصانِ الوارِفة، وأشجارِ الزَّان، والحور المُختَلفة الأشكال، فَلاحَ لِلمُهرِبِ شَيئاً، عَظيمُ الهَيئة وكبيرِالخِلقة، فتَوجَس، وسَحب خِنجَراً مِنْ حِزامِه.

"مَنْ هُناك؟" يُنادي المهرِب وهو مازالَ يَحمِل خِنجَره، مُستَعداً لِلقِتال، عَيناهُ تُتابِعُ خَيال ذلك الشَيء العَظيمَ مِن خَلفِ الأشجار.

فيَتقدَم العارِف عَنْ يَمينِ المُهرِب خطوَة الى الأمام، واضِعاً يَداهُ على كَتفِ المهرِب ويَقول "لا عَليك، إنَهُ مَعْي".

فظَهَرَ مِن خَلف الشَجرةِ رَجلٌ مَتينٌ عَريضُ المَنكبَينِ وَوجههُ خَشِن، كأنهُ شَخصٌ نَشأ على صُعوبَةِ الحُروبِ وقَساوَتِها، أشقَر، كثيفُ الشَعر، عَيناهُ زَرقاوَين، يَحمِلُ رُمحاً ودِرقةٍ[1] صَغيرة، وعَلِم المهرِب أنَ هذا المُحارِب الضَخِمُ مِنْ أصولٍ شمَالية، إما مِنْ جِرمَانية، أو إسكِندِينَاوَة، فَهو يَشبَهُ بيرگر يارل[2] كثيراً.

"هل أتممت عملك يا سيدي؟" قال المحارب الضخم الى العارف.

"كُنْتُ أتَمَنّى البَقاءَ مُدَةٍ أطوَل" قال العارِف وهو يُحييّ المحارِب الكَبير.

"لكِنَ هِنري قَدْ ضَاقَ ذُرْعَاً بِكَ، كَما ضَاقَ أبْي ذُرْعَاً بِكَ عِنْدَما كُنْتَ مَعْنَا؟" يردُ عليهِ المحارِب مُبتسماً بِخبث.

"بِالضَبْط، وَكَيفَ حَالُ وَالِدِكَ؟".

---

١ درقة: درع من جلد

٢ Birger Jarl هو دوق السويد وباني مدينة ستوكهولم

"جَيّد، وَيَبْعَثُ لَكَ سَلامَاً حَارَاً، سَوْفَ يَسْتَكْمِلُ بِنَاءَ ستوكهولم في غِضْونِ سِنْينٍ قَلِيلةٍ، فَبَعْدَ أنْ تَرَكْتَنا بَعْدَ مَعرَكَةَ سبارساترا[1]، أَصْبَحَ لِوَالِدي نُفوذاً كَبيراً، وإستَطَاعَ أنْ يَفرُضُ سُلطَانَه".

"أعلَمُ ذَلِك، فَإنَ حَرْبَ وَالِدَكَ قَدْ جَعَلَتْني أُعيدُ تَرْتِيبَ أوَراقي!" رَدَ عليهِ العارِف الذي تَعكَرَ صَفوَ أفكارِه.

"كَانَ يَجِبُ عَلينا أنْ نُحَرِرُ النَاسَ مِنْ أغْلَالِ الإقطَاعِ الَتي كَانَتْ تُصْفِدَهُم، وَكَانَ أبي، يُحَاوِلُ إيقَافَ هَجَمَاتَ ألكسندر نفيسكي[2]، هَذا الرُوسّي! إذا وَضَعْتُ يَديّ عَلَيه، لَكَانَ آخِرُ شَيءٍ يَراهُ هوَ رُمْحِي يَخْتَرِقُ رَقَبَتَهُ كَالسِيخ" يُحاوِل المحارِب أن يَشرحَ للعارِف سَبب المَعركة.

"أعلَمْ، وَلكِنْ ألَمْ يَسْتَطِعْ وَالِدُكَ الصَبْرَ؟ لِمَاذا كُلهُم ذَوّو رُؤوسٍ حارة؟" يتسأل العارِف مع نَفسه.

"مَنْ هُمْ؟" يتسائل المحارِب.

"المُلوك! أنظُر الى هِنري، فَهوَ سَمِعَ رَأيَ المُتَمَلقين الذينَ يَدّعونَ النَبَالةَ، وَهؤلاء النُبَلاءُ لا يَرتَقونَ حَتى الى دَرَجَة السَقْط مِنَ الناسِ" يقول العارِف ويهز رأسه.

"هَلْ هُنالِكَ خَطْبٌ ما؟" يَسأل المهرِب.

"أتَمَنى أنْ يَفْهَمَ هِنري وَيَسْتَمِع لِنصَائِحي، وَيُغَيرُ مَهزَلَة البَرلَمان التي مازالَتْ بِعَقلِيةِ هؤلاء النُبَلاء الأغبياء، وَيَنتَشِلُ هذهِ العُصبَة وإقامةِ بَرلمان بِحَق، بَعيداً عَن هذا الغَباء، الذي

---

١ Battle of Sparrsätra معركة قامت بين ملك السويد وبعض المحاربين وتعد نتائجه حاسمة في تكون تاريخ السويد في القرون الوسطى

٢ Alexander Nevsky

مازالَت عَوالِق النِظّامُ القَديم تَنهَش احشائِه، تَعِبتُ مِنهُم، كانوا لي كالشَّوكَةِ حينَما قُمتُ بِتَطويرِ الكُلّية وجَعلِها جامِعة أخيراً، لَقد قُمتُ بِما أستَطيعَ لِتُصبحَ هذه الجامِعَة تُضاهي جامِعة القَرَوِيّين التي بَنَتها فَاطِمَةُ بِنتُ مُحَمدَ الفَهّرِي" فيَهُز العارِف رأسهُ يائِساً ويقول بِتهكُم "نُبَلاء!"

"ولكِن كَيفَ إستَطَعْتَ الهَرَبَ بِهذِهِ السْهولة؟".

"إنَ للمُهَرِبِ هُنا، قابِليّة الإختِفاء، حَيثُ يَستَطيعُ الإنتِقالُ مِنْ مَكانٍ الى مَكانٍ آخَر، بِأسرَعِ مِنَ الضَوء، ويُغَطي مَسافاتٍ بَعيدةٍ في لَحْظَةٍ واحِدة".

"هَلْ أتمَمْتُما حَديثَكُما؟ يَجِبُ أن نَدخُلَ الغابَة قَبْلَ أنْ يَرانا أَحَد؟" يَقول المهرِب وهو يَنظُر الى الخَلف.

فدَخَلوا الغابَةِ بعدَ أن مَسهُم سَنبَك[1] السَّماء، وتوَغّلوا في أعماقها، وتَستروا بَين أشجارِها التي بَلغت مِنَ الكثافةِ حَداً جَعلها تَحجُب أشِعة الشمس حينَما تَكون في عنان السّماء، وتكونَ كالمَظلة، تَقيهم مِنْ بَلل الأمطار.

"مِنَ الجَيّدِ نَحْنُ لا يَحجِبُنا عَنِ البَحْرِ غَيرَ هذه الغابات، سَنَصِلَ الى البَحرِ بِسهولة" يقولُ المهرِب وهُم جالِسون في الغابة.

"خَدَمَنا السَّعْدُ وساعَدَتْنا المَقادير إذن" أجاب المحارِب.

"دَع المَقادير وشَأنَها، نَحْنُ في وَقّتٍ لَرُبَما الأولِ مِنْ نَوعِهِ في التاريخ، فالعالمُ يَرْزَحُ[2] تَحْتَ أعباءٍ لا يَستَطيعُ تَحَمُلِها، وقِدْ أصابَهُ الدَّنَف[3]، فبَدأتْ الدَمامِلُ[4] تَظْهَرُ على شَتّى

١سنبك السماء: اول غيثها
٢ يرزح: يضعف
٣ الدَنف: المرض المُثقل
٤ دمامل: هو ما يظهر على الجلد ويحدث انتفاخا ويتكون بداخله القيح

بِقاع الأرض، فكُل شَيءٍ يَتَحَرَكُ بِحَرَكَةٍ سَريعةٍ مُتَداخِلةٍ، فرَحَى المَعارِكُ دارَتْ مِنْ أقصى الشَرق حتى أقصى الغَرب، فالكُلُ يُحارِبُ الكُل، فإنَ هُناكَ أُفولٌ لِلنور، وبَدأت عُصورٌ مُظلِمة، فكُلُ الطُرُق مَحفوفةً بالمَخاطِر، وإراقة الدِماءَ أصبَحتْ هي الّلعبَةَ الأكثَرُ مُتعَة، فالكُل يَطمَحُ بالكُل، الأرضُ الرَيانةُ والغَنيّة أصبَحَت يَبَابٌ[1] في أعْيُنِ مالِكيها، ولا تُوجَدُ الثَرَواتُ إلا في أرضِ الجار، فيَعتَدونَ عَليها" يشرح المهرِب للمحارِب.

"ماكُنْتُ أوْثِرَ أنْ يَمْتَدَ بي زَمَني[2]" يهز العارِف برأسهِ، حانقاً على ما آلت اليه أوضاع العالم من طغيان، وكره البشر لبني البشر.

"لا يا أيّها العَارِف، إنَ مَنطِقَكُمْ أنْتُمُ العُلَماءَ يَخْتلفُ عَنا نَحْنُ، فأنْتم تُريدونَها حَياةٌ مِلْؤُها عَدْلٌ وسَلام، ولكِنْ لَم يَخلِقُ الإلهُ الواحِدُ أو حتى الآلِهَةُ المُتَعَدِدةَ الأرضَ على هذهِ الشاكِلة، فالحَياةَ لا تَسْتَمِرَ إلا بِوجودِ الظّالِمين، والمُنافِقين والمُطَفِفين، والمومَس، والمُرابيّن، والسَفاحين، وقاطِعي الطُرُق، وغَيرَهُم مِمَن يَعْتَدونَ على حُقوقِ الناسِ بِغيرِ حَق، هذا هو العالَم، ولكن يَجِبُ أنْ يَكونَ هُنالِكَ تَوازُن، فالظَلامُ حالِك، والنورُ أَبْلِجْ[3]، فلا يوجَد حَقٌ أو باطِل، ولا يوجَدُ الصّالِحُ والطالِح، فالدَخائِلَ[4] هي مَزيجٌ مِنْ هاتَين القوّتَين، أذا أُهْمِلَتْ إحْداها تَسَلَطَتْ الأُخرى، فَيُخِلَ الميزانَ وتَبدَءُ الحَياةَ الّتي وُجِدَتْ مُنْذُ مَلاييّنِ السِنين بالضُمور" يشرح المهرِب فِكرَتهُ عَنِ الحَياة للعارِف.

"لَمْ أكُنْ أعلَمُ أنَ المُهَرِبَ أرّيَبَ[5] الى هذا الحَد" قال العارِف وعَيناهُ قد زُرَّت.

"لَرُبَما الفَلسَفة هي مِنْ شِيَمِكُم أيُها العَارِفون، ولكِنْ نَحنُ أيضاً لَنا خِبرَتنَا في الحَياة، نَعم لَرُبَما هي حَياةٌ مِلئُها القَتْلُ والتَلاعُبِ بمَصائِرَ الناس، وسَرِقَتهُم، ولَرُبَما نَقوم في بَعضِ

---

١ يباب: قاحلة
٢ مقطع من قصيدة -لامية العجم- للشاعر الطغرائي
٣ ابلج: وضاء
٤ دخائل: دخائل الامور اي بواطنها واسرارها
٥ أريب: فطن

الأحيانِ بإفتِعالِ الحُروبَ بَينَ قَومَين، فَإذا كُنتُم أنتُم خَيراً في مَفاهيمِ العامَة الذي يُحِبونَ تَسمِيةَ الأشياء، فَهَل نَحنُ شَّر؟ نَعم، ولكِن نَحنُ شَّرٌ لابُد مِنه" يكمل المهرِب شرحه.

"لا يُحزِنكَ الوَضْع، فإنَهُ لَنْ يَدومَ طَويلاً" قال العارِف للمحارِب الذي تكَدر وجهه " هَلْ لَكَ أنْ تَتَفَضَلَ وتُحضِرَ لَنا طَعامَنا؟" قال العارِف.

فنهض المحارِب وقال "لَرُبَما أتَفِقُ مَعَكَ بِأنَ مايَحدُث الآنَ لا يَعَثُ على البَهجَةِ ولا يُبَشِرُ بخَير، فالتَعَصُبُ أصبَحَ كالفِطرة في قُلوبِ الناس، وأصبَحَ الناس مَنبوذين بِسَبَبِ أجناسِهم أو دِياناتُهم، فلرُبَما إني لأتَحامَل على نَفسي بأن أرى التروبادوريين[1] يَسكُبون أفانين الغَزَلُ في أفئِدةِ الحَسناوات، ويَعزِفونَ ألحاناً تُسكِرهُم وتَأخُذهم إلى الخَطئية، عَلى أن أرى الدَم يُصبِحُ كَنَهرٍ جارٍ بينَ البِلاد، ولكِن الخَيرُ يَجِبُ أن يَطْغي وتَنتَهي الآثام مِن عَلى الأرض" وإختفى بين أشجار الغابة الكثيفة.

"لَمْ تَقُلْ لي أنكَ سَتَجلُبَ أحداً معَنا" قال المهرِب للعارِف.

"وأنْت لَم تَقُلْ لي بِأنَ رَأسَكَ هو أغلَى رَأسٍ مَطلوبٍ في فَرَنسا" أجاب العارِف وكأنهُ يَعلم شيئاً.

"المَوضوعُ لَم يَكُن بِيَدي، ولكِن أرَدنا لِلحُروبِ الصَليبيةُ أنْ تَبدَأ، فكانَ عَلينا أن نُحَفِزَ لويس المَلِك بِقتلِ أحَدُ المُقَرَبينَ له، فَتَمادى خَنْجَري في قَتلِ أكثَرَ مِن عضوٍ مِن اعضاءِ أسرَتِهِ، فَجُنَ جُنونَه" يرد المهرِب وكأنه لا يأبه لما حدث بعدها من حروب.

"نَعم، لَقد سَمِعتُ بِما فَعَلت، أُريدُ أنْ أعلمَ عَنْ حَالِ أوربا قَبلَ أنْ نَنْطَلِق، هَل طَريقُ الأندَلُسِ سالِك؟ او فرنسا عِبرَ أوربا الشَرقية؟" سأل العارِف.

---

١ التروبادور: هو شاعر وموسيقي في القرون الوسطى ويختلف عن البارد بأنه في اسبانيا وحضارة الاندلس

"إستَقل الفنوسو الثالِث بالبرتغال، والأندَلُسِ تُبَشِر بِحُكمٍ جَديدٍ للمَسيح وتَطرِدُ المُسلِمين، فقد وَصلَ الإسبان الى قادس[1]، وأعتَقِدُ بأن دَولةَ الاندَلُسِ لَن يَعُد لها وجود" يجيب المهرِب بكل وضوح.

"إذن الأخبارُ كما سَمِعت، حتى إني سَمِعتُ بأنَ أبناءَ شارلمان قد طَرَدوا اليَهودَ مِن فرنسا؟ إنَ بني اسرائيل قد أصبَحوا مُتَفرقين في أصقَاعِ الأرض، وهذا لَيسَ بِجَيّدٍ على الإطلاق، فنَحنُ نَعلَم انهُم يَملِكونَ مِن الدَهاء والحِنكة ما يُمكِنَهم التغلغل بين طَبقاتِ الحُكام، ويترَفَلونَ عليهم، ويُعطونَهم مِنَ الحَرائِز[2] لكي يُسيطِروا على عُقولهم" يقول العارِف.

"صَحيح، وإنَ المَعارِك بَينَ الإمبِراطورية الرومانية المُقدَسة والدَولة البابوية في أشُدها" يجيب المهرِب.

"وأذا إتجَهنا قليلاً الى الشَمال؟" يحاول العارف إيجاد طريقاً للعودة.

"معَ إنتِصارِ البروسسين، وفَرضِ المَغولِ سَيطَرتِهِم على كُلٍ مِن روسيا وأوكرانيا وبولندا؟ لا أعتَقِد".

"إذاً سَوفَ لَنْ نَسلُكَ طَريقَ أوربا لِلعَودة؟" يستسلم العارِف.

"لقَد إتفَقْتُ معَ أشخاصٍ للعَودَة عَن طَريقٍ آخر، لا تَقلَق" يقول المهرِب وكله ثقة.

"جَيّد، هَل يوجَد شيءٌ آخر يَجِبُ أن أعرِفه؟".

"هذا الكِتابُ الذي طَلَبْتَهُ، لقد حَصَلتُ عَليهِ حينَ مُروري بالأندَلُس" فاعطاه كتاباً كبيراً ذا غلاف من جلد.

---

١ قادس: مدينة في الاندلس

٢ الحرائز: مفردها حريزة وهي ما لايباع لنفاسته واهميته

"شُكراً" يقول العارِف.

"وضَعتُ فيهِ مَجموعةٍ مِن المَخطوطاتِ والأوراقِ والرسائلِ وأنا في طَريقي الى هنا، وتوجَد ايضاً رِسالةٌ مِن تران هونغ داوو[1]، مَوجودةٌ في الكِتاب".

"كَيفَ حالُه؟" يسأل العارِف.

"إنهُ قائِدٌ، وفارِسٍ لا نَظيرَ لَهُ في أرضِ فييت[2]".

"جيّد" يقول العارِف.

"سَنَنامُ الآن، والّليلُ هو صَباحُنا، نَنْطلقُ فيهِ" قال المهرِب.

أتى المحارِب ومعه زوج من الارانب وحطب "هذا هو عَشَائُنا".

"لا نَستَطيعُ أن نُشعِلَ نارَاً" يقول المهرِب.

"صَحيح سَيَجلِبُ الدُخانُ بالجنودِ الى الغابة" يضيف العارِف.

"لَم أُفَكِر بِهذا، سَنَأكُلُ لَحمَا نَيّاً" يقول المحارِب غير مبالياً.

فهزَ المهرِب برأسهِ، ويضحك بداخله على المحارِب.

"يا صَديقي، أنا أتَضَوّرُ جوعاً مِثلَك، وكُنتُ أتَمنى أن أتَمتَعَ بمَذاقِ لَحمِ الأرانبَ الانكليزية، ومعها كَأسٌ مِنَ النَبيذِ المُصَفى، ولكن عَلينا تَوخّي الحَذَر، ، سَنأكلُ مِن ثِمارِ الأرض، ولَقد جَلبتُ مَعي خُبزاً" ويبتسم العارِف.

بعد الاكل اضطَجعَ العارِف والمحارِب، وناما وهما مغطيان رأسيهما، وتسلق المهرِب إحدى الاشجار الكبيرة، وكان كالبومة لاتأخذه سنِة، فهو مُتيقض، عيناه ثاقبة، يترصد

---

١ Tran Hung Dao
٢ فييت: فيتنام

بكل شيءٍ يتحرك مِن خلال الضباب، ويبعد في ناظريّهِ الى المَرائي المُنبسِطة أمامه، فيرى الثعابين وهي تتَحرك تحت أوراق الشجر المتساقطة، إنها بداية الشتاء، ويجب ان يغادِروا الجزيرة قبل الشتاء القارِس، الغابة أكثَر سكوناً مِما عليه الارض في هذهِ الايام، وكان عَقل المهرِب مَشغولاً بشتى الذِكريات والتِرحالات، يَجلِس على غُصنِ الشجرة، أصابِعه تتَحسس ثقوب النرد في يده، فهو يَخِبُ[1] في لُعبة النرد، ويربح منها المال عن طريق تحسُسِه لثقوبه، فهو بارِع بالحيل والألاعيب، وكان يريد عوده ليَعزِفَ على بعض الأوتار لِتلعبَ ألحان المَقامات الاندلُسية الجميلة، ولكن هذه المغامرة بالنسبة اليه أكثر مجداً مِن العَبث الماجِن والإستِهتار المَفضوح، والتَطَفُف، والسَرقة، والتجارة الفاحِشة، فلعبة التِجارة أسهل وأقل خُطورة مِن ماهو في صَدده في هذه اللحظة والسنين القادمة، فرحلتهم ستتَحول مِن أرضِ الضَّباب الى قراصِنة البِحار، وذَهاباً الى الصَحراء الجَرداء، ها هو ينطلق في رحلة اخرى ولكن هذه ليست رحلة الرخ[2]، وأكلي لحوم البشر، فيعلم إنه سوف تاخذه رحلته الى أراضيهم، وإنه عندهم، مطلوب، وإسمه في أعلى قائمة الطعام.

" كَم السّاعة الآن؟" ينادي المحارِب من أسفل الشجرة.

"كَم أحِبُ أن يُقاطِعَ أحَد أفكاري!" يهمس المهرِب لنفسه منزعجاً، فمرت ساعات من التفكير لوحده على قمة الشجرة.

"إنهُ الرَوّاح[3] يا عَزيزي" وينزل المهرِب من على الشجرة، كإنهُ نمرٌ مرقط، فنظر إليهما وهما جاهزان مستعدان لإكمال الرحلة.

---

١ يخب: يغش
٢ الرخ: طائر خرافي عملاق ذو رأسين
٣ الروّاح: وقت من اوقات اليوم وهو زوال الشمس عن كبد السماء

"أيُها السَّادة، إنَ الأمكِنة والأحداث لَيسَت حَولَنا فقَط بَل فينا أيضاً، فإما أن نُثَبتَ هذه ألأحداث في التأريخ، أو تَأخُذنا الأحداث في طَّي النِسيان، فلنَجعَل دُخولِنا إلى سَعير الرَّب تُهَلهِل عَليهِ المَلائِكة، ويُلبِسونا الأكاليل قبل أن نَبدأ بِحياة أبَدية ظِلالُها نارٌ حامية" يقول المهرِب.

وإنطلقوا نحو الجنوب حتى أطراف الغابة، كان المهرِب يسبقهم دائماً ويستطلع ما في الامام، فعيناه ثاقبتان في الليل، وكان المحارِب ذو الملامح الصارمة، والشعر المضفور الذهبي اللون، يلبس خوذته الفضية، المزدانة بنقوش على شكل أجنحة طائر الفالكيري[1]، يلبس معطفاً جلدياً عليه فراء القَاقوم[2]، فهذا المحارِب هو ابن دوق السويد، يمشي مرتكزاً على رمحه الذي تحمله يداه ذوات العضلات المفتولة، عيناه مسلطة على العارِف وأيضاً هي متيقضة ومتنبهه، وأذناه تسمع أصوات تكسر الاوراق اليابسة ودَمدَمة الريح، فهو كَالدّب، عيناه تلمعان في الظلام يحمي العارِف الذي يلبس عباءة سوداء تتهدل في ثَنْيات واسعة ولا تخلو من الاناقة، وعلى رقبته سلسلة فضية مخبأة تحت ملابسه.

بين جذوع الشجر يسمعون المياه من تحتهم تجري، كانت الغابة معتمة، فاللّيل قد أسدل أستاره الموشحة بالسواد، واستمروا بقطع المسافات، وكل منهم يتذكر مافاته، ويتأمل خيراً فيما سيكتبه لهم القدر، أو ماسيكتبونه في لوح القدر.

---

١ الفالكيري: هي ربات او ملائكة لها اجنحة تأخذ ارواح الموتى في المعارك الى الجنة
٢ قاقوم: حيوان من الثديات ينتمي الى فصيلة العرسيات وهو من اصغر الحيوانات اللاحمة ويعتبر فروه من ثمين جدا

ســارك

انطلق كل من العارِف، والمهرِب، والمحارِب من رَحِم الغابة المعتمة، قلوبهم واثقة، متحسبة، فالمحارِب بقلبه البارد يعلم أن كل ماقاتل من أجلهِ في ساحات الوَغَى في ما مضى، كان كتسلية يدرب فيها نفسه، أَما القادم في هذه الرحلة هو كالمَلحمة، يعرف عليه أن يكون أهلاً لهذهِ الملحمة، التي يجب أن يكون فيها على أهبة الاستعداد، يقظاً، فإنه لا يريد أن يكون فقط محارِب أشوس[١]، بل يريد أن يكون حكيما كنيال[٢]، وكَمِيّ[٣] كگونار[٤] في الملحمة الايسلندية، فلا يريد أن يكون مَلِكاً كأبيه ويبني السويد على الرغم من أنه عندما كان صغيراً كان كل مايريده هو أن يقاتل بجانب أبيه، وأستطاع القيام بهذا في معركة سبارساترا، ولكنه يريد أن يكمل الطريق مع العارِف، وخاصة بعد أن أصبح للمهمة تحدٍ أكبر، فإن المحارِب يرى أن المهرِب خصمه، من منهما سيثبت نفسه الأجدر، من منهم سيقتل من الاعداء أكثر، إنها اللحظة حيث قد تدفقت كل لحظات التأريخ، تتجمع في حزمات وتتقلص، وتَلِجُ في سُمِ الخِيْاط لتخرج منفجرة كما انفجر الكون الواسع من قبل، ليبدأ تاريخ الوجود من جديد بمسميات أخرى، فهل سيكون هو الخِيْاط؟ أم سيترك المجال للمهرِب أن يمشيَ الخُيَّلاء[٥]، ويجلس هذا المهرِب بعد النصر في داره بين السادات الكرام والموالي العظام والجواري الحِسان كأنه في بقع الجِنان، حيث نَغَم اوتارٍ ،وَعود ،وأصواتٍ مُطربة، وأنواع إنشاد، ويأكل من طعام رائحته طيبة، ذكية، والشراب الطيب، يقص على الناس حكاياته، لا! نعم إنهم أخوة في السلاح

---

١ أشوس: جريء وشجاع

٢ Nijal: وهو احد ابطال الملحمة الايسلندية معروف بحكمته

٣ كَميّ : الشجاع المقدام الجريء

٤ Gunnar: وهو احد ابطال الملحمة الايسلندية ايضا معروف بقوته وشجاعته

٥ خيلاء: مشية المتكبر

والدم الان، نعم! هم أدوات الآلهة كالمطرقة تحطم الصعاب، ولكن لا يمنع هذا أن يكون هو من يتكئ على أرائِك من حرير ليحكي الحكايات، فهز رأسه وندم على التفكير بهذه الطريقة، فإنه هنا في مفترق طرق، يجب أن يتخذ طريق الصلاح، وأن لاتشوب قلبه شائبة، فسيُضحي في حياته من أجل المهرِب لو تَطلَب الامر، ولكن سيقوم بكل ما أوتي من قوة بإثبات نفسه، ويرفع رأس عائلته التي أقامت مملكة في الشمال القارس.

وكان العارِف هادئاً ساكناً، بيده المسبحة يحرك خرزاتها بين أصابعه، كأنها كواكب تجري في فلكها، مسبحة مرقشة، خيطها من الفضة الخالصة، يمشي وهو لا يفكر بشيء، فعيناه كانت كأنها ترى الغابة في كل وضوح كأنه في وضح النهار، ويتمتع بحركة الحيوانات الّليلية، ويستمع لكلامهم التي تنقله الميلاه[1]، وتتراقص أفكاره مع أوراق الشجر، فهو الان جزء من الطبيعة ينتمي اليها، فهو من درسها، وتفقدها، وغار في خباياها، وإقترء من تعاليمها، وقوانينها التي كانت ومازالت على عهدها منذ نشأتها، فخِبرتهُ في الحياة علمته أن التفكير بأشياء لم تحدث بعد لا فائدة منه، فأنه قد وضع خططاً مسبقة، وهو عزوم على هذه الخطة، وسيقوم بتغييرها بحسب مايتطلبه الموقف، فهو يعلم أنه قادر على الوصول الى وجهته، مكللاً بالنصر، يعود بالسبب ويعلم السر، فهو يريد السعي إلى سعادة النفس عن طريق العلوم التي تُطَهِر النفس، ويعلم أن أموراً جللاً ستحدث، وأن عليه أن يكون كالمعلم، نحرير[2] لا يتعجل في الرأي، حَصيف لا يتَرَنح في الحكم، دَمِث لا يُنَفِر من حوله أعوانه، وأن الطريق طويل، واسألته سوف تكون للعلماء، والادباء، والفقهاء الذين سوف يقابلهم في رحلته العصيبة.

أما المهرِب فكان يمارس هوايته المفضلة، السير في الليل بين جذوع الاشجار، وعلى الاوراق المتساقطة من دون أن يخرج صوتاً، رأسه مملوء بالحسابات المتعبة، إذ إن

---

١ الميلاه: الرياح الشديدة الهبوب ذات الحنين
٢ نَحرير: عاقل وحكيم

عمله يعتمد على التوقيت، وإنه لا مجال للخطأ، أفكاره تعدو الى ما بعد سنين من الان، يفكر بكل خطوة وبكل كلمة سيقولها من هنا حتى يصل بغداد، فهو ذو لسان مَلسون[١]، كذوب، ينتحل شخصيات مختلفة، يحب أن يغتنم الفرصة ليربح المال، فإنه لايحب الجد وحده، ولا يحب الهزل وحده، فهو يخلط بين الجد والهزل ليرفّه عن نفسه، يُحضر أشعاره التي سيلقيها في حضرة الملوك، والقادة الذين سوف يقابلهم، ويُعِد خناجره المخبأة في كل مكان حتى في فمه، وخلف أذنه، فإنه لا يثق بأحد، فهو ينام وعينيه مفتوحتين كالدِرفيل[٢]، أعز أصدقائه هو النرد الذي أكسبه من المال الكثير، يتمتع بالمشي في الطرق الخلفية للمدينة، بين الفقراء، والبغايا، فهو نَزيف[٣] يتمتع بسَقط المتاع، لا يأبه لقوانين المتعصبين المتدينين، فهم في نظره يلَوِثون عقول العامة، فالحياة أبسط من أن تُقام على التعصب، الحياة يجب أن تكون محفوفة بالمخاطر، فالحياة ليست بالوجود، بل الحياة في عيشها الوفير العَسِر، كالعيش في الزَنازين[٤] وفي الدَسَاكِر[٥] فالحياة ليست بالمأكل والمشرب الفتر، وليست هي الذهاب الى التعصب المستهتر، فالكون حي يحب الحياة ويحتقر الميت مهما كبر.

وصل الثلاثة عند حافة الغابة، والبحر أمامهم، وبدأت الشمس تبزغ من خلف الافق، يلون السماء بلون رمادي، بدأت حركة الطيور المهاجرة، تصاحبها نَجيخ[٦] البحر وبرودة الجَشْأة[٧]، فهو وداع للعارِف، وهروب للمهرِب، وأمل عودة للمحارِب، ولكن النزول الى البحر كان صعباً، فكان عليهم أن ينزلوا منحدراً صخرياً.

---

١ ملسون: حلو اللسان، كذاب
٢ الدرفيل: الدولفين
٣ نزيف: سكران مخمور
٤ زنازين: جمع زنزانة
٥ الدساكر: القرية العظيمة
٦ نجيخ: صوت البحر المضرب على الساحل
٧ الجشأة: صوت هبوب الريح عند الفجر

"لِماذا لا تَستَعمِل قِواكَ وتَأخُذْنا الى الأسفَل؟" سأل المحارِب المهرِب.

"ياصَديقي إن هذه القِوى التي أملِكُها لا شَطْطَ فيها، فإني أستَعمِل القِوى التي بداخِلي وأنقُل ذَرّاتي وذَرّات ما أحمِل مَعي، فإنها لَيسَت قِوى الجِنّ او قِوى الخَالِق، إنَما هي فِهْمٌ لِقَوانين الطَبيعة والتَحَكُم بها" يجيب المهرِب.

نظر المحارِب الى العارِف، واذا بالعارِف يتبسم ويقول للمحارِب "إن لِلصِّنا هُنا مُعتقَدات نَحنُ لَم نُؤتِ بِخبُرِها، أنتَ عِندَما تَتمَلكُكَ البيرسيرك[1] لا يُمكِنُ أن نَفْهَم ما تَقوم به، ولكن أنتَ تَستَطيع التَحكُم به وتوجِهُهُ للطَريق الصَحيح، فلِكُلِ واحدٍ مِنا طُرُق مُختَلِفة، تَستَند على خَلفياتنا، وعَقائِدنا، وأيمانِنا، فهذه الإختِلافاتُ تُكَمِلُ بعضنا بعض".

"لَقد سَمِعت بالبيرسيرك مِن قَبل" نظر المهرِب الى المحارِب متسائلاً وفي تسائله حذر.

"كُلُنا لَهُ طَريقَته، ولِكلِ شَيءٍ وَقتِه" قال المحارِب وهو ينزل المنحدر الصخري، فضحك المهرِب لحذاقة المحارِب.

وصلوا الى أسفل المنحدر، كان هنالك شخص يلبس لباساً أسود، قد غطى رأسه، يجلس في قارب متوسط الحجم، رحب بهم وإستقبلهم بحفاوة، فصعدوا الى القارب وبدأ البحار يجذف ويبتعد عن الجزيرة، وبدأت تتلاشى أرض الانجليز في الافق مبتعدين عنها، ويتقدمون قاصدين مشرق الشمس، فكلما تلاشت جزيرة الملك هنري، كلما إكتمل قرص الشمس الذي يخرج من رحم البحر بمنظر بطيء وجميل يرسم ملامح يوماً هادئاً بعيد عن المخاطر، فهم الان بعيدين عن قبضة الملك".

"كَيفَ لنا أن نُبحِر بهذه السُرعة؟" تسأل العارِف عن سرعة القارب الغير معتادة.

---

١ البيرسيرك: تعني هائج، وهي طريقة يستعملها الفايكنج يندفعون بنشوة الى قلب المعركة يصرخون و يحاربون كالحيوانات المفترسة فاذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم

"إنه المدّ والجَزِر، يا صديقي" قال المحارِب.

فنظر العارِف الى السماء، وبدأ بالحساب.

"لا تَتعِب نَفسك، نَحن في وقت الجَزِر، فالبَحر يُسَرِع من حركتنا" قال المحارب للعارف.

"أين قرأتَ هذا الكلام؟" يحدث المهرِب نفسه متسائلاً، بصوت عالٍ مشيراً الى كلام المحارب.

"كتابُ الزّيجَ الصغير ..." يقول العارِف.

"لأبي مَعشَر البَلخي" يقولان العارِف والمهرِب في الوقت نفسه، ويومئان برأسيهما دلالة على أنهما عالمان بعلوم هذا الزمان، او مطلعان على كتب العلم والتاريخ.

"نحن نَعلم هذا من دون قَوانين" يقول البَحار الذي كان يقود القارب والذي لم يظهر وجهه، متستراً خلف عباءته، وكأنه لا يبالي بالعلم والقوانين، التي إكتشفها العلماء، ودونوها على مدار السنين من العصور الغابرة حتى الان.

"نعم يا صَديقي، لكن أنتُم ولِدتُم في البَحر، تَعلَمون خَفاياه، فانتُم تَنْدَلِسونَ[1] فيه، كما يَنْدَلِسُ العَرب في صَحرائِهم، فهذه مَوجة الماء هي سِلاحَكُم كما تكون مَوجة الرِمال سِلاح الأعرابي، فالعَرب هم كالسَراب لا تستطيع الإمساك بِهم، وأنتم تَختفون بين مَوجة ومَوجة، وتَظهَرون مِن حيث لا يعلم أحد، ولكن نحن نأخذ بهذه القوانين لانها تُفدينا في حَياتِنا البَحرية، والتِجارية، فلسنا كُلنا بَحارة، ولسنا كُلنا فُرسان، او كلنا علماء، فهذه القوانين والعلوم تُيَسِر من أمرنا، وتبعد عنّا الهلاك، وتخلصنا من براثن التخلف والخُرافات، فالعِلم أساس الحياة، وروحها الفتية" يرد العارِف.

---

١ يندلس: يختفي

"على كلِ حال، نحن مازلنا في البداية، ولكن سيعود المدّ وتبدأ الصُعوبة، لقد جلَبت مجذافاً إضافياً، فأن الراهِب يريد مقابلتكم بسرعة" يرد البَحار.

"وقتٌ طَويل، لماذا لَم يأتِ الراهِب بسَفينَتِه الينا هنا؟" يقول المحارِب.

"هذه المياه هي مياه الملك هنري والقديس لويس مُناصفةً، حركتنا يجب أن تكون مدروسة، ولا يجوز أن نعرض مخبأنا للخطر" يجيب البَحار.

"أين هو مخبأكم؟" يسأل المحارِب.

"في جزيرة سارْك، قريبٌ من الحدود النورمندية".

"إذن يا سادة" يقاطعهم المهرِب، ويجلس جلسة الإحتباء وقال "أنا لا أحب البحر، إذ يذكرني دائما بتجربة سيئة، ساخلد الى النوم" يقول المهرِب، فينام وهو جالس غير مغمض العينين، شكله مريب، فمد المحارِب ساقيه، وتسند على رُمحه، وأغمض عينه، ولَجأ الى النوم، مغطياً رأسه بخوذته.

أما العارِف ففتح الكتاب ذا الغلاف الجلدي، وبدأ بالقراءة وهو يخاطب البحار بين الحين والاخر، يسأله عن أخبار الاندلس، وكل الاخبار التي يسمعها العارِف غير سارة، وقد علم أن حضارة الاندلس قد بدأت بالأُفول[1]، وإن زمانها قد ولى، فبدأ الرّيب ينمو في أفكار العارِف لسلامة بعض من الاصدقاء، كانت الرحلة طويلة وكان الوقت يجري ببطئ.

وحين الغسق، سأل العارِف المهرِب الذي لا يعلم أحد إن كان نائماً ام لا "هل أخبَرت الاشخاص الذين ذَكرتُهم لك في رسالتي؟".

---

١ أفول: حالة من الضعف التدريجيّ

"نعم، وكُلهُم إنطَلقوا الى مَراكِش، لا تقلَق، فإن الحمامة المُطوّقة قد قامت بواجبها" يجيب المهرِب.

"أينَ أرسَلتها؟".

"لقد ذَهَبَتْ الى فارِس بالأخبار، وستعود لنا بالأنباء" يرد المهرِب.

"هل سَتَمُر على الاخوان والخلان؟" يسأل العارِف.

"كالعادة".

فتنهد العارف وأنشد قائلاً "الاندلس :

لِكلِ شَيءٍ إذا ما تَمّ نُقصانُ ... فلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشَ إنسانُ

هيَ الأُمورُ كما شَاهَدْتُها دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ

وهذه الدارُ لا تُبْقي على أحَدٍ ... ولا يَدومُ على حَالٍ لَها شَانُ

أينَ المُلوكَ ذَوّو التِيجانِ مِن ... يَمِنٍ وأينَ مِنهُم أكاليلٌ وتِيجانُ

وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ

وأينَ ما حازَه قارونُ مِن ذَهَبٍ ... وأينَ عّادٌ وشَدادٌ وقحطانُ

أتى على الكُلِ أمرٌ لا مَرَدَ لَهُ ... حتى قَضَوّا فكأنَ القَومَ ما كانوا

دَارَ الزَمَان على دَارا وقاتَلَهُ ... وأمَّ كِسرى فما آواهُ إيوانُ

كأنما الصّعبَ لم يَسهَل لهُ ... سَبَبُ يومًا ولا مَلَك الدُنيا سُلَيمانُ

فجائِع الدَهر أنواعٌ مُنَوعةً ... ولِلزَمانِ مَسراتٌ وأحزانُ

حتى المَحـاريبُ تَبكي وهي جَامِدةٌ ... حتى المَنـــابِرُ تُـرثي وهـي عيدانُ

يا غـافِلاً ولَهُ في الدَهـــرِ مَوعِظَةٌ ... إن كُنتَ في سِنَةٍ فالدَهـرُ يَقظـانُ

أعِندَكُم نَبـــأ مِن أهـــلِ أندلسٍ ؟ ... فَقَد سَرى بِحديثِ القـَومِ رُكبـــانُ

كَم يَستَغيثُ بِنا المُستَضعَفونَ وهُـم ... قَتلى وأسْـــرى فَما يَهتَزُ إنســـان

ماذا التَقـــاطُعِ في الإسلامَ بَينَكُمُ ... وأنتـمْ يـــا عِبـــادَ اللهِ إخـــوانُ

ألا نَفـــوسَ أبيَّـاتٌ لَـــهـا هِمَمٌ ... أمـا على الخَيرِ أنصـارٌ وأعـــوانُ

يـــا مَن لِـــذلَةِ قَـومٍ بَعدَ عِـزهِمُ ... أحـــالَ حـالَهُمْ جـورُ وطُغيـــانُ

بالأمسِ كـــانوا مُلـوكًا في مَنازِلِهِم ... واليَـومَ هُـم في بِـلادَ الـذِّ عُبـدانُ

فَلو تَـراهُم حَيارى لا دَليـلَ لَهـــمْ ... عَليهِمُ مِن ثِيـــابِ الـــذُلِ أللـــوانُ

لِمِثلِ هـذا يَذوبُ القَـلبُ مِن كَمَـدٍ ... إن كـــان في القَلبِ إسلامٌ وإيمانُ[1] "

"مَن كَتبَ هذه الأبيات؟" سأل المُهرّب.

"أبو البَقاءَ الرَندي" أجاب العارِف.

فنَكَسَ العارِف رأسه بعد قراءة هذه الابيات من الكتاب وغرق في غمه.

وإذ يعم الكدر عليهم، ويأسر قلوبهم إلتعاج، وبدأ الليل بعُتمَتِهِ يغطي السماء، حيث بدأت الشمس بالغرق في البحر من الاغتمام على الرثاء على الاندلس، فقد شاحت بنفسها خلف الافق ،كرِبة[1]، تبكي على حال الاندلس، ها هي تارة أخرى تودع حضارة كانت تشرق عليها كل يوم، ليصيح الديك، ويخبز الخباز، وينتصر الفرسان في حروبهم،

١ مقتطفات من قصيدة رثاء الاندلس لأبي البقاء الرندي

وينشد الشعراء قصائدهم، ويكتب العلماء إختراعاتهم وإكتشافاتهم، ويتبادل الفلاسفة أفكارهم، ويبني الملوك قصورهم وقلاعهم، وتُبنى المدارس والجامعات، ويتوجه الطلاب من كل أصقاع الارض ليتعلموا من علمها، فمنهم من نشد طبابة ابن الكِتّاني، ومنهم من تعمق في فلسفة وتصوف ابنَ مَسّرة، ومنهم من سهر الليال مع المَجريطي، يبحث في الامبيقات والبوتقات والدوارق[٢] في المواد الكيميائية، ومنهم من إحترف مهنة الطب مع أبي القاسم الزهراوي، ألم يكن هو أول من قام بأستعمال القثطرة[٣]، وأول من ربط الشريان بخيط من حرير، وهنالك من ذهب وتفقه على يد ابن حزم، وكم منهم طرب على أشعار ابن زيدون، وألحان زرياب، على أوتار عوده وصوته الشجي، ولكن كانت هذه زَفرَة العرب الاخيرة، فالشمس قد أفِلت عن حضارتهم الغنية، الموفورة بالعلم، والفقه، واللغة، والشعر، والادب وغيرها، كما أفِلت من قبل على حضاراتٍ كسومر، وبابل، وأشور وغيرهم من الامم البائدة.

وعم الصمت وكان الوقت بطيء.

"ما أجملَ السَماء هُنا كأنَها عَباءة قِديسٍ غريبة مُرصَعة بالاحجار الزاهية، فالنُجوم كالياقوت والزُمُرد، واللّازورد، والؤلؤ، وغيرها من الاحجار الثمينة من كل لون ... " يقول المحارِب محاولاً أن يكسر السكون الذي عم البحر، لايسمعون غير أمواجه تدق على خشب القارب.

فنظر المُهرّب بعد أن كان غارقاً في الافكار "يبدو إن إيوستاس قد عَاد هذهِ الليلة غانِماً" يقول المُهرّب ويغمز للبحار، فينظر البحار القليل الكلام الى السماء ويبتسم.

"من إيوستاس؟ وما علاقته بالسماء؟" يسأل المحارِب.

---

١ الكدر، إلتعاج، أغتمام: حزن (كربة: حزينة)

٢ ادوات تستعمل في الكيمياء كالانبوبات وغيرها في المختبرات الكيمايئية

٣ القثطرة: ي عملية إدخال أنبوب معدني أو مطّاطي في جسم الإنسان لسحب أو حقن السوائل

"الم تسمع بإيوستاس؟" فينظر الى المحارب الذي يعكس وجهه جهله بهذا الشخص.

"إنه كقطعه نقدية معدنية، لها وجه إنجلترا، والوجه الثاني فرنسا" يجيب المُهرّب.

" لم تجبني! وما علاقته بالسماء؟" يقول المحارب.

"دعني اكمل ..." ينبه المُهرّب المحارب ويستمر بالكلام "هل رأيت يوماً قطعة نقدية مهما رميتها في الهواء ... "

"شير يا خط" يضيف العارف بين كلام المُهرّب.

"بالضبط، شير ياخط ياعزيزي الاسكندناوي تعني لعبة رمي العملة" يضيف المُهرّب ويكمل "فمهما رميتها في الهواء، فإنها تسقط على إستقامتها كلا الوجهين قائم".

"تحدث في الصُدَف" يقول المحارب.

"إيوستاس لا يعرف الصدف" يقول المُهرّب.

فيسأل المحارب بنبرة انفعال ملوءها الفضول والغيرة يعيد سؤاله "وما علاقة هذه القطعة المعدنية بالسماء؟"

"دعني اخبرك" يتمتع المُهرّب وكأنه يتمتع بسرد القصة كأنه هوميروس يلقي بحكاياته على اذان الاطفال المتلهفين لحكايات الالهة والابطال في غور الارض او اقطار السماء "إيوستاس هذا ياعزيزي هو قرصان، ويعمل للجانبين الانجليزي والفرنسي كمرتزق".

"مرتزق؟ كل هذا المديح والثناء بحق مرتزق؟ لقد أوصلته الى عنان السماء" يتعجب المحارب.

"هل سمعت يوما بالراهب الاسود" يضيف البَحار الذي كان ساكتا طول الوقت ورأسه مازال مغطى.

"نعم سَمعتْ، وما علاقته بإيوستاس؟" يسأل المحارب.

"إنه نفسه هو الراهب الاسود" يضيف البحار.

"وما علاقته بالسماء؟" يسأل المحارب.

"عندما يكون إيوستاس عائداً من معاركه غانماً فإن السماءَ تكون صافية، لكنهُ يومَ يكونُ خاسرا فانه يمارس سحره الاسود ويظللها بغيوم مكتومة" يضيف المُهرّب.

فينظر المحارب الى السماء تارة اخرى ويبتسم، فيسأله المُهرّب "لماذا تبتسم؟"

"تمنى أمنية" يقول المحارب.

"لماذا؟" يسأل المُهرّب.

"لقد رأيت للتو شهاباً وضاءً يجر خلفه ذيل الزَبَرجَد[1]".

"يبدو أن أحدهم يسترق السمع" يقول العارف، وهو ينظر بعمق ويتفكر في السماء، ولكنه يعلم إنه لايستطيع أن يكون كالجن، لا يستطيع أن ينفذ الى أقطار السماء، ولكن يعلم أن عليه أن يتفكر، ويتأمل في الوجود، ويعلم من أسرار الكون، وخباياه، ويقتبس العلم من مشكاة العلم.

"لقد وصلنا" قال البحار.

"أين؟" قال المحارب.

"الى الجزيرة" رد البحار.

"اي جزيرةٍ يا رجل، نحن في عَرض البحر" قال المحارب.

---

١ الزبرجد: حجر كريم لونه احمر مصفر كلون النار

وإذا بالبحر بدأت تتلاطم أمواجه، وكأن القيامة قائمة لا محالة، فتفجر البحر وتسجر[١]، والقمر بُعِّد وتكدر، وإنطوت السماء وكُشِطّت[٢]، وجنّ الليل وعسعس[٣]، فلقد حضرت الصاخة[٤]، فأعتصرت الغطغطة[٥] افئدتهم، وروعهم ما يحدث في البين[٦]، وبدأ القارب يتقلب من الرياح العاصفة، وكأن البحر العجاج سينطبق عليهم، واذ بالبَحار يبقى في مكانه هادئاً لا يتحرك، وإذا بابراج من خشب وحجر تظهر من أعماق الماء تحت ضياء النجوم، وكأن جبلاً يظهر من تحت البحر، وكل بدأ يدعو ربه قبل ان يلتهمهم اليَّم، فالمحارب يطلب من أودن[٧] أن يرحمهم من غضب وحش البحر ايكو–تورسو[٨] الذي يلتهم السفن ويذهب بالاموات الى العالم السفلي، والمُهرّب يتمتم تراتيل يوجهها الى اناهيتا[٩] لتحميه كما كانت تحميه منذ كان صغيراً، اما صلوات العارف فلم تكن مسموعة، واذ بالقارب بين لحظات من الهلع والقنوط، يستقر على ظهر جزيرة كالطود العظيم، عملاقة رست في وسط البحر، على ظهر حوت، تارة تطفو وتارة تغوص وتتضارب الاتجاهات الاربعة فلا يمُيز السكان شرقهم من غربهم، واذا بهم يجدون أنفسهم محاطين بقراصنة على رأسهم القبطان الذي يسمي نفسه الراهب الأسود.

"أهلاً بكم في سارك[١٠]" ويطلق الراهب الاسود ضحكة خبيثة معها زهزقة القراصنة.

---

١ سجر البحر: فاض وارتفت امواجه
٢ تكشطت السماء: أُزيلت و قُلعت كما يقلع السقف
٣ عسعس: اقبل الليل بضلامه
٤ الصاخة: النفخة الثانية في البوق في يوم القيامة
٥ الغطغطة: صوت امواج البحر العالية
٦ البين: المسافة بين الارض و النجوم او مايفصلها
٧ أودن Odin: كبير الهة الجرمان والاسكندنافيين
٨ Iku-Turso: وحش مائي على شكل اخطبوط
٩ اناهيتا: الهة الماء في الديانة الفارسية القديمة
١٠ جزيرة سارك: وهي جزيرة تقع في بحر المانش بين فرنسا وانجلترا وهي كانت الجزيرة الي لجأ اليها الراهب الاسود (حقيقة تاريخية)

ميثاق اللصوص

كانت الوجوه شاحبة، والشفاه يابسة، والعيون تائهة، والفرائص مُرتعدة[1]، والروح متعلقة بقَشة، والاجسام متصلِبة كإنما نُفِخ في الصور، لقد أصابهم الرَّوع، وسقمهم شدة الوصَب، فما حدث لهم لم يكن في مخيلتهم، كأنهم ماتوا وبُعِثوا من جديد، فقد عاد البحر وكظِم غضبه، وبان القمر وضَاءً في ليلٍ مرصع بالنجوم كوجه إمرأة جميله بيضاء يملؤه نَمَش، وبعد صمت البحر الرهيب، مازالت دَردَرة[2] المياه بين الوديان، وذفيف[3] طائر القَطرس البحري، وزهزَقات القراصنة تتضارب في أسماع المحارب، والمهرب، والعارف، كأنه صدى يصدح في أذانهم، فهم قد خرجوا هاربين من الملك هنري الثالث، وتأسرهم أفكار المطاردة لفرسان الملك، أو سُفن الاسطول، ولكن لم يكن في حسبانهم خروج أرض من تحت الماء، جزيرة باكملها رَست في منتصف البحر.

"أهلاً بكم في سارك" يقول القرصان الذي يضع قطعة سوداء تغطي عينه اليمنى، ويلبس سروالاً رمادياً ضيقاً، وقميصاً أبيض، وعباءةً حمراء، حينما كان بقية القراصنة نصف عراة، يلبسون سراويل فضفاضة لونها رمادي فاتح، وجوههم بيض كأنهم أموات، تَخْلو عيونهم من الحياة، شعورهم هُلب[4]، أجسامهم نحيلة، سيوفهم بأغمادها على احزمة مربوطة بخصورهم، على ظهورهم علامات تعذيب، نمت طحالب الماء فيها، وحشرات الماء أقامت في أخاديدها، أصواتهم فيها شحيج[1]، أشكالهم تعكس الخوف والرعب.

"أهلا بكم في سارك" ردد القراصنة بعد رئيسهم، حتى أصبحت هذه الكلمة نذير شؤوم.

---

١ ارتعدت فرائصه : فزع ، خاف خوفًا شديدًا
٢ صوت الماء المندفع في الأودية
٣ ذفيف الطَّير : صوت سرعته في الطيران
٤ هلب: منتفه

"أهلا بكم في بُعد ثلةٍ من العارفين، وجنة كوكبة من المتنورين، وهاوية جمهور من القطيع" يقول القبطان "كل الاحياء أعدائي" يقولها وهو يطقطِق بعظام رقبته "ولكن، أنتم ضيوفي، يحميكم ميثاق اللصوص".

وإذا بالمحارب ينهض على قدميه، غير آبه بقول القرصان، ويقول له "ميثاق؟ أنتم القراصنة ليست لكم ذمة، ولا تتمسكون بعروة، فانتم تأخذون من المحتاج ماله، وتيتمون الاطفال وتثكلون النساء" بنبرة كلهه ثقة.

فنظر المُهرّب الى القرصان، الذي بدأ وجهه يتَربد، ولكن سرعان ما أبيض وجهه وأرتسمت إبتسامه على وجه القرصان وقال "يا صديقي، لكل شيء قانون حتى الفوضى، لقد قطعت عهداً مع أحد اللصوص النبلاء بحمايتكم وايصالكم الى بر الامان".

واذ بالمُهرّب يحاول تدارك الموقف ويقفز ضاحكاً "لقد أرعبتني يا راهب، ماهذه الحيلة الجديدة؟".

يمد المحارب يده للعارف ليساعده على النهوض، فالعارف لم ينطق ولو بكلمة واحدة، ويقول القرصان "أنتم ضيوفي لهذا اليوم، أريحوا أجسادكم، وكلوا، وسننطلق غداً بعد الظهيرة"

"تفضلوا أُريكم جزيرتي الصغيرة" وينطلق القرصان وخلفه المحارب، والمُهرّب، والعارف، والقراصنة يمشون يحيطون بهم على شكل دائرة، كأنهم أسرى يقاد بهم الى الهاوية، ولكن القبطان كان يتكلم بكثرة وكان مرحباً بهم بطريقة غريبة، تدعو للرِيبة.

وصلوا الي بيت في الجزيرة، فدخلوا فيه وبقى القراصنة في الخارج، فطال الحوار داخل المنزل مع العارف والقرصان يتكلمون عن اخبار العالم، في مكتبة صغيرة فيها كتب

---

١ شحيج: صوت الحمار او البغل المرتفع

نفيسة وفريدة، وادوات نحاسية وفضية متنوعة، المُهرّب يجلس قرب مصطلى[1] موقود، العارف يجلس على كنبة لشخصين، والمحارب واقف مستند بظهره الى الحائط ويمسك رمحه.

"إن إنحلال الاخلاق يا أيها العارف هو سبب سقوط الحضارات، والانشقاق أيضاً، فإن ضياع الوحدة في كيان المجتمع من الاسباب الرئيسية، وهنالك من يعزوها الى ابتعاد الامراء والحكماء عن الدين، والسقوط الى غرائزهم بين الغواني وأوقات الخنا، ولكني أرى أن التقاعس عن الاستمرار بتثقيف العقل والاخلاق، ولربما ايضاً المبالغة من الاسباب التي تؤدي إلى موت كل ماهو حي، فالتعصب في اي شيء سيؤدي بالمبدأ بالاخفاق والانمحاص" يقول القرصان ويرتشف بعضاً من النبيذ.

"هذه هي الحياة" يرد العارف وكانه لا يسمع لهذا الكلام بل عيناه تبحث عن بعض الكتب الموجودة على الرفوف.

ويعم السكوت قليلاً، واذا بالمُهرّب يسأل القرصان، وهو يفرك يديه ويقربها من النار "ما أخبار الشرق؟".

"مضطرب! وبدء القِدر بالغليان" يرد القرصان.

"كالعادة، أنا لا اثق بما يقوم به المغول" يضيف المهرب.

"لا لا يا زميلي، المغول حركاتهم متوقعة، وخطواتهم معروفة فهم يريدون حكُم العالم، وهم يتوسعون الى الغرب بسرعةٍ كالنمل، لكن ليس هم المشكلة، المشكلة من الداخل! حروب البيزنطيين، والحروب الصليبية، وظهور المماليك، وصعود دولة الموحدين في المغرب، والحموديون في الجزائر، كأن رب المسلمين، واليهود، والمسيح يخطط لشيء

---

١ مصطلى: مدفأة

غريب، وكأن الالهة همت بالرحيل الى ماوراء المجرات، إن عصر الانسان قد بدأ بالبزوغ منذ مئات السنين ولكن يبدو أن الانسان نفسه بدأ يحكم الالهة، فبدأت الالهة تشتاط غضباً، حتى إن الخرافات التي انتهت بدأت بالظهور، فمثلا انتم تتكلمون مع شخص قد مات منذ عشرات السنين" ويبدأ القرصان بالقهقة.

يعم السكوت لثوان، ثم يقوم المُهرّب ويسأل القرصان "من أين كانت رحلتك؟".

"من أقصى، أقصى الغرب" يجيب القرصان "من حضارة يحكمها همج متحضرون، أقاموا حضارة إسمها الازتك، لديهم من العلوم الغريبة والكثيرة، فهم مزيج جميل من الانسان البدائي، والفراعنة، وقبائل سيام".

"همج؟" يأتي صوت المحارب الذي كان واقفاً كالتمثال لا يتحرك، حتى لربما لا يتنفس "لقد سمعت كلمة همج؟" يقول وهو غاضب.

"نعم؟ وما العجب في هذا؟" يسأل المُهرّب.

"وهل له الحق ان يتكلم عن الهمج" يقول المحارب "إنهم قراصنة بحق كلام الرزم[1] المقدس، انهم يهجمون على سفن الناس، ويسرقون حاجات الفقراء، ويعتدون على ما ليس لهم حق به".

"مالذي يقوله؟" يسأل القرصان وكأنه يعلم ان المحارب قد قال بحقه كلاماً غير جيد، وكأن القرصان لا يريد سماع كلام المحارب عن الشرف والميثاق والامانة والاعتدال.

بدأ المُهرّب محاولا التلاعب بالكلمات لكي يتغاضى القرصان على الكلام الوقح الذي قاله المحارب، وبدأ يتكلم عن أمور قام بها من الخبث والدهاء لربما تساعد على قضاء

١ الرزم: صوت الرعد

الليل من دون مصاعب، فلم ينسَ المُهرّب ان القرصان شيءٌ ليس من هذا العالم، شيء يجب الاحتراس منه وأخذ الحذر من إغضابه.

لم يستطع القرصان سماع كلام المُهرّب "من يتكلم عن الهمجية؟" واذا بالقرصان يجلس بهدوء على كرسيه مخاطباً المحارب "يا عزيزي الذي قَدِم من الشمال، ان القرصنة ليست بالشيء الجديد، فنحن لقد تعلمناها من الافضل، إن أول من قام بالقرصنة هم الذين غير معلومٍ اصولهم، الذين هاجروا مع قبائل السومريين من جنة بحر الجنوب، وإستوطنوا الارض التي عُرفت بالفينيقيين، وقد أصبحوا أول قراصنة الارض، فهم كانوا يحكمون مياه البحر المتوسط، بسفنهم الكبيرة والسريعة، فكانت سفنهم افضل من اي سفينة نملكها الان، وكانت عظيمة كفلك نوح، رشيقة كالبجع، مدمرة كفصيلة محاربين أوباش من اسبارطة، فكانوا يعيشون على سفينتهم، لانها تسع للسلاح والمتاع، كانها مدينة تطفو على سطح الماء، وعندما حكمهم شروكين[١] ارسلهم الى اصقاع الارض، كما أن ابن الملك مانشتوسو[٢] وصل الى حدود الدنمارق، وكان يرسل بحارته ويطرب على اشعار إنخيدوانا[٣] للألهة اينانا، ملكة جهات الارض الاربعة، وبعد الملك المكين، أتى أجدادك من أهل إسكندیناوة، وقام ليف إريكسون[٤] بالقرصنة منتشيا بأشعار إگيل سكالاگرمسون[٥]، ونشأ قراصنة الشمال لديهم قانون أخلاقي يدين بالشجاعة التي لا ترعى مبدأ ولا ضميراً، فلا يؤمن الفايكنج الا بقوته، والغريب بألامر، نحن قراصنة هذا الزمن نعتمد على الاختباء، والحيلة، والدهاء، والمرواغة، أما أجدادك يا إيها الهمجي، فكانوا يواجهون أعداءهم بأن تدخل سفنهم إلى داخل أراضي العدو، وتعتريهم نشوة

---

١ شروكين : شرو – كين تعني الملك المكين باللغة الاكدية وهو لقب سرجون الاكدي

٢ مانشسوتو: ابن الملك سرجون الاكدي

٣ انخيدوانا: ابنة الملك سرجون الاكدي، وهي اول راهبة معبد اينانا وهي اول اسم يكتب على الالواح المسمارية وايضا كانت شاعرة فشعرها اول شعر معروف في التاريخ.

٤ Lief Erikson: من اشهر الاشخاص في تاريخ الفايكنج فهو اول من اقام دوله في غرينلاند وهو اول من ابحر الى امريكا الشمالية واقام مستعمرات بما يقارب ٥٠٠ عام قبل كريستوفر كولمبس.

٥ Egill Skallagrímsson: هو شاعر من الفايكنج عاش في القرن العاشر الميلادي

القتال –البيرسيرك– فلا يتركون أمامهم شيئاً، إلا ودمروه، فانتم وإن كنتم وثنيين، ولكنكم تُشاركون الديانات الاخرى بالهمجية، فكلكم تموتون من أجل الجائزة الكبرى، أنتم تموتون من أجل الفالهالا[1]، وهم يستشهدون من أجل الفردوس، لا تحدثني يا إيها الاشقر الكبير عن الهمجية، فكلنا همج، كلنا حيوانات نتكلم، نقتل بعضنا بعضاً، يغتصب أحدنا حق الاخر، ومنا من قرر أن يكون مسالماً، فجعل الضعيف يؤكل من قبل القوي، فاصبح المسالم أكبر سبب في هلاك الارض، لا تخبرني من الهمجي، فكما كان الفينيقيون، وأجدادك من قبل، فقد حان وقتنا، لكن مع فرق بسيط جداً، نحن الان نملك سلاحا جديداً، ليس القوة الضاربة التي تملكوها، ولا التطور الذي ملكه الاكديين، والفينيقيين، والاسبرطيين، ولكن نحن نملك ارشكيجال، هايدس، أنوبس، كالي، وعزرائيل[2] الى جانبنا، نحن الموت، نحن شر لا بد منه"

الكل أصغى الى كلام القرصان، وكأن الغرفة قد تلبدت بغيوم سود، وهبت رياح قوية إقشعرت منها ابدانهم، وعلِم العارف أن هنالك خطباً ما يحدث في ماوراء العالم هنا، هنالك أحد قد رصّ الطلاسم بشكل مغاير، وإن الاقطاب قد تداخلت في ما بينها.

"أنظر الى نفسك، لماذا تستعمل هذا الرمح؟" يعود القرصان موجها الكلام الى المحارب "أليس هذا الرمح هو گوكنير، رمح اودن" وكأن القرصان عاد الى مزاجه الطبيعي.

"نعم، انه رمح أودن" أجاب المحارب.

"أنظر الى ذلك الصندوق" يؤشر القرصان على صندوق خشبي كبير قرب الجدار، ويقول له "افتحه".

---

١ Valhalla: وهي قاعة الموتى او هي بنظرهم كفهوم هي الجنة، حيث ان الذي يموت بالمعركة سيذهب هناك مع الالهة والابطال

٢ هذه اسامي الهة او ملائكة الموت او العالم السفلي في مختلف المعتقدات

ففتحه المحارب، فيه أشياء كثيرة، وفيه درع دائري ذهبي اللون، "سفالن! هذا درع سفالن!" يقول المحارب متعجباً.

"نعم" يرد القرصان، وهو يرتشف أخر قطرات النبيذ "إنه درع اودن".

"كيف حصلت عليه؟" يسأل المحارب.

"عندما كنت على قيد الحياة، وأتمتع بروح الأيمان في داخلي، وكنت أساعد كلٌ من جون ملك انجلترا، وفيليب الثاني أغسطس ملك فرنسا .." يبدأ القرصان بسرد القصة واذا بالمحارب يقاطعه.

"لماذا كنت تخدم الجهتين؟ أين كان يكمن ولاؤك؟"

"يا صديقي الهمجي، قبل أن أكون همجيا مثلك، كنت عبداً مؤمناً يتضرع الى الماجدولية ويُقبِل قدم المصلوب، ولكن كل شيء أفعله من شفاء الناس ومراعاتي لهم، وأستعمالي لأساليب الطبابة التي تعلمتها من العرب، فالعلاج بالحقن الشرجية، والحجامة، والكي، الذي أستمديته من كتاب القانون في الطب لابن سينا، ومعالجتي لامراض الحصبة، والجدري في كتاب المنصوري للرازي، كلها تعتبر هرطقة عند المستفيدين من الكنيسة، والدخلاء على الدين المسيحي من الذين ينهشون أموال الاغبياء من المتديّنين، أدى هذا كله الى اتهامي بممارسة السحر الاسود، وإضافة الى ذلك معرفتي بإبن عزرا الحكيم الكبير، أكسبني سمعة الراهب الاسود، اي الراهب الذي يمارس السحر الاسود، فعلمت أن الذي يتبع مؤسسات الدين إنما هو مائق، ألوق، أحمق"

"كلها تعني الشيء نفسه" يضيف المُهرّب مبتمساً مزدرئاً.

"لا تقاطعني" يرد القرصان شزراً.

"فقررت أن أُوقع بين الملِكَين السفيهَين، ثم بعد سنين علِمت أني إذا أوقعت بينهم سيأتي غيرهم، وعندها علِمت بأني وقعت في الفخ، وأضعت الطريق، وخنت الامانة، وخرجت عن حب يسوع، فلعنتُ نفسي، وبتُ أجول في أنحاء الارض، كارهاً كل شيء، فغِرت على كثير من قراصنة الشمال، لعلي أتخلص من شرهم، أعوض به ما فقدت من روح في داخلي، فكسبت كثيرا من الغنائم، فكان الدرع واحداً من الغنائم، عدت به ولم أعد بروحي" يقول الراهب ولا توجد في عينه نظرة أسى.

فكان المحارب يمتع ناظريه بالدرع.

"خذه، هذا عربون صداقة من همجيٍ متحضر الى همجيٍ بدائي".

قبل المحارب الهدية على مضض، فليست هنالك من الاخلاق ما تمنعه من أن يأخذ الدرع، رغم أنه يكره هذا القرصان ويرفض مبادئه وقيمه.

"وبعد موتك؟" يسأل العارف مقاطعاً موضوع الدرع ليعود الى لغز القرصان.

"لا أعلم متى مت، ولكني أعلم اني كنت أتعبد من كل قلبي الى روح الكون، بِأن تعفيني الموت وأن تجعلني أقوم بقبض الارواح الهائمة وإعادتها الى دورة الحياة من الحياة والموت والنشور" يرد القرصان.

"وأنت الان هنا؟!" يضيف العارف مستغرباً.

"لا أعلم كيف، كل ما أعلمه اني كنت أبحر في البحر الابدي الذي لا ارض فيه ولا ريح، واذا بغراب اسود يهبط على صارية السفينة، فعلمت اني في ارض الاحياء، فعدت الى الجزيرة، واذا بالجزيرة غير موجودة، فغطست تحت اعماق البحار وايقضت الوحش الذي تعيش على رأسه الجزيرة، واذا به يطفو، وأراكم امامي، وكنت اتأمل الاجابة منك يا ايها العارف" يقول القرصان متحيراً.

فلم يجب العارف السؤال، ونظر العارف الى المُهرّب متسائلاً.

"ولا انا" يرفع المُهرّب يداه كأنه بريء ويقول "أنا كنت في الواق واق، وساهمت في الثورة، وأتاني مرسال، يقول إن شيخ الجبل[1] يريدني في أسرع حال، فذهبت الى سيام أولاً، كما طلبت مني يا إيها العارف، وأقمت في مملكة نغيون يانغ[2]، ودربت الامير الشاب منغراي[3] على أساليب القتال المختلفة، وبعد أن وجدته ذكياً، حذقاً، سريعاً، شجاعاً، وبعد أن تعلم من فنون القتال أفضلها، حزمت أمتعتي، وإنطلقت الى عش النسر وتكلمت مع شيخ الجبل، فأعطاني الكتاب والارشادات، وواحدة من الارشادات تقول، اني بعد خروجي من انجلترا يجب أن أتجه الى الراهب الاسود، فعند قدومي، والقيام بالمهام التي كانت على عاتقي، سألت بعض العارفين، وأذا بهم يتجنبون الجواب، وكُلهم يقولون بأني يجب أن اترك هذه الرحلة، حتى إن شيخ الجبل بعث لي بغرابٍ أسود يقول لي، إني إذا تركت هذه المهمة سيجعلني أغنى أغنياء فارس، لمجرد تركي لهذه المهمة" يقول المُهرّب.

"أنتَ مِن الحشاشين![4]" يصرخ المحارب وفي صدره نفت.

"وماذا في ذلك؟" يتسائل المُهرّب جافلاً.

"گريگرس!!" نعر العارف بالمحارب، وينابيه بأسمه "ليس الان، نحن سوية في هذا الان، أُترك الأحقاد، كل منا له خطاياه، نحن أبناء اللحظة، أعلم أن تقاليدكم لربما لا تتسم بالعفو والصفح، لكن لكل قاعدة شواذ، وحان الوقت لتتسم بصفات بعيدة عن

---

١ شيخ الجبل: كان رئيس الحشاشين في قلعة ألموت

٢ Ngoen Yang

٣ Mangrai

٤ الحشاشون: طائفة اشتهرت باعمال الاغتيالات والدخول في سياسات الدول ومنهم اشتقت كلمة Assassin يعني القاتل

عاداتك، فالذي يبقى متعصباً لعاداته مهما كانت عظيمة، ولا يثقفها في مرور الزمن قد خاب، فتغاضى عن الموضوع الان، لايهم من هو، بل يهم ما يقوم به الان".

فيهدأ المحارب ويأخذ نفساً عميقاً، ونَهَض العارف ينظر الى الكتب، ويقلب أوراقها، وينهض المُهرّب، ويبدأ بكتابة رسائل صغيرة، ويخبئها في ثيابه، ويتهامس مع القرصان، وكان المحارب ينظر الى النافذة وطلوع الفجر.

وبعد ساعات قليلة دخل أحد القراصنة هرعاً.

"مابالك يا غبي! ألا تعلم أني مشغول ولدي ضيوف" يصرخ القبطان بالقرصان.

"أسف يا سيدي، ولكن إيها الراهب" يقول القرصان متلعثماً، وهو ينظر الى العارف والمهرب، ثم يضيف "إن هنالك غراباً أسود فوق منزلك".

فخرج المُهرّب والقبطان هرعين، كان الغراب يمسك رسالة بمنقاره، رماها الى الارض بعد أن رأى المهرب خارج المنزل، وبعدها حلّق بعيداً، ففتحها المهرب وقرأها، وعاد المهرب والقرصان مسرعين الى داخل المنزل.

"فريدرك الثاني قد مات!!" قال المهرب للعارف.

"ماذا؟" إنتفض العارف، ويقع الكرسي على الارض، وتتناثر الاوراق التي كان يقرأها على المكتب.

"يجب علينا الاستعداد للرحيل، قال القرصان" وخرج يصرخ على القراصنة ويضربهم بسوطه.

"ماذا تريدني أن افعل؟" سأل المُهرّب العارف.

"إستمر على خطتك، سابعث أنا برسالة الى توما" يرد العارف بصوت هادئ كله شجو.

ففتح المُهرّب الدرج بأستعمال بعض الادوات الصغيرة وبدأ وكأنه يسرق الدرج، فأخذ شيئا منها ووضعه مع أغراضه، ثم إنطلق هو والمحارب الى الخارج، حاملين أغراضهم وتوجها الى السفينة.

"أحس بشيء غريب" يقول المُهرّب الى المحارب.

"وماهو؟" يسأل المحارب.

"لا أعلم، هنالك شيء لا أستطيع أن أفهمه" فيهز برأسه "لا عليك، فلنكمل طريقنا".

كان العارف داخل المنزل يتنهد ويقول وهو حزين "فريدرك!

أبكيكَ لو نَقَعَ الغَليلُ بُكـــائي وَأقُولُ لَوْ ذَهَبَ المَقـالُ بِدائي

وَأعُـوذُ بـالصّبْرِ الجَميـــلِ تَعَزّياً لَوْ كَانَ بالصّبْرِ الجَميـلِ عَزائي

وجرى الزّمـــان على عَوائِد كيده في قَلبِ آمالي وعَكسِ رجائي

قَدْ كُنتُ آمُلُ أنْ أكونَ لكِ الفِدا مِمّا أَلَـــمّ، فكُنتِ أنْتِ فِدائي[1]".

تنهد العارف تارة أخرى، وقال "يرحمك الله ياصديقي" ثم خرج العارف من المنزل منطلقاً الى السفينة.

---

١ قصيدة رثاء للشاعر الشريف الرضي

عالم المرايا

يخرج العارف من المنزل بعد ما أخذ بعض الكتب التي كان يبحث عنها، وخرج والشمس مشرقة بكامل جمالها، تعطي لون البحر زرقة غامقة، وزبدته البيضاء نصاعة، والحشائش خضرة داكنة، وزهورها الملونة نضارة، هوّن جمال الطبيعة على قلبه من الحزن على فقدان صديقه فريدرك الثاني، فكان قائد الحملة الصليبية ملك القدس ملكاً طيباً، مثقفاً، رعى الفنون وشجع العلم، كان من المعجزات التي يتغنى بها العارفون، والشعراء، والجنود، والقادة، والساسة، لقد فقد العالم من أعظم أبطاله، وأشهر ملوكه، فكان يجيد اللغات اللاتينية، والجرمانية، واليونانية، والفرنسية، والعربية، والعبرية، قائد شجاع عَثَمْثَمِ[1]، نبيل لبيب مُكرّم.

"يرحمك الله يا صديقي" يقولها العارف، وأفكاره ملبدة بالغيوم الراعدة، يأتدي بخطواته، سارح الفكر، مستبسراً[2].

وإذا بجفون العارف تفتحت وتوسعت، وباطنه يستفيق من الغمة، وأفكاره تعدو بأنتظام وتتراص بحُلم، وإذا بعقله يأخذه الى مكان بعيد.

"لا تذهب الى السفينة!" يتردد هذا الصوت في رأس المُهرّب، وهو يتساءل لا يعلم ماذا يسمع، وينظر المحارب اليه بغرابة.

"مالخطب؟" يسأل المحارب.

"لا أعلم هناك صوت في رأسي" يقول المُهرّب مستغرباً.

---

١ عثمثم: اسم من اسماء الاسد

٢ مستبسر: متجهم

"هذا أنا ايها الغبيان" يأتي الصوت في رأسهما، إنه صوت العارف يتكلم معهما من بعيد عن طريق التخاطر.

"أين انت؟" يسأل المُهرّب، ومازال لا يعلم هل يتكلم بلسانه أم بأفكاره، ولكن الكلام يخرج من فيه من دون إرادة.

"أنا مازلت عند المنزل، عُودا ادراجكُما، الان!" صوت العارف في رأسيهما يقرع كالطبل.

علِم المُهرّب إن هنالك خطباً ما، فأشار الى المحارب، وبدأت خطواتهم تتباطأ وبعد أن أصبحت بينهم وبين القراصنة مسافة، رجعا مسرعين الى المنزل، وينادي المحارب بصوت عالٍ "مابالك ايها العارف؟".

يتأخر العارف بالرد إذ إن عينيه كانتا تنظران الى فوق وكأن جسده ارتفع عن الارض ارتفاعاً طفيفاً، وكأنه معلق بشيء "هنالك سفينة اخرى على الطرف الاخر من الجزيرة" يرد بعد لحظات.

فوصل المُهرّب، والمحارب يلهثان، أغراضهما تساقطت من حمولتهم خلفهما كأنها أثار.

"هل هي للملك؟" يسأل المحارب، ويده تقبض على الرمح مستعدا للقتال.

"لا! انها سفينة الراهب الاسود" ويعود العارف الى حالته الطبيعة، وذهبت من عينيه النظرة البعيدة.

"ماذا تقول؟ إن سفينة الراهب من ذلك الاتجاه!" يقول المُهرّب لاهثاً مؤشراً بالاتجاه الاخر.

فيسكت العارف للحظات مغلقاً عينيه، واذا بأسنانه تقعقع، "تباً!" ويبدأ بالهرولة عكس الاتجاه الذي قدم منه المحارب والمهرب.

فيلحقاه المُهرّب والمحارب "هل جُننت ايها الهرِم؟" يقول المُهرّب وهو يعدو خلفه.

"إن هذه الجزيرة تطفو على الكامي!" يصرخ العارف ومازال على خطواته المسرعة.

"و ما هو الكامي يا سيدي؟" يقول المحارب.

"إنه سلورة ..." يبدأ العارف ومازال يهرول.

"يعني سمكة" يقول المُهرّب شارحاً.

"عملاقة" يكمل العارف غير مقاطعاً كلامه "أطوالها تختلف، أكبرها طولها سبعمائة ميل، تحمل جزر الواق واق على ظهرها".

"اليابان" يحاول المُهرّب ان لا يقاطع الكلام، لكن يريد أن يشرح للمحارب ما هي جزر الواق واق.

"أنت تعني، ميدغاردسورم" يقول المحارب الى العارف، وهو يركض خلفه.

"هو نفسه! فهو جُعلِ الزلازل، فان الارض التي تطفو على المياه مثل الطوف، وإن المياه، المضطربة بفعل العواصف، تسبب الهزات والزلازل تكون هي الجزر التي تطفوا على الكامي، وهذه الجزيرة التي نحن عليها، هي من الجزر الصغيرة التي يحملها كامي صغير" يقول العارف.

"وماذا يعني هذا؟ ما دخله بالراهب الاسود" يسأل المحارب.

"الراهبان!" يضيف المُهرّب متسائلاً فاصبح الان راهب في كِلا الاتجاهين.

"إن القرصان هذا ليس بالراهب الاسود، إن الراهب الاسود لم يمت، إن القرصان إنما اتى من بُعدٍ ثانٍ" يقول العارف ويضيف "إن عالم المرايا هو العالم الموازي لعالمنا، فما كان العالمان منفصلين أحدهما عن الاخر، وكانا يعيشان في سلام، وذات ليلة غزا أهل المرايا بقيادة ملكتهم الارض، وإثر معارك دامية، غلبت فنون السحر التي حُبي بها ملك الارض، فدحرهم وحرمهم من قوتهم، وسحنهم، وجعلهم مجرد إنعاكاسات تابعة".

"أي فصل العالمين!" يقول المهرب.

"ولكن كيف عادوا؟" يسأل المُحارب.

"أحدهم قد قام بشيء غبي جداً، أو ذكي جداً، ومنه فتحت بوابة عالم المرايا، وعادت لهم قواهم، وبدأوا يعبرون البوابة، فالكامي، والقرصان وغيرهم هنا في عالمنا من ذلك العالم".

"وهنالك كائنات أخرى قد عبرت أيضاً" يقول المهرب.

"يجب إيقاف هذا، مهما كلف الامر" والعارف يقول ما يقوله، واذا بسفينة تظهر من خلف الصخور، راسية في البحر قريبة من الجزيرة، ويسمعون هتافات من السفينة تناديهم، ويرى المُهرّب السفينة ويشير اليها.

"إنها فعلا سفينة الراهب الاسود".

"ماذا تقصد؟ الم ترها من قبل؟" يقول المحارب.

"بالطبع لا، انا عقدت الاتفاق معه عن طريق الغراب" يرد المهرب.

"إذن أنت لم تكن تعلم إن كان القرصان هو الراهب، أم لا؟".

"وكيف لي أن أعلم" يقولها المُهرّب فيسمعون صرخات من الخلف، القبطان وقراصنته يعدون خلفهم، حاملين سيوفهم.

"لا يبشر بخير!" يقول المحارب ويرمي الحمل على الارض ويقبض برمحه مستعداً للقتال.

"ليس الان! ليس الان على الاطلاق! إذا صعدنا على متن تلك السفينة سنسبقهم" يصرخ العارف بقوله.

"بالطبع، سيحتاجون الى وقت ليعودوا الى سفينتهم ومن ثم ينطلقون بها حول الجزيرة ثم الى عرض البحر، لن يلحقوا بنا ابداً، خاصةً إن أسرع سفن البحر هي سفينة الراهب الاسود" يقول المهرب .

"هيا! هيا! هنالك قارب عند المنحدر، وهنالك شخص يلوّح لنا" يقول المحارب.

"اكره البحر!" يقول المُهرّب ثالباً[1].

فينطلق الثلاثة الى القارب ويصعدون عليه، فكان القارب مشدوداً بحبل الى السفينة، وتنطلق السفينة تجر خلفها القارب لكسب الوقت، وبدأ المحارب والرجل الذي يجلس بالقارب يجذفان بكل قوتهما، وتتعالى الاصوات اللاعنة، والحانقة من القراصنة وقبطانهم، وهم يعودون راكضين الى سفينتهم.

"هذا سيمنحنا كثيراً من الوقت" يقول المُهرّب متأملاً.

فوصلوا الى السفينة، وباتوا على سطحها، بمساعدة البحارة، ويوجد وراء الحشد من البحارة شخص يجلس على كرسي، إنه الراهب الاسود، رجل أشيب، شعره رصعه

---

١ يثلب: يشتم

البياض، اضرط[1]، بلغ من العمر عتيا، يلبس قلنسوة سوداء، عيناه تميل الى الصفرة، وجهه مجعّد، لا يستطيع الوقوف، مبتسم ابتسامة خبيثة، فيتبسم العارف، ويقول "ماستر" بلغة الانكلوسكسونيين.

"بلغتَ أشدك، وعُلمتَ من تأويل الاحاديث، وعُلمتَ البيان والحكمة، وقد أوتيت خيراً كثيراً، وأخذتَ من علم الانبياء والعلماء والفلاسفة، وفصلتَ الخطاب، وقمتَ بما قمت، وخالفت القوانين، وتحديتَ من تحديت، وعارضتَ من هم أعلى منك شأنا، وقلنا لعلك تؤتى خيرا، وها أنا أنقذك من براثن الموت كغلام يخاف من قصص الاطفال والحكايات التي تروى" يقول الراهب الاسود الى العارف.

فطأطأ العارف رأسه، وكأنه طالب يقف أمام معلمه بكل إحترام وإجلال، وقال متبسماً "جميل ان أرى انك لم تفقد لسانك اللاسع، وكلامك الجاف، يا سيدي، نسأ الله في أجلك".

"نعم! ولا تتحاذق يا ولد!" رد الراهب.

فضحك العارف وقبّل يد الراهب، وحل الظلام، وكان العارف والراهب في الكابينة منكبين على الاوراق، والخرائط، والكتب، والادوات.

ومرت الساعات، وكان المُهرّب يُفكر بعمق، وتمعن، وهو جالس على رأس الصاري وحيداً، شارداً بفكرهِ، وأما المحارب فجلس يشرب الرم[2] مع البحارة القراصنة الذين يشدون حبال قلوع السفينة، وينطلقون بها بكل سرعة، بمساعدة المجذفين فهم في سباق مع الوقت، هاربين من قبضة القبطان وقراصنته، ولكن ما منعهم السباق والعمل من أن يتمتعوا ببعض الوقت ويقومون ببعض الغناء:

---

١ أضرط: خفيف الشعر

٢ الرم Rum: هو نوع من انواع الخمور اشتهر البحارة بشربه

"بحر المانكس وبحر المانش وبحر الشمال

هممم روم روم روم روم هممممم

حلي فرنسا وجواهر انكلترا وغانيات ايرلندا

همم روم روم روم روم هممممم

نحن ننهب ونهدد سفن تجارة الغال

يوها يوهم روم روم روم هممم

نحن نسرق سلع السكوت واموال هولندا

يوها يوهم روم روم روم هممم

اعلامنا سود لا تنكس، يهابها الرجال

همم روم روم روم روم هممم

والراهب ممسك بمقبض دفة المركبة ويشرب الرم

روم رم رم رم رم رم روم روم

وبعد ايام قليلة، كان صباح يوم جديد، والشمس في عنان السماء، والبحر الازرق هادئا كالزئبق، كثيف، ميت، لا حركة فيه، ولا حتى موجة صغيرة، او حتى تجعيدة على سطحه الاملس، فالرياح كأنها توقفت.

"لا تبشر الرياح بخير!" يقول المُهرّب وهو يأكل وجبة الغداء يسمع صوت انين المحارب المستلقي على الارض.

"رياحنا هي نفسها رياحهم يا صديقي" ويأن مرة اخرى، "نحن نجري بنفس السرعة التي يجري بها القرصان" يرد المحارب الذي صحى تواً من النوم يمسك رأسه من الصداع القوي الذي اطاح به كثرة الخمر الذي شربها ليلاً.

"لقد أسرفت بشرب الرم" يبتسم المُهرّب "لقد شربت برميلين كاملين!".

"نحن أهل الشمال، الشرب من شيمنا" يرد المحارب، ويقف على قدميه "ماهذا الحر الشديد، إني أتعرق كالخنزير" ويميل المحارب الى حافة السفينة "ما هذا يبدو اني مازلت مخموراً يا صديقي" ويقهقه "اني أرى سفينة في البحر" يستمر بالقهقة.

"ماذا؟!" ينهض المُهرّب بسرعة، ويسقط صحن الاكل من يده.

"أعتقد أنه سراب البحر" يقول أحد البحارة، وينظر الى هذا السراب.

وبعدها لحظات قليلة، وجفون المُهرّب نصف مغلقة، فهو ينظر بعمق الى هذا السراب، فيصرخ صرخة أفزع بها سمك البحر "ايها العارف!".

يخرج العارف من غرفة القبطان مسرعاً "ماذا؟".

"قد لحقوا بنا!" يرد المُهرّب، الذي يتسلق الصارية في غاية المهارة ويصل إلى السمت أعلى الشراع.

وإذا بالعارف يقف يمعن بالمنظار، وخلفه الراهب يحمله اثنان من البحارة "انه هو!" يقول مستغرباً، "كيف لحق بنا؟" يسأل وفي نظراته حيرة.

"مستحيل!" يقول المحارب.

"لا يوجد مستحيل!" يرد العارف وينظر الى الراهب يتملكه نوع من القنوط.

"يا رجال!" يصرخ الراهب وكأنه مازال قرصانا في هيبة الشباب "جذفوا وكأن الزبانية[1] تقودكم الى السعير!".

وبدأ البحارة يركضون على سطح السفينة كلٌ يعرف عمله "ارموا كل مالديكم من براميل الرم، والحمل الزائد، حتى اريدكم أن تفرغوا جيبوكم من كل شيء وتلقوها في البحر" يأمرهم الراهب بصوته الجهوري.

فنظر العارف الى الراهب وكأنه وحيٌ بشري الاطراف خارقٌ للمألوف، فالمُوحي راهب والمُوحى اليه عارف.

"الجيوب! الجيوب!" يقول العارف، يقفز تارة ويركض تارة، ويداه عالية في السماء، ينادي بنغمة متهلله يملؤها الشوق واللهفة، داخلا الى الكابينة.

"يجب أن لا يلحقوا بنا! هلموا" وبدأ البحارة يتبعون الاوامر ويقومون بالمطلوب للعمل على زيادة سرعة السفينة، كلٌ يقوم بواجبه، بهِمةٍ وإصرار، فإن حياتهم على المحك، العدو ليس بعدو قد قاتلوه من قبل بل هو الموت الذي لا فرار منه.

"إعملوا" يصرخ رئيس البحارة "فالعدو لا يبقي ولا يذر، فطعامهم ضريع[2]، ولعنتهم تدوم أحقابا[3]، سرابيلهم[4] من قطران، وشرابهم من صديان[5]، فلا يشربون ولا يأكلون، عنهم لا تمارون، فاليوم الوجوه تُسحم، او بعملكم تُرحم" ما فادت الكلمات، فالرعب دب في قلوبهم، وبدأت الرثية[6] ترسم ملامحها على وجوههم، والمحارب واقف على مقدمة

١ الزبانية: ملائكة العذاب، ورد ذكرهم في القران
٢ ضريع: طعام لا يسمن ولا يغني من جوع
٣ أحقاب: مدة طويلة من الدهر تعادل تقريبا مائة سنة
٤ سرابيل: ملابس
٥ صديان: العطش
٦ الرثية: الضعف والفتور

السفينة يمسك باحد الحبال وبيده رمحه، والمُهرّب مازال على السمت في أعلى الشراع يترقب اقتراب القراصنة، فهي اسرع من سفينتهم بمرتين.

فخرج العارف من الكابينة بعد دقائق قليلة يرى الرعب في وجوه الكل، وقد تملكهم العلز[1]، ونظر الى المهرب الذي نزل من أعلى الصاري، واتى المحارب يحمل الراهب، ويجلسه على كرسي في سطح السفينة.

"سفينتهم سريعة، مهيفة الجناح، ذات صارية عملاقة، لكنها ثقيلة الحركة عند التمايل" يقول المحارب.

"ما بالك كنت تنادي كالمجنون! جيوب جيوب؟" يقول الراهب.

"أنظر يا إيوستاس[1]" يتكلم العارف مع الراهب ويريه أوراق تحوي أرقاماً ومخطوطات "عندما كنت أتبادل الاوراق والرسائل مع الحسن المراكشي لقد أطلعني على بعض من علومه، فهو أدخل الجيب والجيب تمام في بحوثه في المثلثات".

"وما دخل هذا يا سيدي بما نحن بصدده؟" يسأل المحارب.

إذا حسبنا سرعة الريح واتجاهها، وتوجهنا بالاتجاه الصحيح بأستعمال الحقة، وطبقنا مبرهنة الباقي الصيني التي كانت في الكتاب الذي أتاني به المهرب، فاني أستطيع أن أجعل سير السفينة اسرع، كل ما ينقصني هو إسطرلاباً"

"ما الحقة؟" سأل الراهب.

"إنها يا عزيزي إيوستاس، أداة إخترعها أحد من أصدقائنا الملاحين العرب، وأسماها ببيت الإبرة، أجمل ما فيها انها تستطيع ان تعلمك بالاتجاهات الاربعة، حيث تؤشر

---

١ العلز: الخوف من الموت

الإبرة دائما الى جهة الشمال[٢]" يشرح العارف "عندما تكلم ابن الفقيه في كتابه –كتاب البلدان – عن المغنطس الذي وجودوه في جبل في الصين فهو اساس هذه الفكرة فهو يشير الى القطب الشمالي أينما توجهت".

"خذ هذا" ويُخرج المهرب شيئاً من ثيابه، الشيء الذي سرقه من درج القرصان في مكتبة المنزل على جزيرة سارك، كانت حيلة ميكانيكية مصنوعة من فضة مصقولة جميلة الشكل.

فتبسم العارف "إن في الشر خيراً! إن في الشر خيراً!" مشيراً الى أن سرقة المُهرّب عادت عليهم بالخير "هذا إسطرلاب ابراهيم بن يحيى الزرقالي[٣]، أعظم إسطرلابات زماننا".

وإنكب العارف على الاوراق يرسم مثلثات ودوائر، ويناقشاه الراهب ورئيس البحارة، إن العمود المقام على منتصف زاوية يلاقي ضلعيها" يقول العارف للراهب "هكذا قال أثير الدين الابهري" فرسم الخط، وشرح لهم، وكان يقوم بكثير من العلميات الحسابية.

"نعم نعم، إذا لو أدخلنا قانون الجيب لابي منصور بن عراق، مع نظرية المراكشي يكون لدينا الناتج ..." يكمل الراهب.

"وهنا نضع قانون البيروني في فيزياء السوائل، سنستطيع الالتفاف .." يضيف رئيس البحارة.

"انظر في اسطرلاب ابن اللجائي، لقد بقى لنا من الوقت لغروب الشمس ..." يشير رئيس البحارة الى الاسطرلاب الذي كان معلقا على الصارية.

---

١ Eustace The Black Monk: هو اسم الراهب الاسود الذي عاش وكان قرصانا للجانبين الفرنسي والانجليزي في بداية القرن الثالث عشر

٢ الحقة: البوصلة

٣ يعد اسطرلاب الزرقالي اهم اسطرلاب في التاريخ وبقى افضل اسطرلاب على مدى اربع قرون

ومازل الثلاثة منكبين على أوراقهم وأرقامهم، وكان المهرب يقطع الاخشاب مع المحارب مستعملاً الفؤوس والسكاكين، ويشد بالحبال، ويستعمل قطع معدنية وخشبية كبيرة، إنه يبني منجنيقاً، وستاراً، ويحضر السكاكين والسيوف ويشحذها كما يشحذ همة البحارة التي تجذف وترسل الاشرعة الى الريح، فالريح بدأت تهب واصبحت القلوع[1] حبلى بريح البحر، فكل شي يحدث جلبة، من تنفس البحارة القوي عند التجذيف، وأدوات النجارة، وصوت الطرق على الخشب، وصيحات البحارة من أعلى الصاري، ومن على السقالة[2]، ومن تحت باطن السفينة وجوفها، وأوامر كل من الراهب ورئيس البحارة والمحارب، كلها تحدث جلبة وصخباً.

"ولكن هذا عدد أصم، لا يدخل تحت الجذر، يا ايها العارف" يقول رئيس البحارة.

"أنظر الى قانون أبي كامل الحاسب" يشير العارف ويكتب ناتج العملية الرياضية.

"اذا مع الكسور العشرية لأبن مسعود جمشيد، نستطيع الحصول على هذه النسبة ..." يقول رئيس البحارة.

"ممكن! ونستطيع عملها اذا كانت الريح مناسبة فإن .... " يكمل الراهب.

"شد الحبل هكذا" يقول المحارب لاحد البحارة "هكذا سيكون الصاري بأمان، أعطني البلطة سأقطع بها هذا الحبل، وامره لك، يجب ان نعمل درع من لبد وحبال متينة".

"ولكن لا افهم ما هذه الرموز؟" يسأل رئيس البحارة مشيراً الى بعض الاحرف والارقام التي كتبها العارف.

---

١ قلوع: اشرعة السفينة
٢ السقالة: السكلة، الواح خشبية او معدنية تمكن العمال من الوصول الى اماكن مرتفعة

"إنها رموز محمد البتاني، فلا داعي بأن تكتب الناتج كاملاً، هذه الرموز تُسَرِع من العملية الرياضية" يرد العارف.

"سيدي!" قال أحد البحارة الذي أوعز له الراهب مهمة إيجاد وحساب المسافة بينهم وبين سفينة القراصنة "لقد استعملت تثليث المجريطي كما قلت لي داخل الكابينة وأنا أراقب الصورة المتحركة لابن الهيثم داخل الكابينة المظلمة، فبينما كانت ترتسم الصورة لدي بالمقلوب وضعت العدسة المقعرة والمحدبة حسب ما قرأت في كتاب المناظر، أصبحت الصورة واضحة، وحَسبتُ المسافة التي قُمت بقياسها فهي ..." يكمل البحار الشرح.

"رائع" يقول العارف "أن هذا الولد ذكي".

"نعم، إنه اذكى البحارة على هذه السفينة" يرد الراهب.

"وكما قلت، بأستعمال ذراع ابي سهل القهوي وتطبيقها على قانون الاثقال لبني موسى، فسوف نكوّن شكلا إهليجياً" يقول رئيس البحارة.

"سيدي" يقول اثنان من البحارة اللذين كانا يعملان بالمطرقة والمسامير والنجارة بأمر من الراهب "لقد قمنا بعمل ما أمرتنا به".

"ماذا صنعت؟" يسأل العارف الراهب.

"مضخة الجزري" يقول الراهب متبسماً.

"ولكن كيف ستقوم ..." يحاول العارف سؤال الراهب.

"لقد طبقت بعض قوانين البيروني، وبني موسى، والكندي على بعض هذه المضخات، وأصبح لدينا هذه الحيلة الميكانيكية[1]" يشرح الراهب للعارف، ويعطي اشارة للبحارة.

ويبدأ البحارة بتشغيل المضخات والنواعير، فخرجت من الحيلة الميكانيكية بموسيقى قصيفة، تملؤها طقطقة عالية، وبدأت السفينة بالميلان، فيعطي الراهب إشارته تارة أخرى، فتوقف البحارة عن تشغيل الحيلة الميكانيكية، فكانت الوجوه كلها مشدوهة، والامل بدء يعود الى الابدان.

"بهذا نستطيع أن نقوم بالمهمة" يقول رئيس البحارة.

فنهض العارف ويداه ترتجفان، وجبينه يتصبب عرقاً، وعيناه حمراوان، ينظر الى وجوه البحارة المتسخة، وأجسادهم التي وهنت من العمل المتواصل لساعات، ويسمع جلجة الاواني المعلقة بالحبال، لتعمل درعاً من سهام العدو، وينظر من بعيد الى السفينة القادمة بسرعة صوبهم، يعود النظر الى البحارة، ويبتسم إبتسامة واهنة، ويقول"لدي خطة".

---

١ الحيلة الميكانيكية: تعني آلة، هكذا كان يسموها العرب

ابن العنقاء

يجلس العارف في إيوان[١] البيمارستان[٢] في مراكش، مُغلقاً جفنيه، يستمع لزقزقة العصافير، وخرير المياه، الحزن يعتصر فؤاده الذي أثقله التعب والنصب، فهو يُسبح بسبحته المرقشة، يدعو لصديقه الذي يرقد على أحد الاسرة، لأن تأسو كلومه[٣]، عيناه تحفظ الدمع، فهو لا يبكي بكاء غير ناجع[٤]، فجهابذة[٥] الطب كلهم قد قدموا لصديقه من علمهم، وطبابتهم، وأعشابهم، لكن إشتد عليهم الغمأ والومد[٦]، فما أصلحت عقاقير السواعير[٧] المريض، ولا ببخور المشعوذين بشافي.

فسمع صوت أقدام، فيفتح عينيه ويرى الحسن المراكشي، يلبس ثوباً أبيض وعباءه بيضاء، وجهه سمح لحيته رمادية، ويحمل بيده روشته[٨] مكتوباً عليها اسم السقيم: زال.

"لقد قمنا بما نستطيع القيام به، فلم نترك شيء من طب إبن سينا، والزهراوي، والكندي، وابن هبل، ومن طبابة ابن طفيل وأعشابه من شيء" يقول الحسن المراكشي، ووجه موجوم.

"أعلم يا صديقي" يرد العارف.

"ماذا حدث؟" يسأل الحسن المراكشي العارف عن كيفية إصابة زال.

---

١ إيوان: مكان متسع من الدار تحيط به حوائط ثلاث
٢ البيمارستان: المستشفى عند العرب
٣ تأسو كلومه: تطيب جروحه
٤ غير ناجع: غير فعّال
٥ جهابذة: العظام، العارفين
٦ إشتد عليهم الغمأ والومد: في حيرة من أمرهم
٧ الساعور: الدكتور او الطبيب عند العرب
٨ روشته: هي الورقة التي يوضع بها اسم المريض (السقيم) وتفاصيل عن مرضه

"بعد أن أخبرت البحارة بالخطة، وكلٌ أخذ مكانه، دخل المهرب زال الى الكابينة، وكان المحارب گريگرس گريگرسسون[١]، يأكل بشراهة ويشرب المزر[٢] كإنها أخر وجبة له، بينما بينما كان البحارة، الذين بدأ يعييهم التعب، وجوههم عليها غبرة، وترهقها قترة[٣]، فهم سامدون[٤]، وأخذهم الهلع، فالعذر لهم، فلقد ظهر عليهم خابل أبخق[٥]، ومعه شياطين البرح[٦] قادمين صوبهم، لا مناص اليوم من الهلاك، فطبول الارجاز[٧] تدق، ونواقيس النيط[٨] تقرع، وتلبدت الغيوم السوداء، وأرسلت السماء أمطار مشئومة، كأنها حميم، تسقط على أجسامنا كالرزاز، وبدأت رأئحة القار، والملح الحار ،والخشب المبلل في تصاعد، والكل في حيص وبيص، وتقترب السفينة، فأصبحت الدقائق كأنها ساعات، وتوقف الزمن، وبطأت الريح، وخيم على البحر سكون راتع، حتى الخر[٩] أصبح كأنه يخرج من كهف عميق رطب" يسرد العارف للحسن المراكشي الاحداث التي وقعت بطريقة قصصية "بعد إستكمال الخطة، مترقبين القبطان يدنو بسفينته ومعه قراصنته، لكي نقوم بخطتنا، ونذرف بالنصر الذي لا أمل فيه".

"خرج المهرب من الكابينة، يلبس سروالاً، وقميصاً قصيراً، كلها مشدودة بأحكام، ناصعة البياض، كأنه في كفن، فهو الان ليس المهرب الذي يحب التخفي والعمل في الظلام، ولكنه الان هو زال، المحارب الفارسي العظيم، هو أمير فارس، شعره الاسود ينسدل على جبينه، كأنه حرير يتطاير مع الريح، ينثر رذاذ المطر الذي بلله، عيناه

---

١ Gregers Birgersson: هو احد ابناء (بيرگر يارل – دوق السويد) اللقطاء
٢ عصارة الشعير
٣ شبه دخان يَغْشَى الوجهَ من كَرْبٍ أو هَوْلٍ
٤ سامدون: باهتون متحيرون
٥ خابل ابخق: شيطان اعور
٦ برح: عذاب شديد
٧ الرجز: سوط الشياطين الموسوسة
٨ النيط: الموت:
٩ الخر: صوت الماء الذي تشقه السفينه

بيضاوتان، لا توجد فيها روح ولا وجل، فإنه كمن ركب فلك الموت منتشياً، فوقف زال على حافة السفينة يتمتم كلمات، فتقربت منه، واذا به يقول وكأنه يغني..

أنـا إبن العنقاء، أنـا الأمير القصير، أنـــا زال

أردَيت المنيـــة بقرضـــاب سليمـــان، ومـا أزال

منتصباً، والـدائر بدم المنية مخضب، وما زال

فهات صدرك أيها الخناس، وإحتضن مذربي[٢١]

فتبسم لي وقال "هل تعلم يا أيها العارف، لقد كنت دائما أتعجب من لغة العرب، رغم كرهي لهم وحنقي عليهم، ولكني أعلم بأن لغتهم أعظم اللغات لنظم الشعر، ولكن بعد أن إطلعت على علم البيروني، وبنو موسى، والبتاني وغيرهم، علمت إنها لغة علم أيضاً، فالذي يظن إنها لغة جامدة، غير متحركة، فقد جهل، فهذه اللغة ككل اللغات، في مرحلة إنتقالية، تأخذ العلم القديم بمفرداته، وتعطيها مفردات أخرى، ويأخذها من بعد العرب قوم جدد، يستعملون الكلمات القديمة، والكلمات العربية، ويضيفون عليها كلماتهم الجديدة، حتى يأتي غيرهم، وتكون هذه اللغة منسية، فإني خبير بهذا، فكانت لغات حضارات عيلام، وأكد، هي لغة العلم الاولى، والان لا يتكلمها أحد، حتى الذين يتكلموها قد مزجوها بكلمات جديدة، ومع الاسف، فإن أكثر الذين يتكلمونها هم من أهل الكتاب، الذين لا حق لهم بشيء في هذا الزمن، ويعانون الامرين من حكم المسلمين المتعصبين، ستندثر لغتهم، فاذا كان مصير لغتي هو الموت كسابقتها، فإني

١ زال: هو اسم شخصية في احد الحكايات الفارسية، ولَد وهو كبير فرماه والده الملك خوفا أن يكون أبن الشيطان، ثم اتت العنقاء واعتنت به، وبعد سنين رجع ابوه وطلب من العنقاء ان تعطيه ابنه، فأعطت العنقاء لزال ثلاث ريشات يستطيع بها ان يستدعي العنقاء ثلاث مرات فقط، والامير القصير قصة اخرى من الحكايات الفارسية عن ابن ملك نحيل قصير ليس مثل اخوته كبار وعظماء، ولكن استطاع هذا الامير ان يحكم البلاد بدهائه وكسب احترام ابوه والشعب (فدمجنا بين القصتين لشخص واحد وهو زال المهرب)

٢ قرضاب، الدائر، مذرب: كلها اسماء من اسامي السيف

أريد الموت، سألفظ آخر أنفاسي بكلمات فارسية" قال لي ومازال يترقب السفينة وهي تقترب.

"لا تبالغ، عد الي سالماً" قلت له.

"أعلم، أنه لا يوجد على وجه الارض أحدٌ يستطيع أن يقف بوجه هؤلاء غيري، أتعلم لماذا أنا متجهم الوجه؟" سألني.

"لا! ولهذا أنا قلق عليك، فأنت متبسم، صبوح مهما أمطرت عليك الرزايا[١]" قلت له.

"من يثق بلص كأنما يلتمس من الغضرم[٢] عبيرا، فلا تضنن إن اللص بسادن[٣] ولا بكلامه جهيرا، لقد تجاهلت عن كلامهِ شاربا الماذي[٤]، واذا به يصب لي في كأس داذي[٥]، لقد فاق عفارتي[٦] بنكارته[٧]، وإني إن لم أقتله فاني هدان[٨]، واذا هو في سعير بشارته، يقول لربه أرسلني القهرمان[٩]"

"ولكن أنت لموص[١٠] مثله، فأنت تغش الناس، وأنت من المطففين، وتأكل السحت، وتقوم بما تقوم لكي تعصر الدينار من الناس عصرا، هذه لعبتكم أنتم، تارة تفوز، وتارة تخسر".

"أنت لا تفهم يا أيها العارف، لقد قمت بالشيء الوحيد الذي لا يجوز أن يقوم به أحد من اللصوص، يجب أن لا أثق بأحد، وكيف أغفل! إن أبي رماني للموت عندما كنت

---

١ الرزايا: المصائب العظام
٢ الغضرم، الجص اليابس المتساقط من بناء قديم (اقتبست من المعري)
٣ سادن: خادم الكعبة
٤ الماذي: العسل الابيض
٥ داذي: خمر الشيطان
٦ عفارتي: مكري و خبثي
٧ نكارته: فطنته ودهاءه
٨ هدان: احمق
٩ القرهمان: البطل باللغة الفارسية
١٠ لموص: مخادع ومختال

طفلاً، فكيف أثق بميت؟! لا يا أيها العارف، يجب أن أُكفر عن هذه الهفوة القاتلة، فقد تكاسلت في عملي، ولم أقدر الموقف حق قدره، وعرضت مهمتي للخطر، إن الذي يتكاسل ويهمل العمل الذي هو مكلف به، قد خاب، ولا يصلح أن يكون أهلاً للمهمة مهما كانت العواقب، فللأنسان ما سعى، وها أنا ذا أتلقف حصاد كسلي، بجنود من الموت نفسه! عندما وضعت خطة العودة الى بغداد، لقد بعثت بالرسائل بكل إتجاه، وقمت بإعطاء الرشاوي اللازمة، والهداية المهمة، وقمت بقتل هذا، ونحر رقبة ذاك، كي يكون طريقنا سالكاً، نعم، لن يكون يسيراً، ولكنه أسهل، ولكني لم أتوقع أن يخونني الغراب، إن الحمامة المطوقة قد أتمت عملها، ولكن الغراب يبدوا إنه تواصل مع القرصان، وتملكني الظن، بإن هذا القرصان هو الراهب الاسود، فإني لم أرَّ من قبل، وانني أرسلت له الشفرة التي نعرفها كلنا، ولربما شيخ الجبل علم شيئاً، فبعث لي بأن أترك هذه المهمة! وها انا الان، يجب أن أنتبه أكثر في المستقبل لمن راسلتهم واتفقت معهم" يقول لي وهو يتحسر.

ثم أخرج لوزاً من جعبته، وبدأ يأكل "يقول إبن سينا: إن اللوز يحفز أذهاننا، وتفكيرنا" يقول لي.

"خذ هذا إذاً، إنه دبس التمر، يعطي من الطاقة ما يصلب عودك" أعطيته الجرة فشرب منها كانه يشرب ماءاً.

"سيدي" يقول گريگرس "لقد علمت ماذا سنفعل، لكن لحد اللحظة لم أعلم ماذا تريد مني؟"

"بالطبع! فكنت تأكل عندما كنت اشرح لك!" قلت له ممتعضاً.

"أعذرني يا سيدي، ولكن لن تحملني الفالكيري الى الفالهالا وأنا جائع! هل تريدني أن أقابل معشر الالهة وأنا ضعيف؟" يقول مستعجباً.

"طبعاً لا" قلت له "فإني أحترم دينه، ومعتقده، حتى وإن بدى للناس إنه يخلو من المنطق" يقول العارف للحسن المراكشي ويعود العارف ويكمل القصة.

"ولكن قبل ان تقل لي ماهو دوري، مافائدة المنجنيق؟" يكمل حديثه وتساؤلاته.

"سنقذفك به" يرد زال وفي عينه شرارة.

فيضحك گريگرس على كلام زال "بحق! مافائدته؟" سائلاً.

"كما قال لك زال" قلت له بنبرة يملؤها الجد "أريدك أن تدمر صَاري سفينتهم".

فنظر الينا بنظرة كلها خبث، وبدأت فكرة وحشية ترتسم على ملامحه، فنظر الى المنجنيق ثم الى زال، ونظر زال الى گريگرس، واذا بهما حيوانان مفترسان، وقعت عيناهما على الفريسة نفسها، ابتسامتهما ملؤها شراسة ووحشية.

نحن الان نبحر بأتجاه الغرب الشمالي، فلقد تطلبت منا الخطة أن نكون بهذا الاتجاه، منطلقين صوبه، وتكون سفينتهم خلفنا على ميسرة سفينتنا، فاقتربت سفينتهم، وعندما كانت تبعد عنا ببعض الخطوات، أعطيت الاشارة لرئيس البحارة، وبدأت أول مرحلة من مراحل المعركة، فأعطى رئيس البحارة بدوره الاشارة الى البحارة الذين كانوا على أهبة الاستعداد قرب الحيلة الميكانيكية التي صنعوها بأيديهم، فأطلقت الحيلة الميكانيكة صوتاً عظيماً، أفزع هذا الصوت بقرقعته العالية القراصنة، وأمالت الحيلة سفينتنا الى الميسرة، فأصبحت سفينة القراصنة تقابل بمقدمتها عرض سفينتنا، فأصبحنا نراها بكل وضوح، والقراصنة لا يعلمون ماذا يحدث، كيف التفت السفينة أمامهم بهذه السرعة؟

وكان مجذفينا على الميمنة قد توقفوا عن التجذيف، وفتح گريگرس شراعاً إضافياً قد أقامه ليساعد على هبوب الرياح من الجهة الاخرى لتتزن السفينة.

ففتح زال يداه وكأنه مرحبا بشيء، وقال لي "احتفظ بالريشات الثلاث، إن لم أعد، فانها أمانة تاخذها الى العنقاء" فأخرج من راحتيه سكينتين صغيرتين مدورتين ورماهما أمامه صوب السفينة، وإذا بهما تنطلقان وتدوران، تمزقان نسيج الريح "سأتركم يا أوغاد متعفنين، خالدين في أم دفر[1]!" قالها وهو واثب في الهواء، تحته البحر، أمامه سفينة القراصنة بطولها، يضع نصل الخنجر بين أسنانه، الامطار مبللةٌ وجهه، عيناه كأنها سحابة يوم القصاص.

وأختفى! كما أختفى عندما كنا نهرب من غرفة الحانة في أنجلترا، فخرج من عند منتصف السفينة، قرب رئيس القراصنة، وليس قبطانهم! مما جعلني أستغرب، لعله أراد أن يكون أخر أعدائه هو القبطان، لكي يتلذذ بقتله، فخرج زال عند رئيس القراصنة، وخنجره قد مرق رقبة رئيس القراصنة[2]، فما أستطاع رئيس القراصنة الصراخ، ولا أستطاع أستطاع الوقوف، فخر صريعاً:

سبقت يداه له بعاجل طعنة ... ورشاش نافذة كلون العندمِ
برحيبة الفرعين يهدي جرسها ... بالليل معتسّ الذئاب الضرّمِ
وتركه جزر السباع ينشنه ... ما بين قلّة رأسه والمعصمِ[3]

فقفز عليه من حبال الصاري إثنان من القراصنة، فوقفا أمامه يحركان سيفيهما متوعدين، فتبسم زال! واذا بالسكينتين المدورتين تخترقان رقبتيهما بنفث العظلم[4]، أتتّا خلفه

---

١ أم دفر: الحياة الدنيا
٢ مرق رقبته: اخترقها
٣ من معلّقة عنترة ابن شداد الشهيرة، وقد قمنا تغير صيغة ال(أنا) الى صيغة (هو):
القصيدة الاصلية كانت (سبقت يداي ...) يقول عنتر عن نفسه، اما هنا فاصبحت (سبقت يداه) متكلماً عن زال وقمنا بهذا لا تجاوزا وأنما لضرورته
٤ العظلم: الدم

سابحتين في الهواء كالتؤام، واعِدةً بحومة الموت، كأنها رفد الموت المرتم، فسقطا صريعين، والليل بأمطاره أدلم، فلما رأى القراصنة جافلين، كر هو غير مذمم.

يدعــون زال والسيـوف كأنها	بـــرق تلألأ في سحـاب مظلمِ
يــدعون زال والـــدروع كأنها	حدق الضفادع في غديــر نجمِ
يــدعون زال والنبـــــال كأنها	طش الجراد على المنـادح حـومِ
يــدعون زال والوغى ترمي بهم	والمـــوت نحو لــواء آل محلمِ
كيــف التقدم والرمـــاح كأنها	بـرق تلألأ في السحاب الأركمِ؟
كيف التقدم والسيـــوف كأنها	غوغـا جـــراد في كثيب أهيـــمِ؟
فإذا اشتكى وقع القنـــا بلبـانه	دنـــاه مـــن سـل عضب مخـذمِ
مـــا زال يـــرميهم بغـرة وجهـه	ولبـــانه حتى تسربـــــل بالـــدمِ[1]

وتتساقط الجثث الميتة من طعنات زال، وكانت سكاكينه تتألق كالنجوم، تنفث من الابدان، قابضة أرواح ضالة، تئق كالسيّد، ذفيف العدو[2]، يقفز تارة وينحني تارة، حركاته رشيقة متوثبة، يطعن هذا، ويخر الخنجر في ذاك.

تتعالى الصيحات من قاربنا، وأصبحت ميمنتنا توازي ميسرتهم، ويستمر البحارة، يعملون شتى الاعمال بدقة متناهية، توازن السفينة التي تجتاحها الزوابع، فذاك يشد الحبال وذاك يدفع بالشراع، ورئيس البحارة يدوي مع الرعد بالصراخ.

فأمر القبطان أن يرسل قراصنته علينا وابل من السهام، فرفعت يدي لأحد البحارة، فيقطع حبلاً ببلطة[3]، فنفتحت أسجاف من لبد[4]، وأواني فضة، وألواح من خشب، ردّت

[1] تكملة معلقة عنترة ابن شداد مع تغيير اسم عنترة الى زال
٢ تئق كالسيد: شرس كالذئب ، ذفيف العدو: سريع الركض
٣ بلطة: فأس صغير يستعمل في تقطيع الحبال
٤ أسجاف من لبد: ستائر من قماش الخيمة

عنا معظم السهام، فإنطلقت مسرعاً، أُداوي هذا، وأشحذ من همة ذاك، وأدفع بالميت في البحر، وتتعالى صرخاتي، ويسمع كلامي رئيس البحارة الذي يزمجر مع الرياح بأوامره المتقنة، فحرر البحارة حبل المنجنيق، واذا بگريگرس يُقذف وكأنه جلمود الصَّمَّان[١]، دارع، كعفريس ناقز[٢]، يزأر الرغاء[٣]، وخلفه ومضت السماء ببرق وضاء.

الـرعد منتحب والبـــرق ملتهب والقطر منسكب والماء مضطرب

والغيم في الافق ممدودة سرادقه والطير يصفر والاوتار تصطخب[٤]

فنزل قابضاً رمحه بكلتا اليدين، ويخترق الرمح الصاري، فتسكت السماء، كأنها بعد الرعد مذعورة، فسبق التهزم[٥] تكسر الخشب، فتشظى الصاري، وأصبحت كالعهن المنفوش، فأمطرت خشباً، وتمايلت سفينتهم، وهوت قلوعهم السملة[٦]، وهاج بحر المنايا تارة أخرى، وتصارعت السيوف والرماح بلمعانها، وزادت حمى الوطيس، ودب الرعب في القراصنة، فتملكت نشوة البيرسيرك گريگرس، يندفع بكل قوة، يزأر قاطعاً رؤوسهم، وباتت كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة[٧]، فيخزق رمح گريگرس أبدانهم الميتة، وتنحر خناجر زال رقابهم، فسقطوا كلهم، وبقى القبطان يقف أمام زال كالند، وكل يحتز من الاخر، فراوغ زال القبطان، وراوغ القبطان زال، وبرشاقة يتراقصان، فأمسكا كل منهما بتلابيب الاخر، ورنت الهيقعة[٨] تارة تلوى الاخرى، فذهب گريگرس مسرعاً مدمراً للدفة، وأصبحنا خلف السفينة تارة أخرى، لا يعلم قبطانهم كيف تحركنا بهذه الرشاقة وبهذه الخفة، فلا توجد سفينة على سطح اليم تبحر بهذه الخفة، فكانت

---

١ جلمود الصمان: صخرة صلبة ومتينة

٢ كعفريس ناقز: كأسد قافز

٣ الرغاء: صوت الرعد الشديد

٤ مقطع من قصيدة الشاعر الشريف العقيلي

٥ التهزم: صوت التكسر والتشقق

٦ سملة: ممزقة وبالية

٧ حمر مستنفرة فرت من قسورة (القران: سورة المدثر) وتعني كأنهم حمير وحشي يفرون من الأسد

٨ الهيقعة: صوت السيوف معركة القتال

مستوية الفاع ليزيدها ثباتاً، محددة في جؤجؤها[1]، لتدمر سفن العدو، فأنقذتنا علوم العرب التي أخذوها من اللذين قبلهم، وطوروها، وجعلوها علم يتعلم به القاص والدان، فالعلم لمن أراد العلم، ومن أراد التهمع[2] ولطم الخد، وندب الحظ، لانه مقتنع بأن ما يعرفه هو الصحيح، وإنه وللأسف لا يعلم شيئاً، الا ما وجد عليه آباؤه وأجداده، فله الظّلَف[3].

فدفع القبطان بزال بعيداً، وإذا به يلقي بعض من السحر، فتمتم بعض من الكلمات فتدفق من يده برق بكل طاقته، موجةٌ صوب زال، فأستل زال من غمده شمشير زمردنگار[4]، فصد البرق، فيعاود القبطان تمتمة كلمات أخرى، وبه يقذف سهام أثيرية سوداء، فيصدها زال مرة أخرى، فيزداد غضب القبطان، واذا به يتمتم كلمات قد سمعتها أنا، وعلمت أن زال لن يستطيع أن يصد هذا الشعوذة بسيفه، الذي صُنع ليصد السحر، فأخرجت الكتاب الذي أعطاني إياه زال عند خروجنا من لندن، وبدأت أتمتم أنا بكلمات أقرأها من الكتاب، وبدأت القوى تتجمع في داخلي، لكي أكون من القوى التي بداخلي ما يصد سحر القبطان، وإذا بالراهب الاسود من خلفي وهو جالس على كرسيه، يطلق كلماته فانفجر الهواء الذي بين زال والقبطان، فصُرِع القبطان على الارض، وهو يتوسل بزال أن يعفيه حياته، ولكن توسله لا يريس ولا يبري[5]، فخزق زال رأس القبطان بسيفة ورده صريعاً.

فوقف زال منتصرا:

---

١ جؤجؤها: صدر السفينة
٢ التهمع: البكاء
٣ الظلف: الشدة في المعيشة
٤ شمشير زمردنگار: اسم سيف النبي سليمان في الحكايات الفارسية وهو سيف مقاوم للسحر
٥ لا يريس ولا يبري: لا نفع فيه ولا فائدة

كالبَلْقِ تَرمَحُ، والصَوارِمِ تَنتَضى والجو يبتسم، والأنامل تحسب[1]

وكلنا ننظر اليه شامخاً، مكتسي بدماء العدو وشاحاً، وهو واقف في أقصى السفينة، گريگرس يقف هناك وقد خارت قواه، إذ أن نشوة البيرسيرك قد بدأت بالزوال، فالمحارب كقسورة، ملك بهيبته يُتوجه بلدهُ[2] الاشقر، والمهرب كالسِيد بفخره تُعظمه دماء الذبائح من الموتى.

أتتهم الكربة السوداء سـادرة منها وكـان اسمها فرجة الكرب

كم بين حيطانها من فارس بطل قاني الدوائب من اني دم سرب[3]

وكلنا ننظر اليهم ، وبعض البحارة بدأت صيحاتهم تهلل بالنصر، وكنا مازلنا نبتعد عنهم، فسرعة سفينتنا الان باتت كبيرة، والريح عادت لصالحنا، وحبلت القلوع تارة أخرى بالريح، وتجذيف البحارة الذي لم يتوقف، وأجهزتنا التي صنعناها، كل هذا أبعدنا عن السفينة التي دمرها كل من الاسد والذئب، وأصبحت مقدمة سفينتنا بأتجاه الجنوب الشرقي، وهم بعكس الاتجاه، فوثب زال ماسكاً گريگرس مختفياً، فيظهران على سطح سفينتنا، وتبزغ شمس من خلف الغيوم، وتُبعثر السحب، وتُوقف الرياح، وودعنا المطر، فصفت السماء وتوسمنا الخير.

فركع گريگرس من التعب، وينظر زال الينا بفخر، فسمعنا نعوراً[4]، فاذا بالقراصنة يستفيقون، ويقفون منتصبين على أقدامهم، وقد رمى أحدهم واحدة من سكاكين زال، فخرقت ظهره، فهَرَعْت له مُسرعاً، وسحبت السكين، وإذا بالسكين ملطخة بسائل

---

١ من شعر أبي الهلال العسكري
٢ بلد: شعر الاسد ويسمى تاج الاسد
٣ من شعر أبي تمام
٤ صوت خروج الدم من الجسم عند تلقيه ضربة

يضرب لونه الى الخضرة وزرقة، فكان هذا لون دمهم، فشممته وعلمت أن في دَمِهم سماً.

فَخَّرَ زال، وحاولت أنا والراهب بأعطائه كل ما نعلم عن مقاومة السموم، حتى إن الراهب الاسود القى بعض من معرفته على الجرح، ولكن الجرح بقى متقرحاً، ينضح رائحة كريهة.

فوصلنا الى ميناء أسفي[1]، كان هنالك رجلٌ من الطوارق ينتظرنا، نفس الطارق الذي يقف هناك" مشيراً الى الطارق الذي رافقهم من ميناء أسفي حتى البيمارستان في مراكش، فكما يبدو أن زال كان متفقاً معه " لقد أستغرقنا وقتاً طويلاً، ولا أعلم كم تغلل السم الى بدنه".

فنظر العارف الى الحسن المراكشي، ثم نهض، يشرب من السبيل، ويتحسر.

"هل يموت هؤلاء أم لا؟" يسأل الحسن المراكش.

"لا! هم لا يموتون، فبعد أن نَحَرَ زال رِقابهم، ودَمر گريگرس صارِيَ سفينتهم، عادوا الى الوقوف بعد زمن ودَبْت فيهم حَياتهم، وبدأت سفينتهم بالتكون مرة أخرى، فهولاء لا يموتون وسفينتهم لا تُدَمر، فهم من عالم المَرايا، نَفِثوا الى عالمنا بعد أن فُتِحت البوابة، ولكن ماقام به كل من گريگرس وزال، أكسبنا وقتاً، وجعلنا نصل الى أسفي قبل أن يستطيعوا اللحاق بنا مرة ثانية، فبعد أن رست سفينتنا، نظرنا خلفنا ورأينا السفينة واقفة في وسط البحر وقبطان القراصنة يمسك بدفتها، يعلم الان انه لن يصل لنا، فهو لا يستطيع ان يترك البحر".

---

١ أسفي مدينة تقع الى الشمال غربي من مراكش على المحيط الاطلسي

البيمارستان

يجلس العارف في باحة البيمارستان[1] الواسعة، التي تستند على الاعمدة المعقودة بالاقواس المُفصَصَة، يستمع لخرير الماء في النافورة، التي تكسر مياهها لون الشمس الاصفر الى الوان القوس السبعة، يُمتِع ناظره الى الجملون المزخرف على شكل نصف قُبة، التي تنم عن تجانس في السياق المعماري، ويرى الناس تَدْخل من الباب الرئيسي الذي تعلوه أجمل ما قام بيه أساطين حِرَفية البناء في زخرفة المُقرنَسات.

رائِحة الباحة فَوَّاحة من الازهار، والاعشاب الطيّبة، وفوانيس البخور التي تعطي لمن يَدخلها أملاً بالحياة.

يرى العارف الناس ذاهبين، وعائدين بين الاقسام المتنوعة، فعلى اليمين يوجد قسم الذكور، وعلى الشمال يوجد قسم النساء، وهناك علامات دالة على القاعات ذوات الاختصاصات المتنوعة، كقاعة الأمراض الباطنية، وقاعة الجراحة، وقاعة الكحالة[2]، وقاعة البَرَص، وقاعة تجبير العظام، وكل قاعة تتفرع الى أقسام، كأقسام الباطنية، فمنها قسم الحُميّات، وقسم المبرودين[3]، وقسم الاسهال، وقسم الامراض الجلدية، وقسم الكبار ممن تصيبهم الشيخوخة بالوهن والتعب، يوفِّر البيمارستان للمريض إقامة كاملة، تتضمن المأوى، والطعام، إلى جانب الرعاية الطبية دون مقابل، والمتَّبع في هذه البيمارستانات أنه بمجرد السماح للمريض بالدخول، تنزع ثيابه، وتحفظ في مكان خاص حتى أن يخرج معافىً، ثم يمنح ثيابًا أخرى نظيفة، ويحل فيها إلى أن يبرأ تماماً، وعلامة

١ البيمارستان: المستشفى
٢ الكحالة: طب العيون
٣ المبردوين: المتخومين

ذلك أن يستطيع أكل رغيفاً كاملاً من الخبز، وفرُّوج ثم يخرج برازاً كاملاً، بعد ذلك يُعطى صدقة البيمارستان؛ ثوباً، وبعض المال، حتى يخلد إلى الراحة في فترة النقاهة، ولا يضطر للعمل.

وكان الساعور يوجه الطلاب الذين يتعلمون مهنة الطب الى الاتجاهات الصحيحة في المهنة، من أخلاق الطبيب، وأسلوب التعامل مع المريض، الذي وضع أسُسِها الطبيب إسحاق الرهاوي، فكان الساعور يقول لطلابه:

"إن السقيم إنسانٌ ضعيف، يجب أن تقوموا بمراعاة حالته النفسية قبل طِبابته، فخير الدواء هو إبتسامة طيبة فكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طليق، خذوا وقتكم مع السقيم، تكلموا معه، إسألوه ماذا يعمل، وكيف حال أولاده، وكيف أمور تجارته أو عمله؟ هل هو حزين، أم أتعبته أثقل الحياة من رعاية المنزل، والعمل؟ لا تُفرقوا بين أحدٍ لدينه أو لعِرقه أو لعمله، فالخليفة، أو الحاكم، أو العامل، أو المزارع سواء، كان مسيحياً، أم يهودياً، حتى وإن كان وثنياً، فكلهم سواء، ولا تنسوا المرأة، فالمرأة حين حَيضها يقوم العقل بأفراز مايغير الحالة النفسية، المرأة حملها أثقل من حمل الرجل، فهي تقوم بتربية الاولاد، وأعمال المنزل المرهقة، فضلاً عن مشاكلها الزوجية، والعائلية، فأجسام النساء أكثر تعقيداً، فكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: رفقاً بالقواربر، وكان العرب يظنون ظناً لا صواب فيه، فالرسول عليه أفضل الصلاة والسلام يقول إنهن رقيقات لانهن يعانين أضعاف ما يعاني الرجل، فالعمل المضني والتربية، والمشاكل الجسدية الى المشاكل النفسية كلها تقوم بتدهور الحالة النفسية، هذا مايقوله إبن المجسوي في مراعاة حالة الانسان النفسية، فصافحوهم، وسلموا عليهم، وأجلسوا معهم، وأحترموهم، وإن تطاولوا عليكم، فهم ضعاف، وأنتم اقوياء، وإن لم تستطيعوا أن تكونوا أهلاً لهذه المهمة، فالطب ليس لكم،

فهنالك من الاطباء الذي يغالي في أخذ المال من السقيم، ولا يبالي له، كأنه يداوي البهائم، فالله يأمرنا أن نراعي الناس ونرحمهم، كما أمرنا برحمة البهائم، فكلنا مخلوقاته، فلا يجب أن نوقف السُقماء في طوابير، ونسلب منهم مالهم بغير حق، الساعور كالمعلم، يجب أن يعطي الطالب الاخلاق الطيبة والسَمِحة قبل العِلم، فإن لم يَستَطِع ذَهَبَ العلم والاخلاق، أحبوا السقيم، كأنه ذوو القربى، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته" وبعد أن ينتهي الساعور من كلامه يأتي المهتار[1] ليعلمهم من الطبابة، ويخبرهم عن أماكن الاقرباذين[2] من الاعشاب وغيرها الموجوده في الشربخانة[3]، وكيفية أستعمالها، وطُرق التَداوي بها، فالصباح هو وقت الكشف على السقماء، والظهيرة هي وقت التعلم، ثم وقت الغداء في قاعة الطعام الموجودة في البيمارستان.

دخل من الباب الحسن المراكشي، ومعه رجل في الثلاثين من العمر، مُوَنَق[4]، على كتفه عباءة زهرية اللون، غريبة الشكل، تقربا من العارف وسلما عليه.

"إبن سعيد الاندلسي، مؤرخ وشاعر من الاندلس، قد علم إنك قدمت من الشمال، ويريد أن يأخذ منك معلومات تأريخية، أذا سمحت له بذلك" يُعرِف الحسن المراكشي الشخص ذو العبائة الزهرية للعارف.

"بالتأكيد" يقول العارف.

"حسنٌ إذن سأترككم تتمتعون ما بينكم بالتأريخ وخفاياه، إحذر يإبن سعيد، فأن لصاحبنا هنا حسٌ قَصصي وأدبي عالي جداً، فهو متأثر بابن القارِح ورسالتهِ أشد تأثير، ويحب أن يطرح التأريخ بطريقة مغايرة عن التأريخ الاكاديمي السَمِج" يقول المراكشي، ويودعهم.

---

١ المهتار: الصيدلاني
٢ الاقرباذين: الادوية
٣ الشربخانة: الصيدلية
٤ مونق: انيق

فتبسم الاندلسي ولم يقل شيئاً.

"من أين تريد ان تبدأ؟" سأل العارف.

"أريدك أن تعود بالزمن" يقول الاندلسي

"اذا سنبدأ من موت فريدرك الثاني، رحمه الله" قال العارف، فنظر الاندلسي له بأستغراب، فإي شخص عربي، مسلم، يدعو لرجل صليبي أوربي بالرحمة؟.

"قد وافت المَنية فريدرك الثاني، الأمبراطور العظيم، في الثالث عشر من الشهر الثاني عشر في عام الف ومئتان وخمسون بعد ولادة السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، الموافق للثاني عشر من شهر رمضان عام ستمائة وثمان وأربعون ما بعد هجرة الرسول محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الموافق للثالث عشر من شهر الحوت –أسفند– لسنة ستمائة وتسع وعشرون في التأريخ الهجري الشمسي الذي وضعه عمر الخيام وجمهرة من العلماء رضي الله عنهم وخلد أسمائهم" يبدأ العارف بسرد الاحداث والاندلسي يكتب كل حرف يقوله.

"وفي هذا العام، بعد الرسائل التي قمت بأرسالها مع العالم الجليل الكبير أطال الله في عمره، وأعانه في أعماله وعلمه، القديس البيرت الكبير، أكتشف هذا اللاهوتي، الدومنيكاني، من كولونيا عنصر الزرنيخ، أما في العام الذي قبله، أي في عام الف ومئتان وتسع وأربعون بعد ميلاد السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، لقد قمت بمساعدة المعلم المذهل، روجر بيكون، بتحويل الكلية في شارع اكسفورد، وجعلها أول جامعة باللغة الانجليزية، وتوصلت معه الى إيجاد الصيغة الاولى والحقيقة الفعالة للبارود المحترق، للعمل على تطوير القذائف وتفجير حصون الاعداء، بمساعدة العالم محمد بن لاجين بن عبد الله الرماح الذهبي الطرابلسي، الذي أوفدنا بأهم المعلومات في هذا

المجال، وقبل هذا العام، بدأ أول عام في تأريخ إمبراطورية الازتك في أقصى الغرب، الى ما وراء حدود بحر الظلمات[1]، في عام ألف ومئتين وثمان وأربعين بعد ميلاد السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأيضا في العام نفسه، وضِع حجر الأساس لقصر الحمراء، بأمر من محمد بن الأحمر في غرناطة ..." وأستمر العارف بسرد الاحادث وتواريخها التي حدثت في أوربا للسنوات العشر الماضية، وكان الاندلسي يكتب كل ماقاله العارف بدون كلام.

---

١ بحر الظلمات: المحيط الاطلسي

القدور الراسيات

وتمر الايام، واحدة تلو الاخرى، ومازال زال في فراشه، يصارِع الموت، والحمى تتغلل في جسده كأنها حميم، والسواعير لا يعلمون الطريق الى العلاج، وكان العارف مازال ماكثاً في البيمارستان ينتظر شفاء رفيقه، وكان گريگرس طوال الوقت يساعد المشرفين والمشرفات بنقل الاغراض الثقيلة، وحمل السقماء من والى البيمارستان، فهو لا يحب أن يبقى في مكان يأويه، ويوفر له الطعام دون مقابل، وكان الطارق في مكانه، لا يتحرك خطوة، كما هو كأنه تمثال متسمر على الحائط، كان العارف يستغل وقته في تعليم بعض من الطلاب، أو بعض من المؤرخين، ليتعلموا من علمه او يكتبوا التأريخ الذي يعرفه، وكان يجلس بالساعات في المكتبة الموجودة في البيمارستان، يقوم بدراسة كتب الطب للكندي، والرازي، وإبن سينا، والزهراوي، محاولاً إيجاد علاج لصديقه، فانتهى به المطاف أن يتعمق في علم الطبابة، والاعشاب، وإيجاد خلطات من الاقرباذين الجديدة لمعالجة التقرحات، والتسمم الغذائي وغيره من الامراض، ولكن لم يتوصل بعد الى وصفة يمكن أن تكون العلاج المناسب لزال.

وبعد أسابيع، أتى الحسن المراكشي الى العارف، وطلب منه أن يخرج من البيمارستان، وأن يزوره في بيته، ليرى مراكش وأهلها، ويرى آخر ما توصلت له العلوم في الفَلَك، والفيزياء، والرياضيات، وغيرها.

فخرج الحسن المراكشي من البيمارستان برفقة كل من العارف وگريگرس، يتبعهما الطارق، كإنه ظل لهم، فلا يريد أن تراه الناس، ولا يريد أن يترك العارف يمشي لوحده، في شوارع مراكش المكتضة، رغم أن گريگرس يحميه، ولكن هذه مراكش، لا يعلم

سبيلها المحارب، فأصبح كظل العارف اللامرئي، ويتذكر العارف كيف قام زال بنفس الحركات الرشيقة عندما قام بتهريبهما من لندن، فالطارق لا يملك فن القفز بالاختفاء كالمهرب زال، ولكنه كالحرباء أيضاً، يستطيع التطبع بالاجواء الذي هو فيها، فالاسواق في مراكش غاصة بجميع لوازم الحياة، وبكثير من كمالياتها، فكانت ألازقة ضيقة، أنشِأت من عمد ليَستَظِل بها المارة، الشوارع كثيرة الحركة والجلبة، تعلو فيها أصوات البائعين الجائلين، وعربات النقل، يبيعون السلع المتفاوتة الاثمان من آنيات الطبخ، والمرايا، والمزهريات، والثريات، ومقالم، ومحابر، ومدافئ ومباخر، وتماثيل للحيوانات، وصناديق، ومصاحف، ومفاتيح، وأقفال، وسجاد، ودواب، واثاث، وطعام، وجاريات، وعبيد، وغيرها.

حتى وصلوا الى بيت الحسن المراكشي، فيقف گريگرس متسمراً من منظر الرماح القائمة في باحة المنزل، وكل رمح يخترق صحن كُتبت عليه طلاسم، وأرقام، فيُخيل اليه إن السماء أمطرت رماحاً، لتخترق صحون الجن في وقت تجمعهم لمناسبة جماعية، وانتظارهم لاشارة النفوذ الى أقطار السماوات، كما حدثه يوما من الايام أحد العرافين في بغداد، وإذ بالعارف يبتسم فيسأله الحسن المراكشي"ما بالك تبتسم؟".

"إنه گريگرس، يَتَصَور أن هذه الاوتاد الواقفة هي رِماحاً من السماء، أصابت القدور الراسيات لمعشر الجن" يرد العارف.

"هل ما أعتقده صحيح، يا سيدي؟" يسأل گريگرس مشيراً الى الاعمدة.

"لا ياعزيزي، إنها ليست أوتاداَ، ولا رماحاً، وهذه ليست صحوناً، أو قدور راسيات يا صديقي، إن تلك التي يتوسطها أعمدة، وهذه أرقام، وحروف وليست طلاسم، إنها المِزولة، أي الساعة الشمسية".

ويبدأ الحسن المراكشي بشرح الساعة الشمسية لضيوفه بعد أن رحب بهم، ويخبرهم كيف صَنعها، وفائدتها، ويشير الى كتابه –جامع المبادئ والغايات في عِلم الميقات– الذي يشرح فيه الطريقة التي توصل بها الى أختراعه الذي لم يسبقه أحد من قبله.

فدخلوا الى منزل المراكشي، ودخلوا الى قاعة كبيرة جميلة كالبهو، مستطيلة الشكل، مرصوفة أرضها بالقرميد الملون، وكانت الاعمدة من حَجَر السماقي، لها تيجان مختلفة العقود، غلفت هذه الاعمدة بسجاد عجمي، وتربط هذه الاعمدة سجف من الوان متعددة، مطرزة بحِرفة مثالية، وتوجد نقوشات على السقف الخشبي لآيات من القرآن الكريم بأجمل الخطوط العربية، ويتوسط السقف ثريا تحمل مئات القناديل من الزيت المعطر، فكان البهو مؤثث بالكراسي المصنوعة من الخشب الثمين كالابنوس، ومطرزة بماء الذهب، وتوجد على الارض طنافس، ومخدات من حرير.

كان البهو يملؤه ضجيج من الاصوات الممتزجة من كلام الضيوف، وزَهْزَقاتهم، يصاحبها أنغام الموسيقى، فكانت تجلس كرينة، تعزف على عودها، مع طقطقات حجل القينة الفضل[1]، يعزفون و يغنون زجل إبن قزمان[2].

"سأعرفهم عليك بأسم مستعار" قال الحسن المراكشي للعارف "سأسميك إبن أبي البغدادي".

"لماذا؟" يتسائل العارف.

"يا عزيزي، أنك معروف لدى الكل، فما زالت الاحداث التي قمت بها تُروى لدى أطفالنا، ثانياً، كل الامراء والخلفاء في شتى الدويلات الاسلامية تبحث عنك، فكلهم يريدون مشورتك، وحكمتك، طبعاً يعلمون إنك لن تقبل، لانهم يعرفون العارف يرفض

١ قينة الفضل: راقصة
٢ إبن قزمان: شاعر وهو زعيم الزجالين الذي اتخذه التروبادوريين و يعتبر هو ابو نؤاس الغرب

مجالس الخلفاء بعد خروجك من مجلس المستنصر بالله، بالإضافة الى أن هنالك الكثير ممن يريدون قتل من برفقتك، فالمحارب الضخم، وثني، أغرل[1]، وصديقك السقيم، مطلوب في كل بقاع الارض، فلنعطيك شخصية وهمية، وبهذا نُبعِدك عن المشاكل".

فدخلوا البهو، والكل انتبه بأن المضيف قد دخل، فتوقف الغناء، والرقص، والكلام، فجلس المراكشي على كرسيه، وسلم على الجمع، وعرفهم على صديقه الذي قدم من بغداد قبل عدة اشهر.

"إن اللّيلَ طويل، وقبل أن يَذهب الخمر بعقلنا، الافضل لنا أن نتدبر أمور دنيانا، ونتعلم منها، ثم نتمتع بسحر المدامة، وشَجْوِ الغناء" يقول أحد الجالسين، اللذين كانت له مكانة كبيرة في الجلسة.

"فلنسأل الضَيف" قال أحدهم مشيراً الى العارف.

"كيف حال بغداد؟" يسأل احدهم.

"كما عهدناها" يجيب العارف.

"من أي مدرسة أنت؟" يسأل احدهم.

"ممن أرادوا الوصول".

"الى أين؟".

"كلنا الى نفس النهاية".

"صحيح، ولكن على ايّ مِلة؟"

---

١ أغرل: لم يختن. وفي ذلك الوقت، كان موضوع الختان مشكلة بين المسلمين و غيرهم من النصارى او القادمين من اوربا

"مِلة الجميع".

فنظر الجمع الى الاجوبة المختصرة، فعلموا أنه لن يجيب عن سؤال بهذه الطريقة، فسأل شخص من الجالسين "إن الناس إثنان، عَالِم، ومتعلِم، ما قَولك؟".

"إن الناس ثَلاثْ، ناسِخ، ومنسوخ، وخارج عنهما" يرد العارف ويعم الصمت للحظات.

"إن دينُ المَرء عَقله، فمن لا عَقل لهُ لا دينَ له، ما قولك يا إبن أبي البغدادي؟".

"إن عَقل المرء خائنٌ لصاحبه، ومن آمن إن العَقل هو الدين، فقد خانَ دينه" يرد العارف و تَتَوجم الوجوه لهذا الكلام.

"ما قَولُك لَو أنَ العوامَ إشتَغلوا بالمعاصي البدنية، لكان أسلم لهم من أن يخوضوا في معرفة الله؟".

"مَن خاضَ في مَعرِفة الله كانَ من العوام، لان العوامَ يهيمونَ في ما لا يستطيعون الوصول اليه، والذي يأتي بكلامٍ مُنَمق، علا إسمه، وعظُم أمره، ومن خاض في معرفة خَلقِ الله، علا أمره، وخُلّد إسمه، ومن خاض في عمل خَلقِ الله، علّا أمره، ونُسي عمله".

فبدأ الجمع يتهامسون فيما بينهم، فقام الحسن المراكشي بحركة سريعة، وبدأ الغِناء، والطرب، ونظر المراكشي الى العارف، فينهض المراكشي ويأخذ العارف الى غرفة خلفية، وينزلان سلماً، فدخلا الى الغرفة، ورأى العارف عشرة أشخاص جالسين، فأنحنى لهم، وقال "سلام على مَن علمني مذ كنت صغيراً، وعلى من أرسل سلامه حينما عصيت، وعلى من شرح صدره لي حينما أدرت ظهري له".

الزنادقة

أصبحت هذه الغرفة هي المجلس التي يزورها العارف كل ليلة، بعد أن يكمل دراسته في الصباح للطب، والطبابة، والتعمق في كتب ابن البيطار، وابن الرومية، والابحار في كتاب الماء لابن الذهبي، وفي المساء يجلس فيها العارف يحاور كل من ابن سبعين، وأبي الحسن الشاذلي، ويهوذا بن النسيم، وعبد الحق بن اسماعيل البادسي، وابي الحسن الشَشْتري، وأبي زيد الدباغ الاسيدي الأنصاري، ومالك ابن المرحل السبتي، والأخوين الهزميريين، والسيد احمد بدوي، وفتى لم يبلغ العشرون عاماً بعد، ويلقب بابن منظور، والحسن المراكشي بنفسه.

دائماً مايبدأ الحوار في هذا التجمع، والذي أسموه بتجمع الزنادقة، بكلمة من إبن سبعين "أُعطيتَ لقبَ العارف وأنت في العقد الثاني من عُمْرِك، ولم يكن هذا لاحد من قبلك، وأخرجت من بعد العقد الثالث من عمرك ولم يكن هذا لاحد من قبلك، ووصلتنا رسائلك مع الحمامة المطوقة، وعلمنا مافعلت في سفرك وتِرْحالك، وطلبت منا في رسالتك، أن نترك مدننا، ونجتمع في مراكش، فحدثنا ما تعلم".

فيتحاور العارف معهم في شتى أصول الدين، والعِلم، والفِقه، والمنطق، وغيرها من علوم الارض، وعلوم الخَلق، من الوجود، والتوحيد، وغيرها من أمور زمانهم.

"لقد سمعت قول ابن حيان فأخذت به حينما قال: أول واجب عليك أن تعمل وتُجري التجارب، لأن من لا يعمل، ولا يُجري التجارب، لا يصل الى أدنى مراتب الاتقان، فعليك يابني بالتجربة لتصل الى المعرفة" يحاورهم العارف، وإستمر الحوار لاسابيع، ويقول العارف "لم أجد في العقل جدارة، ولم آخذ من قِيّمه، وثوابِته، وأساليبه، فإني

أعلم بأن الحرية التي يدعو اليها العلماء وهمية، فأن السجين حُر في زنزانته، والروح حُرة في جسدها، وعقل الانسان حُر في ما نسخه من المجتمع، وأبَويّه، والعلم الذي ينسخه من أساتذته، والتأريخ الذي يُكتب بحسب أهواء كاتبه، وهنا أتَخِذُ رأي ابن رشد".

وتستمر أيام النقاشات والحوارات، فيقول العارف "كل الافكار صواب، فكلها منبعها العقل، والذي أصاب، قد أصاب بحسب زمانه، ومكانه، فلو كان في غير وقت، أو مكان، لما أصاب إن أقام نفس العقل، فأني لا أرى خطأ في أي تفكير، فالفلاسفة على صواب، والمتصوفة على صواب، والفقهاء على صواب الا من تَعَصَب".

وبعد جدال الكون، والوجود "إن علماءنا الاجلاء قالوا، وتهامسوا، وتخاصموا في قِدَم الكون، أو العِلة الاولى، أو الفَيض، وإني لا أجد من هذه الافكار وتلك ما يشفي جروح عقلي المتقرحة بأفكار أستمديناها من أُناس كان وقتهم غير وقتنا، ومجتمعهم غير مجتمعنا الذي يتكون من عدة مجتمعات مختلفة، فالاندلس ليست هي المغرب، والمغرب هي ليست مصر، ومصر ليست خراسان او العراق، فانصرف العلماء كُلهم في فلسفة ارسطو، ولم يعلموا بعد هذا العلم، فحاولوا تطبيق هذا العلم بديانتهم، ولم أجد من هذا بعد مخرجا، واني لربما أنحاز الى رأي إخوانِ الصفا، إن تركيب جسد العالم بما يحويه أفلاكه، وكواكبه، ونجومه مشابهاً لتركيب جسم الانسان، ولكني أجد مبدأ العدم والفيض يختلف لما لدى العلماء، رغم إن رأيهم صحيح، وأجد هذا العقل، الذي لا اثق فيه، ميالاً متفقاً مع أبي القاسم القشيري، فأجد كما وجد، بأن لا يوجد عدم، والوجود لم يكن فيضاً، إنما الوجود هوالوجود نفسه، تحول من حالة الى أخرى، يحميها وقت الوجود، وهكذا يصطبغ الوقت بالحال، ويتميز الحال بالوقت، فالمقام يستمر زماناً، في حين يختفي الزمان في الحال، فالوقت لا زمان له، لكنه حال تخرج به عن الزمان".

وأما في حوار العلوم الارضية، فكان رأي العارف "وإني أرى العلماء قَدَموا للحياة ما يَستحِق الاكرام والتبجيل، ولكني لم أجِدُّ بعد بالعلم الشيء الذي يشفي جروح عقلي المتقرحة، وإني لا أعترف بوجود حقيقة علمية، فمن قال إن هذا الامر أثبته بالعلم، فإني أرى اذاً إن العقل أثبت هذا العلم، وليس العلم بثابت، والدلائل كثيرة عن علم إستمر لمئات السنين، ومات بعد أن وجدت الاخطاء فيه، فكان هذا العلم الذي قد ولى هو (حقيقة علمية)".

وعندما كان العلماء يحاورون العارف في حقيقة الاشياء يقول "إني أعلم بأن ما قدمه العلماء إنما هو الا ما يجب أن يكون، كما يقول الاخوان على مذهب فيثاغورث الحكيم عن طبيعة العدد، وأن نعمل به، ونقوم بالعمل بمكنوناته، ولكن لا نميل كل الميل الى نتائجه، فلا شيء حقيقي، ولا شيء مُثْبَت، فكل عقل يُثْبِت مايريد، فالثابت والحق الجلي الذي لا غنى عنه لبني الصحراء، لا يشبه الثابت والذي لا غنى عنه لبني الجبل في الشمال القارس".

فكان بعض العلماء يذهبون الى نقاش الباطل والشر يقول العارف "لم أجد بعد بالعلم الشيء الذي يشفي جروح عقلي المتقرحة، في منطق الشر والخير بدليل، الا مسميات، فالمذموم لدينا محبوب لغيرنا، والمحبوب عندنا مذموم لغيرنا، فالخير والشر وجهان لعملة واحدة، وأنا لا أرى أوجه العملة، لكن أرى العملة كاملة، فلو فتشنا في عقولنا، لعثرنا على مخزون ضخم من المُسَلَمْات، فمثلاً إن الشعب الفلاني كسول، والشعب الفلاني نزق، مجرد لاننا سمعنا هذا، مثلاً! إن المفكرين زنادقة، ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، فلا ننسخ ماقيل لنا ونطبق عليها احكامنا بالشر او بالخير".

"وهل هذا سبب بأن تقوم بعمل يؤدي بك للخروج من جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا؟" يسأل إبن سبعين.

"إن الاخوان والخلان يتكونون من مراتب، الأبرار الرُحماء، والأخيار الفُضلاء، والفضلاء الكرام، والكمال، وأعلم إن إي من هذه المسميات لا إرتقي لكي أضعها على عاتقي، وطلب الاخوان ونادوا بعقلنة الدين، وكما وضحت قبل أيام بأني لا أثق بالعقل، فكيف أدخله فيه الدين؟ وخاصة وإن تعريف الدين أصبح يختلف في هذه الايام، فالدين هو الايمان بالله، أما الان أصبحت هنالك ديانة، وهي كل الكلام الذي يصدر من العقل في الدين فأُخِذت الديانة مكان الدين، وبدأ كلام المفكرين أكثر أتباعاً من كلام الله، فرجال الدين مصدر خطر كبير، إذا ماسنحت لهم الفرصة ليشكلوا طبقة مُستفيدة من وضعها، فيصبح هم هؤلاء يأولون، ويجتهدون، ويفسرون ويبتدعون ماليس في الدين، ويلتصق مع مرور الزمن بالدين فيصبح الدينُ ديانة، ليس لله بل لاحد من البشر، وهذا الطريق صحيح لمن أراده، لكن إن أعتقاد التكفير غير موجود في الدين، ولكن هو أساس الديانة، فكل من ليس من مِلة جماعة أصبح كافراً او مُلحداً او زنديقاً، وأنتم كافرون ومُلحدون بالنسبة للفقهاء، فبدأ التعصب يأخذ مكان الديانة، فاصبح تابعيكم يضعون الضغينة للفقهاء واصبح الفقهاء هم من يُحورون الكلام عن موضعه، كل هذا مصدره التعصب، فجوهر الدين مهما كان لا يحق لاي شخص أن يكفر غيره، "يا إيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير[١]"، فإتبعت أساليب الذين علموني ورفعوا مقامي، وأخذْت بما قالوا في درجات المعرفة الثلاث، محبة الحكمة، وتحقيق المعرفة لصورتها الواقعية والمعرفية، وأخيراً العمل بها، فعلمت اني يجب أن أعمل بها فانطلقت باحثاً للحكمة واتبعت الرسائل التي تقول:

١ القران الكريم: الحجرات ١٣

إعلم يا أخي، إنه لا يحسن بنا أن ندعي معرفة حقائق الاشياء ونحن لا نعرف انفسنا لان مثل من يدعي معرفة حقائق الاشياء ولا يعرف نفسه كمثل من يطعم الناس وهو جائع، وكمن يكسو غيره وهو عريان، وكمن يداوي الناس وهو عليل، أو من يهدي الناس الى طريقٍ وهو لا يعلمه، ومن قال بإنه يعرف الطريق فإن عقله قد سوّل له هذه الفكرة، فكلنا نتبع الطريق الصحيح، لكن لا نعرف الطريق وماهيته، كما دعا الفلاسفة الى ماهية الله وهم لا يعلمونها، وكما دعى الفقهاء الى تكفير الاشياء من غير حق، وعَرّف العلماء الاشياء وهم لا يعرفونها بل يعرفون كيف يستخدمونها، فانطلقت بعيداً عن طريقكم الصحيح على مضض، لأتَعَرَف على شعوب الناس وحكمتهم المختلفة، مهما كانت دياناتهم، وطرقهم الصحيحة، لان الدين هو ليس مشكلتي، الدين مشكلة الانسان مع ما يؤمن به اذا كان يؤمن بشيء، وكما في الاية التي ذكرتها مسبقا خُتمت الاية بالعَليم الخبير، لان في التعرف على أفكار الناس هو علم، ويضيف خبرة، ولربما تقولون لي إنك تسرح وتمرح مع أشخاص غَريبين كزال وگريگرس، أحدهم وثني، ولكن من دخل دار أبي سفيان فهو أمن، ولم يَجبِر محمد بن عبدالله أحداً ان يَدخُل في دين رَبه، فلا ضرر في مزاملته، والثاني يتبع أهريمن اله الشر في الزرادشتية، ولكن الديانة الزرادشتية تدعو الى الثنائية التي دعا اليها الغَزالي، فكلاهما واحد، بمسميات مختلفة، فإذا كَفرَهم أحد الفقهاء، ذلك لانه ناسِخٌ لأعتبارات سياسية، وإذا كَفرَهم أحدٌ من العامة، ذلك لانه مَنسوخ، ومن تقبلهما كما تقبل محمد بن عبد الله، او عيسى بن مريم، او يوسف بن يعقوب للناس الذين إختلفوا عنهم فذلك لانه خارج عن حدود الناسخ والمنسوخ، وأنتم إعتباراتكم دينية سياسية، وهذا ليس ما أبحث عنه، رغم صِحته، فإني لا أجد في الدين سياسة، فالدين هو كيف تؤمن بربك، والسياسة كيف تَسْتَعبد الناس، فجلس الفقهاء، والعلماء، والفلاسفة، والاخوان والخلان يحاولون الوصول إلى معرفة الاخلاق وماهيتها، وأنا أرى ان أخلاق العرب تختلف عن أخلاق البربر، وأخلاق أهل المدينة تختلف عن

أخلاق أهل الجبل، إذن الاخلاق يحددها مجتمع، ولا يحددها فقيه يستعمل ديانته، او عالم يستعمل (حقائقه العلمية)، أوفيلسوف يستعمل كلماته المنمقة الصعبة للعامة ولا يفقه منها الناس شيئاً، فإما كَفَّروه وإما عبَدوه، وكما وجد الاخوان والخلان معنى الوجود وذابوا في الروح الالهي، ومازال الناس يموتون من الجوع، ويضنيهم تعب الحياة، كما نناقش هنا أمور ومازال صديقي يصارع الموت، فالكل على حق "وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون، فذرهم في غمرتهم حتى حين[1]" فصرنا حزباً يدعو الى الصواب لحزب يدعو الصواب، والغريب إن في كلتا الايتين يدعوا الله الى التقوى، والتقوى مخافة الله، وليس أي شيء أخر، هذا مايقوله لي عقلي الذي لا يذُرني الا ويلقي سمه في كل فكرة تعشعش في رأسي، وأنا أقول مقصدي في كلامي هذا، إنكم أجمعين على صواب، ولكن متفرقين، وأعلم إن الاخوان والخلان يدعون الى مدينة فاضلة أحسن من كتب عنها هو الفارابي في كتابه، ولكن لربما تعلمت اكبر درس من زال، فالحياة غير فاضلة، بل يجب أن يكون فيها من كل شيء، كلهم وجه لنفس العملة، واذا سألني أحد، إني كيف أشكك بشيء فإن الحنيف إبراهيم، أول من علّمنا إن الحياة لا تؤخذ بالنسخ والمنسوخ، وإنما بالسؤال حتى وإن كان في السؤال تجاوز، فأنتم لغيركم تجاوزتم، عندما قلتم بنظرية التطور، إستناداً الى ما قاله الجاحظ، إن المادة تتطور الى النبات، والنبات يتطور الى الحيوان، والحيوان الى الانسان، أنا متأكد من ان كلامكم صحيح، ولكني أيضاً أتفق مع الكل، سواء وقفوا وقفة ضد أو إتفاق، فإني أرى الافكار حتى لو كانت صحيحة يجب تثقيفها كما يثقف السهم، فالفكرة إذا بَلَت وصَدُئت ولم تخترق عقول الناس، فهي كسلاح لا يفيد في ساحة الوغى، فكان لمن ترك علمه او حياته تبلى على أفكار نسخها وإن كانت صحيحة من دون أن يضعها في شكلها الذي يناسب إسلوب حياته، فإن الفكرة أصبحت

---

١ القران الكريم: سورة المؤمن (٥٢-٥٤)

فكرة صحيحة في مكان غير صحيح، وبلت الفكرة وخاب صاحبها، فمن الناس من لا يرغب في العلم، بل يتكل على ما تدركه الحواس أو ما في قرائح العقول، أو ما نسخه من العلماء، كما وجدوا عليه أبائهم وأجدادهم"

سكت العارف قليلاً، وقال "لقد إنطلقت من بغداد باحثاً عن الوجود، والحقيقة المطلقة، وحجر الفلاسفة، وماء الحياة، فانطلقت باحثاً، توجهت الى جلال الدين الرومي، فكان خير ناصح:

وما الحَسَبُ المَوروث لا دَرَ دَرُهَ بمُحتَسِب إلا باخر مُكتَسِبِ
وأنتَ لعُمري شُعبَة مِن ذَوي العُلا فلا تَرضَ أن تَعتَد من اوضَع الشعبِ
وللمَجدِ قَومٍ ساوَروهُ بأنفُسٍ كِرام ولَم يَرضوا بِأمٍ ولا بِأبِ
فلا تَتَكل الا على ما فَعَلتَهُ ولا تَحسَبَنَّ المَجد يورَثُ بالنَسَبِ
فلَيسَ يَسودَ المَرء الا بِنَفسِهِ وإن عَدَّ آباءً كِراماً ذَوي حَسِبِ[1]

ودَخلتُ أوربا، وبحثتُ، وقمتُ بعمل أشياء لم أكن أعلم إني سأقوم بها يوماً، فإن الحياة بين الكتب هي شيء جميل، ولكن إن وَضع بصمات بأستعمال هذه الكتب في الحياة هو أجمل، ويكون كاملا بمعرفة الانسان لنفسه الذي هو جزء من الوجود، لا يتجزء".

دخل من الباب خادم الحسن المراكشي وقال له بأن هنالك رسول عند الباب، فخرج الحسن المراكشي الى الباب، فجلس إبن سبعين مع العارف وتهامسا "يا معلمي! إني لم أقم بشيء خارج عما علمتني أنت به، أنا حولت الكلام الذي على الورق الى عمل، الم

١ من شعر جلال الدين الرومي

تقل عن ابن رشد إن لا أصالة له، لانه يقلد أرسطو تقليدا أعمى؟ وقلت عن الفاربي إنه متناقض ومضطرب؟ وإن ابن سينا مسفسط؟ أنا أراهم كلهم على طريق بأختلافهم بنسخهم وتنسيخهم أنت تعلمت، وعلمتني" يقول العارف لابن سبعين مبتسماً.

فدخل المراكشي وقال "إن خليفة الموحِدون، عمر المرتضى، يريد مقابلة العارف".

جلجميش

كان وجه العارف مكفهراً، وهو يمشي بحذر بين أزقة مراكش الفارغة من سكانها وكانت السماء طَخواء[1]، ملبدة بغيوم رمادية لا يتخللها ضوء، لم يكن العارف ينظر الى الوراء، لانه يعلم بأن گريگرس خلفه يحميه مهما كلف الامر، وكان الطارق الذي لم ينزل لثامه من وجهه منذ قرابة عام عندما نزلوا في ميناء أسفي، يحملون معهم صديقهم السقيم زال، الذي يصارع الموت أثر جرحه الملوث بدم القراصنة المسموم، وها هم بعد أشهر كثيرة لا يستطيعون إيجاد الدواء، فجربوا كل شيء من الطب والاعشاب والشعوذة، والان عليهم مغادرة مراكش، فالحاكم عمر المرتضى خليفة الموحدون قد طلب العارف الى قصره، ولكن الطارق لم يقبل، فعلم العارف إن الخليفة يَكمن له الحقد والضَغينة، فالموحدين هم من الامازيغ إي البربر كما يسَمونهم العرب، وهؤلاء يتبعون أفكار ابن تومَرت، وتعَصبوا لها، فكل شخص لا يدعوا بما دعى له إبن تومَرت هو خارج عن المِلة، ويبدو أن الخليفة قد سمع بما قاله العارف في التجمع الذي حدث في بيت الحسن المراكشي، فلن يُخاطر العارف بكل شيء قد قام به، فهو من تخلى عنه أهله وأصدقائه، وحاربه المفكرون من العلماء والفقهاء والفلاسفة، والان هو مطلوب من الخليفة، حان الوقت لأكمال الرحلة، ولكن، زال ،مازال في الفراش ولا يقوى على الحركة.

الليل ساكن ذات أريز[2]، والناس نيّام، ولا يُسمع الا الاسناف[1]، وصوت فحص[2] الخفير بين الازقة، يتأكدون من خلوّها ممن يسرق المحلات او يحاول التخريب، فتقرب

---

١ طخواء: شديدة الظلمة

٢ ليل ذات اريز: ليل بارد

الخفير وهم يسمعون تنسمه[٣]، فأخرج الطارق خنجراً، وأشار له العارف بأن لا يقتل الخفير، فنظر الطارق الملثم ورأى العارف في عينه شيء يطمأنه، فرمى الطارق الخنجر بعيداً، ملتفاً بين البيوت فضرب شيئاً، إعتقد العارف إنه صوت فانوس قد سقط، فسمع الخفير هذا الصوت، وركض إلى صوت وقوع الفانوس، وأشار الطارق لهم بالاستمرار، قال له العارف بأن الطريق من هنالك الى البيمارساتان ولكن أستمر الطارق بطريقه، فوصلوا عند بيت عليه رسم غراب، ففتح الطارق لهما الباب وأشار لهما بالدخول، فدخل كلاً من العارف وگريگرس.

كان البيت صغيراً، تضيئه نور الشموع، ويجلس شخص كبير يلبس جلباب أصفر، وعبائه بيضاء مصفرة، شعره ناصع البياض كالثلج وكذلك لحيته الطويلة، ذكر هذا المنظر العارف بأحد من هردبة[٤] الشودرا[٥] في الهند.

سلّم العارف عليه بحركة الناماسكار[٦] المعروفة بالهند، فرد الرجل عليه بنفس التحية وقال للعارف "إنك رجل صعب الوصول اليه".

"كانت رسالاتك واضحة، ولكن كان لدي بعض الشك بأن تذهب الى ماوصلت اليه ، فأعتقدت أنه يجب أن أرى مايحدث قبل مقابلتك"

"هل تريد ان نلتقي مرة اخرى؟" يسأل الهندي.

"لا داعي، فإني لن اذهب الى اي مكان، وهناك بعض الاسئلة التي يجب أن اطرحها عليك"

---

١ الاسناف: صوت الغبار الذي تثيره الريح
٢ الفحص: صوت القدم عند المشي
٣ التنسم: صوت التنفس العالي
٤ هردبة: عجوز
٥ Shudra : the Untochables: وهم الطبقة الرابعة والاخيرة في النظام الهندوسي
٦ Namaskara : Namaste وهي حركة السلام في شرق اسيا

"بالتأكيد".

"أنت أعيا من باقل[1]" قال العارف بنبرة غاضبة، فتبسم الهندي ولم ينبس ببنت شفة[2]، فجلس العارف على كرسي دون مسند، وأنزل رأسه ويداه على رأسه "أعتذر، ولكن شأني الان شأن ذلك الذي ضل الطريق، وسأعمل بنصيحة أول شخص، حتى وإن سرت في طريق مغاير" يقول العارف مذعناً.

فعم الصمت للحظات "يا يعسوب العلماء، إعد لي بصيرتي، وهات علي من علمك كقميص يوسف إذ أتى يعقوب" يقول العارف للهندي بصوت زحار، وروح مهيضة.

"أنت الذي رَصَصْتَ الطلاسم بشكل مغاير، وداخلت الاقطاب في ما بينها" يقول اليعسوب الهندي "عندما إنطلقت من بغداد برحلتك باحثاً عن الحقيقة في الخارج بعد أن وجدتها في الداخل، كان يجب أن يكون هنالك توازن، فظهر من البُعد الذي أنت أستمديت منه الحقيقة والمعرفة، أشكال لم نسمع بها ولم نراها من قبل، لكل شيء نِد، وكان نِدك حقيقة خارجية لتوازن حقيقتك الداخلية، فالقبطان وقراصنته هم خصمك، فلا طريق يخلو من المصاعب، والمصاعب إنما هي تبعات أفعالنا تتراص أمامنا، فلكل شيء نتاج، وكل ما توجهت الى الاعلى توسعت الهاوية في الاسفل، فالعالم مكون من أبعاد، وعوالم متوازية، يحجبها البرزخ الذي لا ينقل ترددته الضوء، ولا تسمع أصواته أذاننا، كل شيء مكون من طاقة وطاقة–ضد، نحن نعيش في عالم الطاقة، وهم يعيشون في عالم الطاقة–الضد".

فاكهفر وجه العارف وقال "ولكن هذا سيؤدي إلى عالم مظلم".

---

١ أعيا من باقل: مثل يضرب في البلاهة والغباء

٢ لم ينبس ببنت شفة: لم يتكلم

"الظلام هو أساس النور، فانت قلت في تجمع الزنادقة بأن النور والظلام وجهان لعملة واحدة، وأية لهم الليل نسلخ منه النهار" يرد اليعسوب.

فطال النقاش، وإستمرت الايام، فكان هنالك خطب في الشارع، فالجنود يبحثون عن ابن أبي البغدادي، والعارف واليعسوب في نقاش.

"حسناً" يقول العارف، لقد علمتني ما أريد، والان أريد علاج لزال".

"لدي العلاج الذي تصبو اليه" يقول اليعسوب "ولكن لكل شيء ثمناً".

"ماذا تريد؟" يسأل العارف.

"حجر الفلاسفة، وماء الحياة" يرد اليعسوب.

فتوجم وجه العارف، وفؤاده يعتصر، وقال "أنت تعلم ماعنيت لكي أحصل عليهما جردت نفسي من كل شيء وعرضت أناس للخطر، وقامت الحروب ماقامت، وتغير وجه الارض، وبدأت القوى بالانتقال من الشرق الى الغرب، وكل شيء قد تبدل" يرتجف العارف.

"هذا أو لا علاج" يرد اليعسوب ببرود.

فأخذ العارف نفساً عميقاً، وأخرج القلادة التي كان يلبسها تحت ثيابه، كانت تحتوي على حجر صغير بداخلة مادة فضية تتحرك بطريقة عشوائية "لقد بحث الخيميائيين والعلماء والعارفين عن هذا من قبل ولم يجدوا، وسمع الناس عنها في القصص والحكايا، وها أنا أجدهما ويجب الان علي أن أبادلهما من أجل روح واحدة؟" يسأل نفسه.

"لا سيدي" يقول گريگرس "أعلم بأنك كنت هنالك عندما ولد زال، وقد قمت بأنقاذه من الموت، وأعطيته للعنقاء لترعاه، وأحببته كأنه ابنك، ولكن الحياة لن تقف عنده، بل يجب أن تستمر في مهمتك".

فتنهد العارف ونظر مطولاً الى القلادة التي بين يديه وقال "أعلم يا صديقي، ولكن مافائدة نهاية عظيمة على حساب أرواح الناس الذين أوصولك الى هذه النهاية؟ فإني لن أكون كالملوك يُخلد اسمهم في التأريخ، على اسماءٍ عَبَّدت الطريق لهم وتناساهم التأريخ، فهل يجب أن أقوم بما قام به جلجميش وأترك صديقي الى الموت، وأعيش أبد الدهر ملوما مدحورا؟ إني علمت بأن الاعمال العظيمة ليست هي التي تدفع بعجلة الحياة الجميلة للاستمرار، ولكن هي الاعمال اليومية الصغيرة، كإماطة الاذى عن الطريق، وإعطاء الاجير حقه قبل أن يجف عرقه، وإطعام الطعام على حبه يتيماً ومسيكناً وأسيرا، وبر الوالدين، والحلم عند الغضب، وإداء الامانة، والابتعاد عن الشكوى والنميمة والكسل، وعدم التقاعس بالاعتماد على غيرنا، وحب الاخرين وحب مالهم مهما كانوا كما أحب لنفسي" فتبسم العارف، وأنتزع قلادته التي كانت تحمل حجر الفلاسفة وماء الحياة في داخله، واعطاها لليعسوب.

"سأعلمك كيف تجد العلاج،تجده بطريقة إستحضار الارواح" يقول اليعسوب.

"ماذا؟!" ينهض العارف من كرسيه ويقول بنبرة غاضبة "هل أتيتني بكلام عبدالله الحظرد؟ وكتاب العزيف؟ أنا أريد علاجاً لزال!".

"أعلم، وسأعلمك من هذا الكتاب لتستحضر أرواح الناس وتخاطبهم، وتتعلم من علمهم الذي لم يكتبوه، لربما تجد العلاج عندهم".

"خرافات" يرد العارف غضباً.

"الان أصبحت لا تؤمن بالخرافات؟ هل نسيت المارد؟ هل نسيت كيف صفدت الملك العظيم وجعلته تحت إمرتك؟" يقول اليعسوب بكل هدوء.

فنشفت شفتا العارف وبدأت يداه ترتجف، ووجهه بالتعرق، وشعلة الشموع بالتراقص من غير هبوب ريح، وفتح عيناه وهما حمراوتين تقدح ناراً، وأشتد غضبه وإحتدم غيظه، لكن غضب الخيل على اللجم، وقال بصوت هادئ وغير مبالٍ "هات ماعندك".

"يجب أولاً، أن تفهم مفهوم الروح يا عزيزي" يقول اليعسوب "أنظر الى شعر ابن سينا في الروح حينما قال "

هَبطت عليك من المكان الأرفع ... ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنعِ
محجوبةٍ عن كلِّ مقلة ناظرٍ ... وهي التي سفرت ولم تتبرقعِ
وصلت على كرهٍ إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات توجُّع
أنفت وما أنست ولما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا حصلت بهاء ثبوتها ... في ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المنازل والطلوع الخضَّع
تبكي إذا ذكرت عهودا بالحمى ... بمدامعٍ تهمي ولما تقلع
وتظلُّ ساجعة على الدمن التي ... درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشكل الكثيف وصدها ... نقصٌ عن الأوج الفسيح الأرفع
وغدت مفارقةٌ لكل مخلِّفٍ ... عنها خليف الترب غير مشيِّع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ... ودنا الرحيل إلى العطاء الأوسع
سجعت وقد كُشف الغطاء فأبصرت ... ماليس يدرك بالعيون الهجَّع
وغدت تغرِّد فوق ذروة شاهقٍ ... والعلم يرفع قدر من لم يرفع

فلأي أمـرٍ أُهبـطت مـــن شاهـقٍ ... سامٍ إلى قصر الحضيض الأوضع
إن كـــان أهبطهـا الإلـــه لـحكمـةٍ ... طويت عن الغـــزِّ اللبيـــب الأروع
فهبـــوطهـــا لاشكَّ ضـــــربة لازبٍ ... لتعـــود ســـامعـةً لما لـــم تسمع
وتكـــون عـــــالمـةً بكـــلِّ خفيَّـــةٍ ... في العـــالمين وخرقهـا لم يـرقع
وهي التي قطع الزمـــــان طريقهـا ... حتى لقـــد غربت بعين المطلـع
فكأنهـــــا بـــــرقٌ تألَّـــق بـــالحمى ... ثمَّ انطوى فكـــــأنه لـم يـلمع"

كان العارف يستمع ويتذكر كل ما قرأه عن الروح من أفكار الفارابي، والكندي، والغزالي وغيرهم.

فأكمل اليعسوب قائلاً "فعلينا الان الولوج إلى داخلها، فكما يقول الراوندي: إن الحياة موجودة في كل ميت لان الموت ليس ضد الحياة بل هو آفة كلية معجزة عن الافعال الاختيارية غير منافية للعلم،بما ان الروح موجودة، فبقول ابن رشد ان كل ما موجود محسوس قابل للتغير والحركة فالروح هي صورته، والصورة تحمل معاني، كما يحمل جسم الانسان الشفرات الولادية والتكوينية التي يكتسبها الوليد من الوالد لتكون شكله او طبيعة دمه، فإن الصورة الروحية هي صورة مرسوم عليها أفكار وعلم صاحبها عندما كان جسدا قبل الموت ..." وإستمر الشرح لفترات طويلة، فعلّم اليعسوب العارف بخطوات إستحضار الارواح.

السمندر

"الافضل لهذه المهمة" يقولها زال للعارف، بعدما فتح عينيه أخيراً وانخفضت حرارته، وبدأ يستعيد وعيه، وينطق بعض الكلمات ويعود الى نومه، ويصحو تارة اخرى ويهذر في الكلام "تعال إيها الخناس وأحتضن مذربي"، "لا يا أمي لن أعود الى بني البشر" ، "غول"، "بيبرس" ، "معلم الساموراي"، "إن الحقيقة سوف تنتصر، وسيتم تدمير العالم القديم عن طريق اطلاق النار وخلق جديد[1]" يقولها والهزل[2] يؤذي مسامع العارف.

يسمع العارف هذر زال، ويقدم له علاجه، في قبو صغير في أحد المنازل مختبئين، وبعد أيام من بدأ العلاج نطق زال أول كلماته وهو بكامل وعيه "لم أعلم أن السعير بهذا القبح" مشيراً الى گريگرس ويبتسم.

فيبتسم گريگرس ويقول له "أهلا بك في عالم الاحياء يا صديقي".

فيبتسم زال ويقول للعارف "كم مكثنا هنا، وأين نحن؟".

"نحن في مراكش، في قبو فيه خندق صغير ينتهي عند بوابة البيمارستان".

"وكم مكثنا؟".

"لا عليك، كيف حالك؟".

"كم مكثنا يا عجوز؟".

"أربعة أشهر".

---

١ من كلام الاهورا مازدا في كتاب الزرادشتية المقدس الافيستا
٢ الهزل: صوت هذيان المريض

فينهض زال من فراشه، وكأنه معافى ولكن ترتسم على وجهه معاناة الالم في جسده "نحن متأخرون عن جدولنا" ثم يذهب ويَرتدي ملابس المهرب، فيدخل عليهم الطارق الملثم، فيتكلم مع زال بلغة لم يفهما گريگرس والعارف، وخرج الطارق الملثم هرعاً بعد لحظات.

"سنغادر بعد ساعة" يقول زال.

بعد أن خرج العارف وزال گريگرس والطارق متخفيين ليلاً، فلا يريدون ان يقبض عليهم جنود الخليفة، فإن الخليفة يظن إن العارف هو أحد أتباع خليفة الدولة المرينية أبو يحيى إبن عبد الحق في فاس، حيث كانت الحروب بين الدولتين كثيفة ومهلكة، فقام الخليفة عمر المترضى خليفة الموحدين في مراكش بوضع مال على رأس العارف الذي بات معروفاً بأسم ابن أبي البغدادي، ومعروف برفقة عبدٌ ضخم، أشقر الشعر، من شمال أوربا، من إسكندیناوة، كان الليل بارداً، والفوانيس تملئ الازقة والشوارع أنواراً، والجنود في كل مكان على قدم وساق، يبحثون عن العارف وخادمه، وما أشبه البارحة باليوم، فالعارف يودع البلاد وهو متخفي، متهمٌ بالالحاد، والزندقة، والخيانة، ومطلوب لدى الحاكم.

وبينما هم يتنقلون من زقاق الى زقاق بحيطةٍ وحذر، وبطرق غريبة وغير مفهومة من الطارق والمُهرّب، اللذان كانا يعملان سويةً من غير كلام، وكأن أحدهما يفهم الاخر عن بعد، يعبرون البيوت على سطوحها ويمرون من بين جدرانها، وبين الحين والحين، وزال يهم بتركهم إما لطعن أحد الجنود أو سرقة بعض الاشياء، فكأنه يريد أن يشحذ سكاكينه ويثقف طرقه في اللصوصية وقطع الطرق.

"الى أين يا زال؟" سأله العارف.

"إنتظروني هنا، فأني لم أقم بمغامرة منذ زمن، لدي أسم يجب الحفاظ عليه"يرد زال.

فأشر الطارق له بالرفض وقال گريگرس بصوت غاضب، يتمالك نفسه خشية أن يُكتشف أمرهم "وهل هذا وقت المغامرات، أنت مازلت جريحاً والسم يعييّك"

أجابه زال بحماس "حتى أنت يابروتس[1]! يجب أن أضع بصمتي في هذه المدينة سأجعلهم يتذكرون إسمي بغضب وسخرية".

"إتركه يا گريگرس" يقول العارف "سنذهب الى بوابة المدينة مع الطارق وسننتظرك هناك".

وصل الثلاثة عند بوابة المدينة، حيث قادهم الطارق إلى زقاق خلفي، لا يعلم به إلا اللصوص، يوصلهم هذا الزقاق الى خارج المدينة، ماراً من تحت أسوارها، وعندما كانوا يجلسون مختبئين تحت الاعشاب التي تحيط بالجدار الخارجي للمدينة، إنطلق صوت گريگرس الغاضب وكأنه يزئر "أين ذهب هذا المتهور؟".

"أخفض صوتك" وإذ بصوت زال ينادي "إيها الهمجي ستكشف أمرنا" يقول هذا بصوت مرتفع قليلاً، وهو في داخله يتمنى أن يُكتشف أمرهم كي يجني ثمار فكرته البهلوانية التي لم يطلّع عليها بعد العارف ومن معه، كان الملك قد وضع عند مداخل المدينة حراساً وجواسيس متنكرين بأزياء مختلفة، ليتسنى له امساك أي خيط يوصله للعارف ومن معه، وإذ بأحد المخبرين المتنكرين بزي فلاح، يسمع صوت گريگرس ويراه، فيعلم المخبر إنه هذا هو الهمجي من الشمال الذي مع الشخص المطلوب من قبل الخليفة، كونه من سكان الشمال وكان مميزاً ومعروفاً، فتوجه الفلاح صوب أحد الجنود في داخل المدينة وأخبره، وهنا بدأت الاصوات تتعالى، هذا العارف هو الهارب

---

١ حتى انت يابروتس : وهو مثل يضرب معناه (حتى انت معهم ضدي؟) راجع قصة يوليس قيصر

من حكم الملك، وأنقلب هدوء الليل الى أصوات يتناقلها العسكر من واحد الى اخر، إلى أن وصل الخبر الى رئيس العسكر في الخان الرئيسي المجاور للقصر، وهنا بدأت حيلة زال حين أطلقوا أجراس الانذار ليتجمع العسكر للخروج بمهمة القبض على الهاربين، وعندما بدأت الاجراس العملاقه المحيطة بأسوار القصر المتصلة ببعضها بحبال غليظة وعتلات كثيرة تسهل عملية إهتزازها، فاذا هي لا تصدر صوتاً ولا رنيناً، وكانها مجرد زهور عملاقة يلاعبها نسيم الليل.

أختفى العارف ومن معه بعيداً عن قبضة الجنود، وأطلق زال ضحكة عالية.

"ماذا فعلت؟" يسأل گريگرس.

"إنطلقت بين الازقة الضيقة والممرات الخلفية للمدينة، حتى وصلت الى القصر الملكي وخان العسكر المجاور له، وقمت بحشو الاجراس بأكوام من القطن والصوف لكي لا تصدر أصوات الانذار" ويستمر زال بقهقهته.

فقد ساعدتهم هذه الحيلة بكسب الوقت الجيد لحين إكتشاف هذه الحيلة وقرعت الاجراس وتجمع العسكر تلفهم عتمة الليل ولكن، ولات حين مناص، كان الاربعة قد واصلوا مسيرهم طول الليل مستفيدين من عتمته وبرودة هواءه متخذيه لباساً لهم، وبينما هم يواصلون سيرهم ليلاً ويستريحون نهاراً، حتى وصلوا الى ميناء أسفي.

راودت زال شكوك في عبور الماء في البحر المتوسط للوصول الى مدينة نابولي في إيطاليا، خائفاً أن يكون القبطان وقراصنته مختبئين تحت الماء متربصين بهم.

"اذاً مالعمل؟" سأل گريگرس.

"لقد قمت ببعض الترتيبات" يرد المهرب زال وكأنه عاد الى سابق عهده "كل ماعلينا هو الانتظار".

فجلس الاربعة على إحدى الصخور، يبللهم رذاذ الماء، ويستمعون لتلاطم الامواج، فأخرج زال ريشة من نار لاهبة، لا يحرقه لهيبها، فوضعها على قلبه، وبدأ يتمتم بعض الكلمات، وبعد دقائق معدودة، يرتعد الطارق وينهض على قدميه، وهو يرى ثعباناً مائياً أرقشاً، لديه أجنحه عملاقة أشبه بالزعانف، تحت الماء يتقدم صوبهم، يخرج المخلوق رأسه من الماء، عيناه من نار لا تنطفيء، وأسنانه متراصة كأنها جدار من حجر ابيض وحادة كنصل السيف، حراشفه أقوى من الفولاذ، يتوسط رأسه ثلاثة قرون، أحدها من ماء جامد، والثاني من حجر صلد، والثالث من هواء أثيري كأنه دوامة من هواء، فينحني زال، ويقدم للوحش الريشة، فيلتهم الوحش الريشة، فبدأت حراشفه بالتحرك مع قرع عالي، وتغيرت عيناه من النار الى ماء ثم الى حجر ثم الى هواء، ونفخ نفخة قوية وتكلم بصوت ملؤه شجو وحكمة "تبعث لك العنقاء بأشواقها إيها الامير، أنا السمندر، أنا أبن الارض والماء والنار والهواء، سأوصلكم الى بر الامان، لا يستطيع أحد من الاحياء او الاموات التعرض لي، فأني أقوى من جحافل الموت، وجيوش العفاريت وغفير الجن مجتمعة، أنا لا أخالط البشر، ولكن ستركبون على ظهري وستكونون بحمايتي".

فتقرب العارف من المخلوق العظيم، ووضع يده على مقدمة رأسه، وكأنه يتواصل معه من غير كلام وهو مغلق عينيه، ثم يفتح العارف يده ويبتسم، ويقول "إنك جميل، فإنك الارض، وإنك عارفها".

فأنحنى مخلوق الارض الى العارف مبتسماً، فقد تواصل الاثنين بعقليهما وروحيهما فالارواح منبعها واحد، والافكار تتراص بإتقان تحت ينبوع الحكمة والعلم، فمد السمندر ظهره وجلس على ظهره كل من العارف وزال وكلهم ثقة، أما گريگرس، فكان الخوف يعتمره، ولكن لا خيار له فصعد على ظهره، وودعهم الطارق عائداً الى صحرائه، فرفرف عارف الارض بزعانفه كالاجنحة وأنطلق بسرعة قصوى تارة على سطح الماء، وتارة يقفز

محلقاً وكأنه يتراقص مع نفسه، والثلاثة على ظهره متمسكين بقوة، فأحدهم أغمض عينيه، والثاني يضحك بصوت عال، والعارفان يتسامران، وعند الابحار لاحت لهم سفينة القراصنة من بعيد تهاب الاقتراب منهم، فالسمندر يحميهم، حتى وصلوا الى مدينة باليرموا بعد ساعات قليلة بمأمن من القرصان ، ونزل زال عن ظهر السمندر، وقال لهم "سألقاكم في أسيسي".

فأنطلق عارف الارض تارة أخرى يحمل گريگرس والعارف على ظهره، حتى وصلوا الى ميناء نابولي، وودع العارف السمندر، فتقدم الاثنان الى المدينة متخفين في الليل، كان گريگرس، يمتع ناظريه بالفن الايطالي وعمارته، فكل شيء في هذه المدينة جميل، من تماثيلها وعمرانها المختلف كل الاختلاف عن عمران العرب، فكل ما قيل عن هذه المدينة العريقة، التي بناها حفيد الخليل، عظيمة بكل نواحيها، فما سمعه عنها لا يصفها حق وصفها.

فوصلا الى بوابة أحد المنازل، وهي بوابة ذو درفتين، فتمتم العارف بكلمات وأشر العارف الى الباب بأشارة من يده، ففتحت الباب من تلقاء نفسها، فدخلا من خلالها، وتوجها الى أعلى السلم، ودخلا الى غرفة، كانت الغرفة عبارة عن مكتبة شخصية، تنيرها أضواء الشموع في الثريا، وكان هنالك رجل يجلس على مكتب مصنوع من خشب الابنوس،منكب على أوراقه، يلبس عباءة سوداء، ويبدو على وجهه النعاس.

"توما" قال العارف.

ففزع الشخص، وقال بصوت هادئ "من هناك؟".

فخرج العارف من الظلمة الى منتصف الغرفة، وكان وجهه كما قال زال، يسطع سنا الاهورا مازدا.

فيهدأ روع توما ويقول "العارف، أخيراً أنت هنا، دائما في الوقت الصحيح على عادتك، لقد وصلتني رسالتك، كم حزين على فراق فريدريك الثاني، اولاً فيبوناتشي[1] يموت، وبعدها فريدرك، الاشياء الجميلة تعود الى من أعطاها جمالها بسرعة" قال توما "إن لدي كثير من الاسئلة، وقد كتبت الرسالة التي طلبتها مني عن الخطايا السبع" ثم يتوقف عن الكلام وينتبه الى صحبة العارف ويقول "اه يا حماقتي! تفضلا بالجلوس، هذه مائدة اكل وشرب، خذا راحتكما، فأنتما الان في منزل توما الاكويني".

---

١ Leonardo Fibonacci أعظم علماء الرياضيات في القرن الثالث عشر في اوربا

الهراطقة

"إن الحجة التي تستند إلى اقوال الغير أوهن الحجج" يقول توما الاكويني في خضم إحدى النقاشات، وهو يجلس في احدى قاعات منزله الفخم التي تعود الى أبويه، أرضيتها من الرخام المصقول، جدرانها مزخرفة معلقة عليها قناديل، ومزينة بسجادات منقوش عليها الام السيد المسيح وغيرها من ما يتعلق بالديانة المسيحية وملائكة الشاروبيم والصاروفيم، كان جالساً بحلقة دائرية حيث يجلس فيها أيضاً كل من البيرت الكبير[١]، وبونافنتورا[٢]، وسيجر البراباني[٣]، ويوحنا الساكروبوسكي[٤]، وفنسنت البورغندي[٥]، وجون بيكام[٦]، وهنري الغنتي[٧]، ورامون لول[٨]، وبيير الباري[٩]، وألشيد[١٠]، وجيرارد الابي[١١]، وبطرس الايرلندي[١٢]، والشابان كونارد الاسكولي[١٣]،و ويتلو[١٤]، ويعقوب الفوريني[١٥]، والقديسة سيثا[١٦].

وتستمر النقاشات المهمة، بين هؤلاء، كلهم يخبرون العارف بأفكارهم تارة، ومصغين لأفكار العارف تارة أخرى، كان النقاش محتدماً بين الكل إذ كل له أراؤه، والكل يحترم

---

١ Albertus Magnus
٢ Bonaventure
٣ Siger of Brabant
٤ Johannes de Sacrobosco
٥ Vincent of Beauvais
٦ John Peckham
٧ Henry of Ghent
٨ Ramon Llull
٩ Pierre de Bar
١٠ Altheides
١١ Gerard of Abbeville
١٢ Petrus de Ibernia
١٣ Conard of Ascoli
١٤ Witelo
١٥ Jacobus de Voragine
١٦ Saint Zita

ألآراء الاخرى، ولكن الشابان ويتلو، وكونارد الاسكولي كانا يجلسان جنب العارف، لا يشاركان في النقاش، بل يستمعون كطالبين، ويسألون العارف بهدوء ويجيبهم.

لقد قام توما الاكويني بدعوة هؤلاء العلماء واللاهوتيين والفلاسفة والمفكرين، ولقد حضّر لهذه المقابلة عندما بعث العارف له برسالة عندما كان في جزيرة سارك بعد سماع خبر وفاة فريدرك الثاني.

عندما كانوا جالسين في هذا الاجتماع الذي بدء صباح اليوم الثاني من وصول كل من العارف وگريگرس الى نابولي، كان العارف يعرف بعضهم، فلقد كان هو والبرت الكبير أستاذين في باريس قبل أن يخرج منها ويذهب الى إنجلترا بأستدعاء من روجر باكون لجعل أكسفورد جامعة ناطقة باللغة الانجيليزية، والبعض الاخر يعرفهم عن طريق رحلاته أو رسائله معهم.

بعد مرور أيام عندما كانوا في فترة راحة، بعد غداء جيد ووفير، كان العارف يجلس بعيدا يقرأ "إنتصارات الكنيسة[١]" مع برونيتو اللاتيني[٢] يقرأونها ويتمتعون بها، وبعد الانتهاء منها، أخرج العارف كتاباً من حقيبته، وأعطاه الى اللاتيني، ففتح اللاتيني الكتاب، وقرأ العنوان، فاعتمرته غبطة، وبدأ بالقفز، وقال "إنها رسالة الغفران مع رسالة ابن القارح مترجمة للغة اللاتينية والايطالية المعاصرة، إنها كنز".

"جيد" أتى صوت من نهاية القاعة، فيدخل توما ووجهه موجوم "أنت تجلب هذا، وإنوستنت الرابع أصدر أمراً، مفاده السماح بأستعمال التعذيب لأنتزاع الاعترافات من المهرطقين[٣]".

---

١ De triumphis ecclesiae وهي قصيدة ملحمية كتبت عام ال ١٢٥٠ من قبل Johannes de Garlandia

٢ Brunetto Latini

٣ Ad extirpanda: وهي الاوامر التي أسنها إينوسنت الرابع لتسمح بتعذيب المهرطقين

"حان الوقت للدخول في عصور مظلمة" يقول جيرارد الابي حزيناً.

وبعد شهرين بدأت النقاشات تغلق أبوابها، فبدأ الفلاسفة والعلماء واللاهوتيين بتحضير وجهاتهم الثانية حسب ما يرى العارف مناسباً، الاغلب منهم سيذهب الى باريس، فسأل توما العارف "والى اين انت ذاهب؟".

"سأذهب الى أسيسي[1]" يرد العارف.

فينطلق العارف وگريگرس الذي بدأ يضيق ذرعاً بالجلوس دون القيام بشيء، وكان برفقتهما كل من الشابان ويتلو، وكونارد، وكانت أسئلتهما كثيرة، ولم يجب على أي منها العارف، بل ضل منصتا لكل الاسئلة، ثم من بعدها أجابهم، وهم جالسون في إحدى الحانات في الطريق إلى اسيسي.

"إن الديانة المسيحية، وأكرر، الديانة وليست الدين المسيحي في هذه القرون تمر بالمرحلة الفلسفية، وذلك بسبب توسع إنتشار المسيحية ووصولها الى مناطق عدة، وتعرضت لمواجهة ديانة أخرى توازي ديانتهم بالعظمة والتوسع، وكانت لهذه الديانة رجال كإبن سينا، والكندي، والفارابي، وإبن رشد، وهنالك أيضاً إستمرار النزعة الى الدين القديم في بعض المناطق التي أصبحت تحت سيطرة الديانة المسيحية، كما كانت أغلب المناطق تحت حكم الديانة المسلمة، كل يجتزء من المصدر، وكل لديهم أفكار مغايرة عن الافكار التي سُيسَت لصالح الحكام، واصبحت هذه السياسة هي الديانة وإحتلت مكان الدين، فعندما يأتي رجال ونساء يحاولون الرجوع أو تثقيف هذه السياسة أو الديانة لشيء إما يواكب الحياة أو إما يطورها، سيتهم هؤلاء المتجددون، أو الاصوليون بالزنادقة، أو بالهراطقة حسب الدين، إن الديانة المسيحية تتكون من ثلاث قوى، هي الكنيسة، والملوك في أصقاع ديانتها، ومفكريها، فهنالك المشككون، والماديون،

والاحديون الذي يؤمنون بوحدة الوجود كما يؤمن بها إخوان الصفا وغيرهم، والملحدون الذين خرجوا عن ديانة الكنيسة، بديانة مؤمنة بنفس المبدأ، ملحدة الى ديانة أخرى تحت الدين ذاته، كالذين ينكرون تحول العشاء الرباني الى جسد المسيح، وأخيراً وليس أخراً الكفار، وبالتأكيد كلنا كفار لغيرنا، فالجرمانيون كفار بالدين المسيحي، والدين المسيحي كافر بالبراهميين، والبراهميين كفار بالبوذية، فضلاً عن ذلك، إزدهار التفكير الديني الحر الذي سمح به فريدرك الثاني، وأيضاً عملية التجارة، ورأس المال الكبيرة التي يجب أن تبني إمبراطورياتها الخاصة، بعيداً عن أخلاق الديانات ومصالحها، هذه كله دعى الكنيسة إلى أن تقبل أخيراً بسماح المفكرين المسيح لتكوين فلسفة مسيحية توازي، وتنافس فلسفة المفكرين، أو الفلاسفة من الاديان، أو الديانات الاخرى.

فتقسمت فلسفة الديانة المسيحية الى ثلاث، الافلاطونية، والارسطوية، والرشدية، كلها تحارب لنفس الشيء، إيجاد الحقيقة، وكما قُلت لزنادقة المسلمين كما يتهمونهم عندما كنت مجتمعاً معهم، بأني أجد إن كل أرائهم صحيحة، فإني أرى أن أراء هؤلاء صحيحة، وكلها لها دعائمها وأساسياتها، فالمفكر في وقتنا هذا يبني حياته على ثلاث مصادر، الاولى هي ديانته، والثانية هي الفلسفة الافلاطونية او الارسطوية، والثالثة هي عادات مجتمعه، لربما النزر من الناس من أتى بشيء أكثر من هذا في التأريخ" يرتشف العارف الماء، وهو جالس على الطاولة في الحانة، ويتحدث مع الطالبين اللذين ينصتان بتلهف، وگريگرس واقفاً عند الباب مستنداً عليها، أذنٌ تسمع ماذا يجري في الحانة وأذن تسمع مايقوله العارف.

---

١ Assisi مدينة في أيطاليا

"هنالك ثلاث مدارس كما أشرنا" يقول العارف مكملاً كلامه "الرشدية، ولربما أحسن من يعبر عنها ويدافع عن أسبارها، هو سيجر البراباني، حيث تكونت الرشدية، وهي اراء ابن رشد هي نفسها اراء الطبقات المتعلمة من غير رجال الدين في إيطاليا وفرنسا، بإن القانون الطبيعي يحكم العالم دون تدخل من قبل الله، وإن المعجزات مستحيلة، وإن الصلاة لا تستطيع تغيير مسلك العناصر، وإن العالم مخلد كالله، وإنه لا يوجد الا نفس واحدة خالدة هي عقل الكون الفعال، وإن الجنة والنار قصص أخترعت لتغري العامة أو ترهبهم، فتحسن من سلوكهم، أما النظرة الافلاطونية، فهي التي يلجأ لها الفرنسيسكان، فهم بنظرهم إن كل شيء يبدأ ويعود الى العقائد اللاهوتية، التي بدأها القديس اوغسطينوس، وحامي هذه النظرة، هو أعز صديق، وألد عدو لتوما الاكويني، وهو الرجل السمح، الدمث الاخلاق بونافنتورا، فهو يدعوا الى الايمان وثباته اولاً، ثم التفكير وصفو العقل بالفلسفة، كي نصل الى عذوبة المشاهدة، فهو لا يعتقد بأن الفلسفة هي ثمرة فضول لبلوغ الاشياء في ذاتها، وإنما ثمرة نزوع ديني، فهو يدعو بالاشراق الداخلي، أي المعرفة النفسية هي نفسها معرفة الله بغير الوصول الى الالوهية، فهو يقول إن تجريبية أرسطو لا تصح الا في معرفة العالم المحسوس، أما متى دار الامر حول المبادئ والفضائل والخليقة والله فإن المعرفة تأتي من اللاهوت، فإن الوجود ليس هو على وجه التعيين معاينة الله، ولا رؤية المعاني والعقول الازلية في الله، فمعنى الوجود أشبه بإطار نجاهد لتطبيقه على ماهيات ما هي بحاوية أصلا لذلك المعنى، ولا تحتمل لهذا السبب أن تكون موضوعا لعلم يقيني وتام، كانت هذه النظرة تضع الايمان قبل كل شيء، وهي نظرة جميلة حتى بدأت السياسة تطبقها بالقوة على العامة من الناس، إن نظرة لاهوتي فيلسوف، كريم الصفات، طيب الاخلاق، حسن المعاملة، سلت سخيمته بالحلم، يدعو الى السلام والحب كحب المسيح وسلامه، ويقول بأن الخير أسمى من الحقيقة، تحولت الى فلسفة سياسية تأمر بها السياسات الموجودة لمنع الناس من التفكير، وإنما

فقط السير بالايمان المطلق بديانات معينة، أما الدومنيكان، فيمكن القول إن لها فارسان نبيلان، هما البيرت الكبير وتوما الاكويني، كان البيرت يترجم ويأخذ من المصادر اليونانية والعربية، ويضعها ويدرسها كما هي، وكان أحد طلابه وكان طالبي ايضاً، توما الاكويني الذي كان فذاً، وذكياً منذ صغره، فكان يغور في أعماق الكلام والفكر، ويُكون فكره مما يقرأ بطريقة محدثة، توازي لربما النضوج الفكري عند العرب، فلولا ألبرت لما كان توما، فكان توما أرسطوي، يتبع أسلوب أرسطو، فالعقل اولاً، ثم اللاهوت ثانياً، فاللاهوت له خصائصه، والعقل له السماح بالولوج الى الحقائق وكنهها، فهو يقول إن الحقيقة لا تناقض الحقيقة، فإن الحقيقة الفلسفية مطابقة للحقيقة اللاهوتية، واذا أختلفتا إذن حقيقة العقل هي الخاطئة، فاذاً كان توما الاكويني هو الوسط بين القطبين، فالقطب الرشدي لا يفهمه الا القليل ويكفره الكثير، الذين يعتقدون إن الانسان يجب أن يفكر بعيداً عن إطار سياسات او ديانات معينة، وكان قطب بونافتورا والفرنسسيكان الذي منهم يوحنا بكهام، وهينري الغيتي، وغيرهم ممن كانوا جالسين معنا، هم القطب الذي يلجأ له العامة من الناس، الذين لا يحبون التفكير وإنما الاتباع كالقطيع، وهم الاغلبية التي لا تقرأ ولاتعلم لا الفكر ولا اللاهوت، فشوهوا أفكار اشخاص عظماء، وكان هذا الموقف الدومنيكاني لتوما الاكويني مشكلة، فاصبح هو مهرطقاً من جهتين، يجمع العقل من الرشدية الارسطوية واللاهوتية من الفرنسسيكان الصوفية الافلاطونية، فتوما جمع الاثنين، ويقول إذا كان العقل يستمد كل معلوماته الطبيعية من الحواس فأن معرفته المباشرة للأشياء مقصورة على عالم الحس وليس في مقدوره معرفة الطريق فوق المحسوس، فكان كل الفلاسفة يبحثون عن الله، وقلّ وندر من بحث عن الانسان، ويعلل توما بإن الله هو الوجود نفسه، فإذن نحن جزء من الوجود إذن من علِم الكل علَم الفرد منه، ولكن توما هنا أتى بشيء لربما يكون جديداً جداً على مسامع الفلاسفة والمفكرين إلا عند اليهود، فإبن ميمون قد سبقه، فهو مؤمن بالله والمسيح واللاهوت،

يؤمن بالعقل ولكن هو لاادري في ماهية الله، فلم يذهب كما ذهب قبله افلاطون وارسطو، وإبن سينا، والفارابي، وابن رشد، بل قال لا نستطيع معرفة ماهو الله، بل نعرف فقط ما لايمكن أن يكونه، وهنا يأتي دور شيء جوهري، آمن المسلمون به فترة وجيزة ثم إنسلخوا عنه، عندما أعاد توما فكرة إن الحقيقة ليست ذكر او أنثى أو عدد، فالاقانيم[1] الموجودة غير معلومة، هي واحدة متعددة، ولهذا يقول للناس إنها لشيء غامض، وعندما يكمن الغموض في شي فالايمان طريق أسلم حتى لاتبدو العقيدة بأنها قائمة على أسانيد منطقية جوفاء، بالرغم من إن توما نفسه عندما يخلو لنفسه تراه مقتنعاً بالتنجيم الذي هو الغموض، ويذهب الى استقصاء النفس كذلك".

"وماذا تقول انت؟" يسأل ويتلو.

"لو كنت أعلم، لما كنت اتجول في الارض، إتخذ طائفة واحدة كأنما يأكل طعاماً واحداً".

"سيدي" يسأل گريگرس بصوت منخفض، بعيداً عن الطالبين "لماذا لم تجب السؤال، كما أجبت السؤال عندما كنت في حظرة الزنادقة".

"إذا كنت تذكر يا عزيزي، بإني عندما أجبت السؤال في حضرة الزنادقة، قلت بإن ما أعلمه لا يشفي جروح عقلي المتقرحة، فلم أحب أن أعطي جواباً لشابٍ يتعلم، فلربما يأخذ من علمي، وأنا لست واثقاً بهذا العلم".

---

١ الاقانيم: او الاقنوم وهو جوهر الشيء او أصله وعند فلسفة أفلوطين هي احد مبادئ العلم الثلاثة الاولى وهي : الواحد و العقل و النفس الكلية

ابن رشد

وصل العارف، وگريگرس، والشابان الى آسيسي، عند مقر جمعية النساء الفقيرات، وأستقبلتهم بكل حب، وحفاوة، القديسة كلير الاسيسي[١]، إمرأة شماء في نهاية عقدها الخامس، تلبس لباس القديسات الكاثوليكي، يشع وجهها سماحة، ومُسكة، وهدأة.

"مازلتي جميلة يا عزيزتي كلير" يقول العارف وكأنه يتكلم مع طفلة كان يعرفها منذ زمن قديم.

"عزيزي" ونظرت الى الناس الواقفين حولهما وقالت "مر زمن طويل على مجيئك هنا منذ وفاة فرنسيس، مازلت أتذكر كيف أتيت لاول مرة وتقول لي: يجب أن أكتب القانون، ولا يوقفني شيء حتى إن كنت إمرأة".

"ياعزيزتي، تعلمين اني أحب أن أقوم بزيارتكِ، ولكن! العالِم لا يشبع، فكل يوم شيء جديد، انا الان هنا" " وتبسم لها "تبعث لكي بياتريس النزارية[٢] أجمل ما في قلبها من تحية" يكمل العارف.

فجلسوا على مائدة طعام، لا يوجد عليها الا الخبز والماء، حتى أتى رجل ممتلئ، بطيء الحركة، شعره قد تساقط، يلبس لباس النائب العام لاخوية الفرنسيسكان، يصيح بصوت عالٍ، متوجه الى العارف ويحتضنه "لقد علمت بأنك لن تتأخر، وإنك لن تبعث بالخرائط فقط، يجب أن تراها، ستكون شيئاً لم يسبق أن وجد في إيطاليا قاطبة ،ولربما في أوربا أجمع".

---

١ Clare of Assisi

٢ Beatrice of Nazareth

"كيف حالك يا عزيزي إلياس الكورتوني[1]؟" يقول العارف ووجه تعمره غبطة كبيرة.

"كبير، سمين، ولا اريد الموت قبل أن أنجز الباسيليكا" يقول النائب العام.

"هيا بنا اذاً، لنرى حاضِرتك العمرانية" يقول العارف، وينطلق العارف وگريگرس، والنائب العام، ويبقى الشابان يتعلمان من كلير بعضٍ من علمها وإيمانها، وكيف استطاعت بكتابة اول قانون رهباني توافق عليه البابوية كُتب عن طريق أمرأة، حيث لم تكن الكنيسة تقبل بهذا من قبلها.

إستغرق العارف وگريگرس أشهر في اسيسي، يساهمون في وضع التشطيبات الاخيرة لأجمل ماقام به المعمار الكنائسي في ذلك الوقت، فهي تجمع بين البناء الروماني والقوطي، إذ لم يكن لهذا سابق في إيطاليا، وفي احد الايام قدم شخصان يمتطيان صهوتا جواديهما الاندلسيين، وخلفهما عربة تجرها خيول، وبغال، وحاشية من الخدم، والخادمات.

"هل هذا مادفعنا المال من أجله؟" يقول الخيّال الاول.

"نعم، إنه جميل، سيقوم إنوسنت بتكريمنا لا شك" يقول الخيّال الثاني.

"أين النائب العام؟" ينادي الاول.

"نعم ياسيد أورلاندو، أنا هنا" ينزل النائب العام من أعلى السلم إذ كان واقفاً مع العارف.

"أتمنى أن تتقبل زيارتنا أنا وأخي بونيفازيو المفاجأة لك، ولكنا نريد أن نشهد إفتتاح الباسيليكا".

---

[1] Elias of Cortona

"بالطبع بالطبع، إن عائلة البونزينوري[1]، مُرّحب بهم في أي وقت" وينادي النائب الى خادمه ويعطيه الاوامر بأجراء اللازم لاستقبال الضيوف.

وفي تلك الاثناء ينزل من العربة شاب ينظر الى العارف الواقف على سطح السقالة، يلبس لباس العمال مع گريگرس الذي كان يتمتع بالعمل، فنظر العارف الى الشاب، ورفع حاجباً ووجهه مشدوه.

"ماذا هناك؟" يسأل گريگرس العارف.

"هذا الشاب هو فرج بن سالم!" يرد العارف.

"وماذا في ذالك؟".

"لقد قلت لزال أن يرافقه عندما يأتي الى هنا!".

"لربما كان زال منغمساً بأعماله، وبعثه هنا لوحده، مع هؤلاء الاشخاص".

فكان وجه العارف ينظر بتمعن الى الجمع الذي جاء بلباس النبلاء، وخيول أصيلة، وعربات الطبقات العليا، من التجار، ودافعي الضرائب، وقال "لا!" ويهز برأسه ضاحكاً "إن زال هنا".

"ماذا؟ اين؟" يسأل گريگرس.

"أنه هنالك، الجالس على أحد الخيول، إسمه بونيفازيو" يشير العارف.

"بحق كلام الرزم المقدس!" يندهش گريگرس "أنه هو! هذا الهتر!".

---

١ Orlando Bonsigonri

وبعد أن ذهب زال ومن معه، بأسمه الجديد، وشخصيته الجديدة، وحلت السدفة، كان العارف يجلس في غرفته يقرأ كتاباً تحت ضوء الشمعة، وگريگرس معه في الغرفة مستنداً كعادته على الباب، فسمع المحارب الضخم طرقاً خفيفاً على الباب.

"من هناك؟" يسأل گريگرس.

"أبوك، يا لقيط!" يأتي صوت قوي من خلف الباب.

فبُهِت گريگرس، وفتح الباب، وإذ بزال واقف عند الباب، يضحك بجخجخة، فقبض گريگرس على تلابيبه، ورجمه على الحائط الداخلي لغرفتهم، فيسقط زال على الارض ومازال مستمراً بالضحك.

"أرى إنك في مزاج من تسنيم" يقول العارف.

"بالطبع وكيف لا؟" يرد زال، ويجلس على الفراش، يتنفس أخر هأهأاته "حسنا! لقد ذهبت الى صقلية، وقمت بما أمرتني به، وأكثر" فكشر عن أسنانه "مما إضطرني الى أن أقوم بعمل شي يسهل قفولي الى هنا، فأتصلت بشريكي أورلاندو البوزينوري، الذي يعرفني العالم بأني أخاه، نحن نملك أموال جمة هنا، وندفع ضرائب لإينوسنت الرابع، مما يتيح لنا القيام بما نريد".

"وكيف أقنعته بالقدوم الى هنا؟" يسأل گريگرس.

"نحن نمول بناء هذه القطعة المعمارية المبجلة يا صديقي" يرد زال.

"وانا كنت أتساءل، كيف إستطاع إلياس الكورتوني ببنائها بهذه السرعة" يقول العارف.

"أنت أردت القدوم الى إيطاليا في هذا الوقت، فكان علي أن أمول هذه الباسيليكا، كي تنتهي منها ونغادر قبل عودة إيوستاس".

"هل أحضرت ما أريد؟" يسأل العارف.

"ساعدني يا إيها الهمجي".

فيساعد گريگرس زال على إخراج قرص فضي، يبلغ وزنه تقريبا مئة وثلاثين كيلوغراماً، من تحت فرشة السرير، ويخرج زال أيضاً كتاب ضخم، فيه ألف وسبعون خريطة، منقوش عليه – نزهة المشتاق في اختراق الافاق.

"ما هذا؟" يسأل گريگرس مستغرباً.

"هذا كتاب رودجر يا صديقي، يحتوي على كل خرائط الادريسي، وهذه الدائرة الفضية هي خريطة الادريس، التي رسمها عندما كان يعيش مع روجر، ملك صقلية" يقول زال مبتسماً "جميل أن يرى الشخص نتاج أعماله".

"ماذا تقصد؟" يسأل گريگرس.

"إعتَقد العالم إن هذه الخريطة قد دمُرت، ولكني قد قمت بسرقتها من أحد المخابئ السرية لجمعية الفرسان الإسبتارية[1]" فضحك زال "البابا إنوسينت الرابع جن جنونه، فعاقب الفرسان بلباس حتى يعيق حركتهم في المعركة، ولهذا لم يستطع الفرسان منذ معركة أرسوف[2] لحد الان يقوموا بشيء قوي ضد قوى المسلمين في المقدس، وإني حينما أنظر لهذه الخريطة يملئني حبور، كانت أول مهمة لي" يبتسم بخبث.

"أول مهمة؟ ولكن هذه مهمة كؤود، لشخص يقوم بمهمة أول مرة" يسأل العارف.

---

١ Knights Hospitaller جماعة دينية صليبية سرية محاربة ساهمت بشكل بارز في الحروب الصليبية

٢ Battle of Arsuf

"إن رابطة الاسرار الميثرانية[1]، تبعث بمبتدئيها بمهمات لا يعود منها أحد، هذا مايفعلونه".

فبُهت گريگرس، وقال "إذاً أنت ميت بالنسبة لهم؟".

"نعم".

"إذن انت لست من الحشاشين؟" يسئل گريگرس.

"هم يعتقدون إني واحد منهم" فيهز زال برأسه، ويقول بسخرية "والان علي أن أقتلكم" وضحك مرة اخرى.

"من أنت؟".

"أنا ابن العنقاء، أنا ألامير القصير، أنا من رفضني أبي، لأني لست من هذا العالم، فإخترت أن أكون مهرباً للمغامرة، وتاجراً للغنى، وحشاشاً لتسيير العالم".

فسكت گريگرس، الذي لا يعلم شيء مما يقوم به زال، فهو اللص، التاجر، الحشاش، الجندي المجهول، إبن الظلام، فهو سر كبير، فيقول له "إذا انت سرقتها منذ زمن، فكيف لها أن تكون في نفس المكان؟"

"عندما سرقتها، لم أستطيع الخروج من هناك، لان الوضع كان متأزماً جداً، وكان رأسي هو أهم شيء بالنسبة للجنود والبابا، فخبأتها، وهربت من هناك، وأخبرت العارف عنها، وقال لي إن وقتها سيحين".

"لا بأس بك" يقول گريگرس بخبث.

فينهض وينحني زال لتقييم صديقه، ويتوجه نحو الباب، ويسأل العارف "متى سنغادر؟".

---

[1] Mithraic Mysteries جمعية سرية زرادشتية دينية غامضة انتشرت في الامبراطورية الرومانية

"متى يعود إنوسنت الى روما؟" يسأل العارف

"أنه في طريق العودة، فقد أخضع صقلية، وانتهى عمله".

"اذاً سنعود بعد إفتتاح الباسيليكا" يختم العارف الناقش.

"وماذا سنفعل بهذه الخريطة الثقيلة؟" يسئل گريگرس.

فلم يجب العارف وكان غارقاً في الافكار، ثم نظر الى گريگرس وقال "لا أعلم، لم يعد العالم الذي يتكلم اللغة العربية، بمهتم لهذه الاشياء، سأتركها بعهدة الشابين، لينتفعوا من علمها".

"الا ترى ان هذا عمل لا يليق بشيء بهذه الاهمية؟" يتساءل زال.

"نعم، ولكن لا يوجد لدي حل آخر، فهي ثقيلة ولن نستطيع حملها معنا".

"حسناً" يقول زال ويخرج من الغرفة مغلاقاً الباب ورائه.

كانت أوقات الاسابيع تتقسم على قسمين، قسم البناء، وقسم الطب والعلوم، حيث كان العارف يجتمع بكل من كلير الاسيسية، وفرج بن سالم، وثيودور البورگنوني[١].

كان گريگرس مازال يسهم في البناء، ويستمع لحديث كلير، عند وقت القداس، وكلام العارف مع الاطباء والشابان اللذان رافقاهما من نابولي، وزال يمارس دور الاخ التاجر، بطريقة مثالية ويقوم بالاعمال التجارية.

وفي إحدى الجلسات، يبدو أن جرح زال فاء عليه تارة أخرى، وكانت القديسات ترعاه مراعاة جيدة، وكان العارف يعوز هذه الحمى التي أصابته الى الحصانة التي أكتسبها زال

١ Theodoric Borgognoni

من سم القراصنة، وكان كل من الشابين يتعلمان الطبابة، والطب مع ثيودور، وفرج على يد العارف، وكان زال خير سقيم لشرح الامراض، فكان العارف يشرح لهم من الطب والطبابة لجالينوس، وكيف طورها العرب من ابن البيطار، وغيره من الاطباء، وفي احدى الايام سأل زال العارف عن كيفية إيجاد علاجه.

"إستحضار الارواح" يرد العارف بكل هدوء.

"حسناً لا اريد ان اعرف كيف، ولكن أي روح استحضرت؟" يسأل زال.

"بعدما خرجت من اليعسوب، توجهت الى قبر ابن طفيل، وأستحضرت روحه، وتكلمت معه، فأعطاني كثير من الدلائل والاوصاف، وقال لي بأن أذهب الى ابن رشد، فهو من سيعينني في إيجاد علاج لك".

"ابن رشد فيلسوف يا أيها العجوز" يقول زال متهكماً.

فتبسم العارف، وقبل أن يبدأ بالكلام سأله زال ويتلو "هل لك أن تحكي قصة إبن رشد من البداية، قبل أن تذكر لنا كيف ساعدك في إيجاد العلاج؟".

حتى تستطيع فهم ابن رشد، عليك ان تعلم اولاً من هما ابن باجة وابن طفيل، فابن باجة كان طبيباً، وفيلسوفاً، وموسيقياً، وشاعراً، ففي كتابه تدبير المتوحد، وصف مختلف الاحوال، والمراتب التي ينبغي أن يمر بها الانسان المتوحد، ليصل بمعزل عن كل تأثير اجتماعي الى الاتحاد بالعقل الفعال، قال في كتابه مرشد الحيران، إن العقل البشري يتكون من جزأين: العقل المادي الذي يموت مع موت الانسان، والعقل الفعّال، الذي هو أزلي يتشارك به الناس أجمع ولايموت، والتفكير هو أسمى وظائف الانسان، وبالتفكير وحده لا بالنشوة الصوفية يصل الانسان الى معرفة العقل الفعال، وهو الله، والتفكير مغامرة خطيرة، إلا إذا كانت في صمت.

وواصل ابن طفيل أفكار ابن باجة الذي دسوا له السم، لأتهامه بالزندقة، فكان ابن طفيل فيلسوفاً، وقاضياً، وطبيباً ووزير دولةٍ أيضاً، فقصته التي كتبها بعنوان حيّ بن يقظان، التي أخذ فكرتها من ابن سينا، هذه القصة هي أعظم قصة فلسفية في عصرنا ولربما للتأريخ، فقد شرح فيها فلسفته، ما يمكن أن يكون الانسان المتوحد، فيقول إن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى في العمى والحيرة، ويؤكد إن منطلق حي بن يقظان قد بدأ من الملاحظة والتجريب، ولم يبدأ من التأملات العقلية والمنطق، وليؤكد إن الطبيعة هي البداية في منهج بناء المعرفة نحو بناء فلسفي متكامل، فقد صور ببراعة مدى البون الشاسع بين المعرفة التي يبلغها الرجل المتفتح البصيرة، وتلك التي يكتسبها سواد الناس عن طريق التلقين سماعاً أو قراءة.

ولنعود الى طب إبن طفيل، فبعد أن وضع ابن البيطار كتاب الجامع في تأريخ الطب النباتي، حيث وصف في هذا الكتاب الف وأربعمائة من أنواع النبات، والاغذية، والعقاقير، وحلل تركيبها الكيميائي، وخصائصها العلاجية، أصبحت الطريقة أسهل في العلاج، وبعده أتى ابن باجة. ثم أتى إبن طفيل، وكتب إرجوزة تعد سبعة الاف وخمسمائة بيت في الطب العلاجي، والتداوي بالاعشاب، وبمشتقات النبات، في تأريخ تطور الادوية، بين الصيدلة والكيمياء، وفي إستقصاء أنواع المرض، وتأريخ الداء والدواء، فكانت هذه الارجوزة موسوعة لكل داء ودواء، وكان ابن طفيل السبب الاول لصعود نجم إبن رشد، فهو من قدمه للخليفة، عندما كان الشاب إبن رشد قاضياً، وفقيهاً، وبعد سنين إكتسب إبن رشد مصطلح الشارح الاعظم، والفيلسوف الاول عند الاوربيين، وبعد أن تكلمت مع روح ابن طفيل، أرسلني لكي أستحضر روح إبن رشد، إذ كنت أريد علاجك يا زال، وعندما قمت بذلك، وتكلمت معه، فقال لي ابن رشد، بإن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان الى المروق من الدين، ولكن الدرس الواسع يؤدي الى

الإتلاف بين الفلسفة والدين، ذلك أن الفيلسوف وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن او الانجيل او التوراة بمعناها الحرفي، يدرك إنها لاغنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة، والاخلاق السليمة في عقول الناس الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة، فلا يجدون من الوقت ما يكفي لغير التفكير العارض، السطحي، الخطر في مبادئ الاشياء وأواخرها، من ثم أن الفيلسوف الناجح لاينطق بلفظ او يشجع لفظاً يعارض الدين، وأن لا يعتمد إلى الدعاوة لآرائه بين العامة، وقال لي إن العالم أزلي، وأن القول بالخلق خرافة، ولكن الله هو خالق العالم، ويعني بهذا القول أن العالم موجود في أي وقت من الاوقات بقوة الله الحافظة، فالله هو نظام الكون وقوته العاقلة، وهذا القول يدعمه قرآن المسلمين، إذ ان لايوجد في القرآن شيء إسمه العدم، ثم قال لي إن الانسان له عقلان احدهما مادي والثاني فعال كما يقول ابن باجه، وهذا العقل الثاني مستمد من الله، وإن ادراك الحقيقة وحدها عن طريق الذهن هو الذي يؤدي بالعقل إلى الاتحاد مع الله، ذلك الاتحاد الذي يظن المتصوفة بأنهم يستطيعون الوصول اليه بالتدريب النفساني على الزهد، أو بالنشوة التي تحدث بالاذكار، وهذا هو الفرق بين الصوفية والرشدية، كلهم يسعى الى الاتحاد مع الوجود، ولكن كل بطريقته، وبعد ان أتمم حديثه بفهم العالم، والكون، والوجود، فأصبح لدي من العلم بالصوفية، وبالرشدية، وأيضاً علمي السابق بالوجودية، وفقه الديانات، أصبح لدي مايمكن أن أقوم باستخدامه لفهم الروح، والجسد، والحياة لكي أجد العلاج لزال، ولكن أستغربت حينما بدأ طيف ابن رشد بنصحي بطبابة زال، وقال لي مقتبساً من كتابه، الكليات في الطب، هذه الموسوعة الطبية الفذة، التي إستمدها من ابن طفيل، وابن البيطار، ومن كتاب التيسير لأبي مروان ابن زهر، الذي كتب هذا الكتاب إجابة لطلب ابن رشد، فتعلمت الوصف الإكلينيكي منه وتعلمت من التحليلات للأورام الحيزومية، والتهاب الثامور، ودرن الامعاء، والشلل البلعومي، ومن دراسة شرحه لشبكية العين، علمت أن سُم زال قد إنتقل من الدم الى

الاعصاب، وهذا الشيء هو ما إستعصى على السواعير في إيجاد حل لعلاج زال، وإني يجب أن أجد طريقة لكشف العلاج عن طريق الدم ودورته في داخل الجسم، التي يقول عنها إبن رشد بإن علمنا بها خطأ، فعلمت بأني يجب أن أزور النطاسي، وأعمل معه، لايجاد ماكان يقصد ابن رشد عن الدم، ولكن حتى ذلك الوقت، لدي علاج مؤقت لزال والسم الذي في بدنه".

تينهنان

بعد أشهر، حينما كان الكل يتناقش مع العارف، وهنالك من وافق، وهنالك من عارض، ومر الوقت، وفتُحت الباسيليكا[1] أخيراً، وكانت محط أنظار الجميع، فكانت معجزة معمارية في وقتها، وبدأ العارف ورفاقه بالتحضير لوجهتهم المقبلة، ولكن موت القديسة فينا[2] أجل رحلتهم، وذهبوا الى مراسم دفنها، ثم عادوا الى أسيسي، وعندما وصلوا كان موت النائب العام إلياس، هو الشي الذي لعج فؤاد العارف "لقد عاش عمره ليبني هذا الباسيليكا، فكان أول من دفن فيها".

ثم أنطلق العارف، وزال، وگريگرس تارة أخرى، متوجهين الى نابولي وكان السمندر ينتظرهم، فعادوا الى قليبية في تونس، وكان الطارق موجوداً بأنتظارهم.

"هل هنالك خطب ما؟" يسأل زال الطارق.

"الام المقدسة تريد مقابلتكم".

ينطلق الاربعة من تونس متوجهين جنوباً الى صحراء الجزائر وهم في الصحراء يسأل گريگرس "كيف تعلم الطريق؟".

"أنظر الى أسراب النمل الصحراوي الذي يحمل حبات القمح وفتات الخبز، نحن نسير بعكس مسير أسراب النمل، فإنها تأتي بطعامها من إحدى القرى او المدن القريبة".

"أتذكر حينما تكلمت عن أبناء الصحراء يا عجوز" يقول زال الى العارف "أبناء الصحراء يوظفون كل مافي الصحراء من أرضها، ورمالها، وعشبها، وحيواناتها، وحشراتها، وحتى

---

١ Basilica of San Francesco d'Assisi

٢ Saint Fina

سمائها، وقمرها، يوظفونها لخدمتهم، ويأتي ابن المدينة الكسول، ويقول عليهم همج وبرابرة".

فيتبسم الطارقي ويقول "يا سادتي، هذه الخبرة هي متوارثة من أجدادنا يعلمها الاب للابن، ففكرة السير بعكس إتجاه سير أسراب النمل ليس فكرة جديدة، فإنها من تراثنا التأريخي، فعندما كانت جدتنا الكبرى، الملكة تينهنان المقدسة، قد طال بها وقافلتها السفر والترحال ونفد طعامهم، فتنبهت الى أسراب النمل وسارت بعكس مسير الاسراب، حتى وصلت إلى الاهقار[١]، فوجدت بها الأمن والماء والطعام وكل مقومات الحياة، وأقامت وشيدت صرح مملكتها هناك، فنحن أقوام إمتازت بإنسجامها مع الصحراء ومعرفة شعابها وخباياها، وكيف لا! ونحن أحفاد أسلافنا الايموهاغ[٢]" وبينما يواصل الطارقي سرد القصص من تراثهم الصحراوي وتأريخهم أثناء مسيرهم، فاذا بهم وصلوا الى تمنراكس[٣]، ووجدوا أنفسهم أمام ضريح مبني بحجارة بيضوية الشكل مرصوفة بجدران سميكة جداً يصل سمكها الى أكثر من متر، مشكلة بناءً يتكون من أحدى عشر غرفة غير منتظمة الحجم والشكل، وبينما هم ينظرون الى الضريح فإذا بفتاة عطبولة ممشوقة القوام كإنها شجرة نخيل معلق عليها ما لم تره عين من أنواع الزينة، ترتدي الملحفة[٤] ذات الالوان المزركشة والمشرقة والتي تغطي جسمها كله، ويتدلى من جبينها من جهة اليمين تاونزا[٥]، وتحتوي على نقوش الورد والاسماك، وتحلي أذنيها التكاليل[٦]، تتدلى منها قطع فضية صغيرة مع بعض خرزات من المرجان، وعلى ضفيرتيها تتدلى الصفايح،[٧] وعند نهايتها سلاسل صغيرة جداً بها خرزات رقيقة من المرجان، وكان وشم

---

١ الاهقار: سلسلة جبلية شهيرة تقع في اقصى الجنوب الشرقي للجزائر
٢ الايموهاغ: الرجال الاشراف الاحرار في اللغة الامازيغية
٣ تمنراكس: هو الاسم القديم لمدينة تامنراست التي تقع عند جبال الاهقار
٤ الملحفة: زي النساء الصحراوي
٥ توانزا: قطعة ثقيلة جداً من الفضة
٦ تكاليل: وهي خرص دائري الشكل تتصل فيه تسع سلاسل
٧ الصفايح: وهي عبارة عن قطع مربعة الشكل ترتبط ببعضها بواسطة سلاسل

التافويت[1] مرسوم على ذقنها بشكل نصف دائرة تتفرع منه ثمانية خطوط صغيرة، وفي وسط نصف الدائرة شعاع على جانبيه ثلاثة نقاط من الجهتين، لدقته يحمل في تفاصيله رموز وعلامات تعكس العلاقة الوثيقة بالتفكير الاسطوري، والذي ينقل الجسم من نظام الايقونة الى الجسم اللاهوتي، أما عيناها التي كانت تشع حكمة ودهاء، فكانت تزينها بكحل التازولت، لم تكن هذه اللوحة الفسيفسائية المتحركة أغرب ما يرون، ولكن الاغرب كان ما شاهدوه من الحيوانات المحيطة بالضريح، حيث الغزلان تنام مطمئنة عند قدمّي الفتاة الرؤد[2]، والنوق أناخت، أمنة بحضرتها، فكانوا هم منشدهين بهذا المشهد الفردوسي الحدث، الصحراوي المكان، انتبهوا على صوت الفتاة، وهي تحمل بيديها آنية مملوءة بحليب الناقة، وهذه علامة ترحيب بالقادمين.

"حياكم! حياكم!" بصوت الانس ذو الاساجيع رحبت بهم.

"أشرقت شمسك مرحبةً أيتها الجميلة" بنظرات تلمؤها التحرش أجاب زال.

يتدارك الموقف العارف وقال"مرحباً يا ناصبة الخيام".

"أرى ان العارف يعلم بعاداتنا" تقول عيناها تملئها هالة العارف بحكمته وعلمه.

ومازال زال ينظر لها بنظرة ماجنة، حينما كان العارف، والحسناء يتبادلان الكلام، بنظرات عميقة وخاصة، وكأن لم يكن أحد يستمع لكلامها، فنظر زال لهما وأراد أن يكسر الفيض الغزير من النظرات بين العارف والجميلة، فزاد تحرش زال بها، محاولاً جذب الانتباه.

---

١ تافويت: وهو وشم على شكل قرص الشمس
٢ فتاة رؤد: حسنة الشباب

"زال!" صرخت الحسناء "لو لا صديقك العارف هنا لكنت نحرت رقبتك، فلا تنسَ ماذا فعلت حينما كنتَ هنا اخر مرة".

فتراجع زال قليلاً "النساء!" قال مزدرءاً وابتعد.

وبينما يتسامر كل من العارف والحسناء، كان گريگرس واقفاً مستهجناً هذا الجو الصحراوي، وحرارة الشمس التي لم يعتاد عليها، ولم ير مثلها في بلاده. فسأل "لمن هذا الضريح؟ وما اسمك ايتها الفتاة؟ انا أسمي گريگرس وأنا من الشمال".

فنظرت الحسناء الى العارف، فتنحى العارف جانباً، مبتسماً لها، فتبسمت له، ونظرت الى گريگرس وقالت "هذا ضريح تينهنان، وإسمي تينهنان".

باستغراب وخيفة ووجل "عجيب! ضريحك وأنت على قيد الحياة" يقول گريگرس.

بإبتسامة حكيمة أجابت "إنه ضريح جدتي الكبرى، الملكة تينهنان، أم الطوارق كلهم الم تسمع بها؟".

"أنا لست خبيراً بالتأريخ وشعوب الارض" يجيب گريگرس، وهو يشرب من لبن النوق.

فأبتسمت له، وأحبت بساطته وصراحته، وعادت لتنظر الى العارف بنظرة ملؤها إعجاب ودفء، وأكملت الحوار مع العارف، وكان زال قد إختفى، وگريگرس مازال توجد في نفسه كثير من الاسئلة "هل أنت روح ايضاً؟".

"ماذا؟" تقول مستغربة "بالطبع لا".

"لا عليك، فأنه متأثر ببعض الاشياء التي حصلت في مراكش" يفسر العارف ومازالت البسمة تعتلي وجهه.

"أعلم، فلقد أخبرني رفيقكم الطارق بكل شيء" ردت مبتسمة.

"ما أجمله من قوس، لولا أن قبضته بها كسر، من أين لك به؟".

"هذا القوس هو أعظم قوس في العالم يا ضيفي الكريم، إنه قوس الفايايا، قوس شيفا العظيم" فتبسمت للعارف وقالت "لقد جاءني بهذا القوس مهربك اللموص، كمقابل لتأمين الطريق لكم، وتوظيف الطارق الذي رافقكم في مراكش، إن هذا القوس كان لدى الملك ياناكا، والد سيتا الجميلة، والذي اشترط ان يكون ربط وتر القوس لمن يتقدم لزواج أبنته سيتا، إبنة الالهة الذين إئتمنوها عنده، كمهر للزواج بها، وبعد أن عجز الكثير من الخطاب من أن يربطوا وتره، فقد الملك ورعيته الامل برؤية سيتا الجميلة عروس، حتى وصل راما الى قصرهم، استطاع ان يربط وتر القوس بكل سهوله وكسر بضغطته مقبض القوس، وبذلك صارت سيتا عروساً لراما، ولم يشهد الكون عروسين أحلى وأجمل منهما، وكأنهما شمس وقمر والعالم ينير بضيائهما ليلاً نهاراً، وصار هذا الكسر إيذاناً لبدء حياة جديدة الذي أحبها المخلص البطل راما" فنظرت الى العارف وقالت "لربما يكسر تارة اخرى ولعل حب جديد يولد كحب سيتا وراما".

واذ بالعارف يناجي نفسه ليُكسر القوس تارة اخرى، لعل حباً جديداً يتكون، ويكون هو كراما وتكون تينهنان كسيتا، فتبسم لها العارف، وألقى على مسامعها زائية الشماخ[1].

بعد أن رَحبت بهم الملكة تينهنان وأصطحبتهم الى دار الضيافة، وذبحت لهم أسمن شاةٍ في القطيع إكراماً منها، تركت ضيوفها ليرتاحوا، وبعد أن أكل گريگرس بشهية لا تنم عن شخص غير متأقلم مع جو الصحراء الجاف، وكأن لديه ثأر مع الشاة المشوية على الفحم، حيث يمسك بيد قطعة لحم وباليد الاخرى أنية لبن، وكان زال مستلقياً وترتسم

١ زائية الشماخ: هي قصيدة مشهور للشماخ ابن ضرار وفيها من وصف جميل عن المحارب والقوس.

عليه ملامح التعب، أما العارف فكان سارحاً بأفكاره، لم يذق طعم الزاد وكأنما هو شبع روحياً، كان وجه تينهنان يتراءى له في أنية الماء، وهو يقول في نفسه "

نالت على يدها، مالم تنله يدي نقشا على معصم أوهت به جلدي
كأنه طرق نمل فى اناملها او روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها فالبست زندها درعا من الزرد
مدت مواشطها فى كفها شركا تصيد قلبي به من داخل الجسد
أنسية لو رأتها الشمس ماطلعت من بعد رؤيتها يوما على أحد
سألتها الوصل قالت: لاتغر بنا من رام منا وصالا مات بالكمد
فكم قتيل لنا بالحب مات جوي من الغرام ولم يبد ولم يعد
قد خلفتني طريحا وهي قائلة: تأملوا كيف فعل الظبي بالاسد
واسترجعت سألت عني فقيل لها: مافيه من رمق، دقت يدا بيد
وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد
والله ماحزنت أخت لفقد أخ حزني عليه ولا أم على ولد
هم يحسدوني على موتي فوا أسفي حتى على الموت لاأخلو من الحسد"

وأمضى ليله شارد الذهن والبال، لم تغمض له عين، ولم يرق له جفن، متقلباً على فراش الوجد، فصار يحس بالفراش المصنوع من وبر الابل الناعم كأنه أشواك تلسع جنابته، وأصبح منزعجاً من هواء ليل الصحراء النقي، وكانه يتنفس دخان نار معبد عشتار في يوم الاضاحي، وفجأة إلتفت الى نفسه ويقول: ما بالك ايها العارف؟ ما بالك يا رجل العلم والحكمة؟ نظرة واحدة هكذا تفعل بك؟ فأخذ يقلب بمسبحته ليشغل نفسه بها، وأخذ يقلب بخرزاتها كما يتقلب هو في فلك الهوى، وكانت تينهنان بعد أن خرجت منهم قد

توجهت الى ضريح جدتها الكبرى تشكو الهوى وصبابته، فأصبحت تشعر بالهواء الذي يلامس وجهها كأنه سهام أبولو، وصارت تحس بثقل خطواتها على الارض بعد أن كانت تمشي الهوينا، وأمست تسمع همسات الليل كانها طبول تقرع مؤذنةً ببدء أعاصير مشاعرها، وأمست ترى ضوء القمر كأنه وهج ساطع يذهب بالابصار، وبين صد ورد بين مشاعره ومشاعرها، قضى العاشقان ليلتهما الليلاء، وعندما أصبح الصبح كان العارف يتكلم مع زال وگريگرس في خيميتهم ويقول لهما:

يـــا صاحبيَّ هلِ الصباحُ منيرُ أمْ هَلْ للَوْمِ عَوَاذِلي تَفْتِيرُ؟[1]

فدخلت تينهنان وسمعت ماقال العارف، قالت بصوت أملد "عمتم صباحاً إيها الضيوف

قد رق من نفس الصباح نسيم إذهب من سكر المدام نديم"

ونظرت الى خادمها وقالت

"قـم فـاسقينـــا قهوة مثمــولة قـد لـذ منها مشرب وشميم[2]"

وجلست بجلالتها وتحدثت مع العارف، أريدك أن ترافقني إلى إمبراطورية مالي" قالت الام المقدسة الى العارف، طالبة منه خدمة كبيرة.

"لماذا؟" يسأل العارف.

"إن سونديانا[3] قد أنشأ إمبراطورية في مالي، ومحاربيه أهصاء، عتاة، يجلبون المك[4] على الناس، فأريد ان يكون لي معهم اتفاق أن لا يتوجهوا الى أرضي، وذلك بأن أتحالف معهم في معركتهم القادمة، فهو يحضر الى معركة قوية".

---

١ من أشعار جرير
٢ من شعر إبن الهانئ الاندلسي
٣ Sundiata Keita
٤ المك: الهلاك والموت

"لا أعلم ما فائدتي؟" يسأل العارف.

"إن سونديانا يحب أن يُخلد، وأعلم أنك قاص جيد، فاذا كتبت قصته او معركته، فأنا متأكده أنه سيأخذ هذا بعين الاعتبار، ولن يفكر بالقدوم الى هنا".

"لا تقبل" يرد زال من مكانه.

"وأنا أريدك بجانبي" تقول بصوتها الاملد، وعيناها الكبيرتان تحدق بعين العارف، متوسمة الرد المطلوب.

فسكت العارف قليلاً وتنهد وقال "الى الشعب المانديغي إذاً".

ملحمة سونديانا[١]

إنطلق كل من العارف، وزال، وگريگرس، وتينهنان، ومعهم مئة طارق يركبون صنيدة[٢]، وأربعون من المشاة على أقدامهم، كلهم يلبسون لثامهم الازرق الذي يبرهن على طهارتهم حسب عاداتهم وتقاليدهم، كانت الام المقدسة، تلبس ثوباً من دمقس[٣]، وحُليها بكامل هيبتها، وإنها بميسمها بعين العارف ملكة العواتك[٤]، تركب الظعينة على الداسرة[٥]، يسيرون ذميلاً[٦] الى الجنوب.

"هذا الرجل مجنون"يقول زال الذي كان ممتعضاً من هذه الرحلة.

"إنه إمبراطور" تجيب تينهنان.

"هذا الرجل قد دمر سوق الذهب في كل الاصقاع لعامين متتاليين! عندما قام بالحج، قام بتوزيع الذهب على الفقراء والمحتاجين من مكة حتى باماكو[٧]، لقد خسرت كثير من من المال، مجنون!"

"ومن أين له هذا الذهب كله؟" يسأل گريگرس .

"يا صديقي، إن هذه أرض لا تحوي شيئاً غير الذهب، حتى ترابها ذهب".

"هل قابلته من قبل؟" يسأل العارف زال.

---

١ Epic of Sundiata
٢ مئة من الجمال
٣ دمقس: حرير
٤ عواتك: مفردها عاتكة وهن الحرائر الخيار من النساء
٥ الناقة الشديدة السريعة
٦ ذميل: سير البعير الريع اللين
٧ Bamako: عاصمة دولة مالي

"بالتأكيد".

"ماقولك؟".

"أروع[١]" يختصر زال الامبراطور بكلمة واحدة.

"حدثنا عنه" سأل گريگرس زال، فگريگرس يحب القصص والحكايات.

"عندما كان الفاما[٢] ناري قوناطي[٣] ملكاً على قبائل الماندیغي، كان متزوجاً من الملكة ساسوما بيريتي[٤] وله إبنه البكر الامير دانكاران توماني كايتا[٥]، كان هذا الملك يحكم في في منطقة تكثر فيها القبائل والشعوب المتحاربة في مابينها، وفي احد الايام قِدم على الملك ناري، الصياد المقدس ذو الوجه الابيض واللحية السوداء" ونظر زال بطرف عينه الى العارف وأكمل قصته "فأخبر هذا الصياد المقدس الملك بنبؤة، بإن الملك سيتزوج يوماً من إمراءة قبيحة جدا، سيرزق بإبن سيكون حاكما على كل الاراضي من غانا وحتى حدود الجزائر، وبعد أن رحل الصياد المقدس، ومرت السنون، أتى على الملك إثنان من محاربي الطراروي[٦] من قبائل الماندي، وجلبوا له إمرأءة حيزبون[٧]، حدباء، ذو وجه مسيخ، إسمها سوجولوون[٨]، فتزوجها الملك، وأنجب إبناً معوقا لا يستطيع المشي، أسماه سونديانا، وعندما مات الملك، طرد الاخ الاكبر دانكاران شقيقه المعاق وأمه الحيزبون الى مملكة الميما[٩]، ولكن بطريقة ما، إستطاع سونديتا المعاق الوقوف، وأن يكون محارباً عرماً، وبعد سنين تقدمت جحافل السوسو بقيادة المشعوذ سوماورو

---

١ أروع: ذكي وحذق معجبا بنفسه ويثير الاعجاب
٢ Faama: ملك عند القبائل التي كانت تسكن دولة مالي
٣ Naré Maghann Konaté
٤ Sassouma Bereté
٥ Dankaran Touman
٦ Traoré
٧ حيزبون: عجوز سيئة الخلق
٨ Sogolon
٩ Mema Kingdom

قانطي[1]، الذي بدأ يحكم من جنوب غانا وساحل العاج حتى وصل الى قلب عاصمة الملك في باماكو، فخرج عليه الابن البكر، ولكن كانت قوة جيشه ضعيفة، وحين سمع سونديانا بالخبر، أنطلق مع جمع من محارب الطراروي وغيرهم، ودحروا الملك المشعوذ في معركة كيرينا[2] شمال العاصمة باماكو في عام ألف ومئتان وخمسة وثلاثون، وإنتهى المطاف بإن تتحقق النبؤة ويحكم سوينداتا الارض الغربية الافريقية قاطبة، ويصبح أمبراطوراً عليهم" .

"إنه لملك بحق، سيسعدني أن اقاتل معه".

فنظر زال الى گريگرس مغتاظاً ولم يقل شيئاً.

وبعد شهرين من المسير، حيث كانت الايام تنقضي للعارف بالتسامر مع تينهنان، وكان گريگرس يشتم ويسب الحر والصحراء، وكان زال اكثر الوقت معتزلاً عنهم غاضباً، وغير مبال للطريق، إذ إنه يعلم ان الطوارق يحفظون الطريق، فهي أرضهم وصحرائهم، ثم وصلوا الى منطقة تدعى موبتي، وعلى حدودها كان هنالك أقاويم تمشي كالنمل.

"جيش سونديانا العظيم" يقول زال.

"منظر تشخص له الابصار" تقول تينهنان "أنا من سأقوم بالكلام".

فتقرب الطوارق وملكتهم برفقة العارف وزال وگريگرس ودخلوا الى خيمة سونديانا، كانت الخيمة مملؤه بطنافس من حرير، وسجادات عجمية مزخرفة، وكل شيء فيها من ذهب حتى وتد الخيمة وحبالها، يجلس الملك وتحيطه الحيوانات من غزال الدوركاس، والفنك، وقطط الرمال.

---

١ Soumaoro Kanté

٢ Battle of Kirina

"السلام على المانسا[١]، ملك الملوك وحاكمهم، إبن العظيم ناري ماغان قوناطي، حاكم مشارق الارض ومغاربها، السلام على الصعتري[٢]، السلام على ابن الإسلام وحاميه، السلام على من قبلت الارض أقدامه عند المضي، السلام على من تشرق الشمس في يمنيه وتغرب في شماله، أقبلت عليك أنا تينهنان حفيدة الام الروحية المقدسة، وسليلة فاتح الاندلس طارق بن زياد، أقبلتُ عليك وفي القلب تخاشع، والروح موموقة، أقدم لك لا تزلفاً بل براً من القرابين ما يليق بالمانسا وحده، ملك الملوك سونديانا، قرابين من العاج، والفضة، واللؤلؤ، والحرير، والسحل، والجلد القرطبي، والسفرجل، والاسفرج، والحنطة السوداء، وحلوى الفالوذج، وشراب خسرواني، ورهط من القلاص، ووصوار البقر، كلها أشتريتها من هذا الدهقان[٣]" وأشارت الى زال.

فنظر سونديانا ووقف، وكان رجل سامقا[٤]، عظيم المنكبين هزبرا[٥]، أمرد[٦] ذو رأس عظيم، زنجي، أسنانه ناصعة البياض، وتبسم قائلاً "ألقيتي علينا من الطرمذان[٧]، يا سليلة الحسب والنسب" قال متخشلاً[٨]، ثم نظر الى زال وأكمل حديثه "وكيف حال الدهقان؟ الدهقان؟ لقد بِعت لي عندما كنت راجعاً من المُقرة بشيء عظيم، أما تزال يا إيها الفارسيّ قرضوباً[٩]؟".

فينحني زال ويقول " نحن في خدمة بهرام[١٠]، يا سيد العرانين والميامين".

---

١ Mansa: وتعني ملك الملوك او الامبراطور
٢ الصعتري: الكريم والشجاع
٣ دهقان: تاجر بالفارسي
٤ سامق: طويل
٥ هزبر: ضخم
٦ أمرد: أصلع، لا شعر على رأسه
٧ الطرمذان: التفاخر والتباهي بما ليس به منه شيء
٨ متخشلا: متواضعا
٩ قرضوب: اللص الخبيث
١٠ بهرام: اله الحرب عند الفرس

فيبتسم الملك ويقول لتينهنان "وأنت يا سيدتي، مأثورة لهداياك العظيمة، ولكن وما هداياك حينما أرى من برفقتك، فالصياد المقدس أعظم ما اصطحبت معك في رحلتك" وينظر الى العارف ويقول "كان أبي يبجلك، وكانت أمي تحبك، فهل لك مطلب أتمه لك؟".

"ماذا تريد لتكفي الطوارق من بطش جيشك العرمرم؟" يسأل العارف.

"أكتب لي كما كتب عمرو بن الكلثوم التغلبي، وأصبحت تغلب أعظم القبائل العربية لشعره عندما قال:

بإنا المطعمون إذا قدرنا	وإنا المهلكون إذا ابتلينا
وإنا المانعون لما أردنا	وإنا النازلون بحيث شينا
وإنا التاركون إذا سخطنا	وإنا الاخذون إذا رضينا
وإنا العاصمون إذا أطعنا	وإنا العارمون إذا عصينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا	وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي	تخر له الجبابر ساجدينا

خلدني في التاريخ في هذه الحرب، وعلى الطوارق السلام والامان، فإن البغاث بأرضنا يستنسر[1]، فأنت كسافر[2]، كاتب الطلول[3]، ومخلد المخلدين سابر غور الطبيعة".

١ إن البغاث بأرضنا يستنسر: اي من جاورنا عز بنا
٢ سافر: كاتب: أحد الملائكة الذين يحصون الاعمال ويدونوها
٣ الطلول : الزبور اي الكتاب

"لك هذا" يقول العارف ويسأل "أين الجاولو[١]؟".

"بالا فاسيكي[٢]" ينادي الامبراطور، فيدخل أحد الاشخاص يلبس ثوباً ابيضاً وقلادة من ذهب، وكان هو وزير الامبراطور، وكان الجاولو، فجلس العارف والجاولو وشرعوا بالاتفاق على كتابة وتسجيل الملحمة التي ستعرف بأسم ملحمة سونينداتا.

كانوا يسيرون الى الشرق متوجهين الى جاو، وكان العارف منغمساً في كتابة الملحمة، وكان الطوارق يسيرون بعيدا عن الجيش ومعهم زال، وكان گريگرس قد أختلط بالجيش وبدأ يتعلم منهم أسلوب مبارزتهم بالرمح حتى وصلوا الى مدينة بانديإغارا[٣]، تعجب گريگرس الى مايرى فالناس يعيشون بطريقة غريبة، بيوتهم من طين وسقوفها من القصب الاسود مخروطي الشكل، فسأل احد المحاربين وقص عليه قصة هذه المنطقة القديمة العريقة، فأحب گريگرس المكان، وتعلق به، وقد لاحظ أن نساءهم جميلات جداً.

وأنتهت المعركة، وانتهى ايضا الجاولو والعارف وباتا ينشدان الملحمة بطريقتهما ويقولان: "فوصلت سرايا الشكاة عند جاو[٤] الاخلاء، وطلعت الشمس على رؤوس الراوبي البطاح بالارزاء، وكان الاقيال[٥] صفاً واحداً تعاقبه صفوف، سامقين، يلبسون أقراطاً ذات البهاء، يحملون السابغات الدلاص، تتوجهم الذمار ترتعش تحتهم الدهماء،

---

١ Gawlo: or Griot باللغة الفرنسية، وهو القاص والحكواتي والقديسو الراهب والشاعر والمغني عند قبائل دولة مالي

٢ Balla Fasséké : هو أول Griot في التاريخ وهو وزير الامبراطور سوينداتا

٣ Bandiagara: وهي صخور بانديإغارا المشهورة و التي تعتبر من اهم المناطق الاثرية والسياحية فتعود الى عام ٣٠٠ قبل الميلاد و ي من عجائب الطبيعة، يعيش فيها الناس في بيوت في داخل الحجارة مرتفعة السبيل الوحيد للوصول اليها هي عن طريق الحبال.

٤ Gao: منطقة في شرق دولة مالي حيث وقعت الحرب

٥ الاقيال ومفردها القيل وهو الملك دون الملك الاعظم

وكان مشاة الطوارق قد سافوا في الدعص[١]، مختبئين كما يتسرب تحت الارض الماء، وكان راكبوا العيس قد ذهبوا بعيداً خلف العدو ليقبلوا عليهم من زوراء[٢]، وقبل أن يقع الاحتدام الوبيل، خرج المانسا يمتطي صهوة انثى بج[٣] أجد شهباء، وخطب بالعرام والجيش اللهام والقى على اسماعهم الذمر[٤] ووعدهم بعد تسليم المعاد القود[٥] بالسلام والانواء، فوقفت على تل الورد[٦] الحسناء، طارقية غراء فرعاء، وقفت أصيلاً على العلياء، العلياء، كالثأد[٧] مخضلة[٨] الوجناء، خميصة البطن[٩]، يراوي نطاق العسجد[١٠] المريطاء[١١]، المريطاء[١١]، ضمياء، شدت وتر القوس كالطوس في اليهماء[١٢]، عيناها تلمع كالعبور والغميصاء[١٣]، فأطلقت السمهري[١٤] من الوتر الصناج كالعازف يطرب ويشجو في الغناء، كالنسيم في شعرها ينساب القذذ[١٥] بين أناملها، وإشمخر[١٦] السهم في السماء، فما كان سهماً بل كان المفرحي[١٧] ثهمداً[١٨] في الهواء، فانتشر وإذ به نبال كالودق الربذ[١٩]

---

١ دعص: رمل لايشوبه تراب
٢ زوراء: ارض بعيدة
٣ حيوان البج او السرفال هو من الفصيلة القطية النادرة Serval
٤ الذمر: الحض على القتال
٥ القود: القصاص والعقاب
٦ :La Dune Rose تله من رمل في مطقة جاو
٧ الثأد: المكان الندي
٨ الخضل: الؤلؤ كأنه قطرات المطر
٩ خمص البطن: دقت خلقه
١٠ العسجد: الذهب او الحجر الكريم
١١ المريطاء: المنطقة بين السرة والعانة
١٢ الطوس: الهلال ، واليهماء: هي السماء العالية
١٣ العبور والغميصان نجمان نيران بجوار الجوزاء
١٤ السمهري: من اشهر السهام عند العرب، يثقف بالبحرين
١٥ القذذ: ريش السهم في مؤخرته
١٦ إشمخر: إرتفع عالياً
١٧ المفرحي: النسر العظيم الابيض
١٨ ثهمد: لمعان او لامع
١٩ الودق الربذ: المطر السريق السقوط

يتساقط من الفضاء، نهار كفرت السهام شمس القضاء، فسقطت عليهم بالحتوف الدهماء[١]، فدقت طبول أم قشعم[٢] في السماء، و أنطلق العتيت بأرقال ثم نجاء[٣]، مصحوب بجؤار[٤] وهمتهم رجلاء[٥]، وتناوح الجمع لارأفة ولا إبغاء، ودام الاحتدام الوبيل الوبيل في البطحاء، نسوق ذعاف الموت في الاعداء، وخرج من تحت الارض الطوارق الاشداء، سيوفهم في إنتضاء، وحُمس الوغى يهريقون[٦] الدماء، يختلبون الرقاب وتعم الضوضاء، فتأتي قفول النوق القلاص كالهوجاء، فتقهقر جمع الجبناء، فاليوم يوم الموت لاينفع الذليل النجاء[٧]، فالنصر اليوم للخلصاء، فأصاب الضرع[٨] الجبناء، فأصبحنا كالرحى نطحن الاعداء، والارض أصبحت ثقالهم[٩] الصرحاء، فاصابهم الثبور[١٠] وهم في في عواء، مزؤودة جموعهم ينالون شر الجزاء، فتهوي فرقهم مجلجة تحت جحافل الحزاورة الوضراء[١١]، فجيوشنا كالمرداة[١٢] تكسرهم أشلاء، فالظفر والفلاح لذوي الشماء، والخيبة، أبيت اللعن! للقطاء، فاليوم نور شمسنا أزهقت الدعجاء، وما قمر غيهبان الكاشحين[١٣] بعد اليوم بوضاء، فقومنا يصبحون وسَرَمَد الظلام على اللُئماء، وإن

---

١ الحتوف الدهماء: الموت الاحمر
٢ ام قشعم: الموت
٣ إرقال ثم نجاء: بهرولة ثم بركض سريع
٤ جؤار: صياح
٥ رجلاء: الغليضة الشديدة
٦ يهريق: يريق
٧ النجاء: الهرب
٨ الضرع: الذل
٩ ثقال: هي الجلدة التي يوضع عليها القمح لتطحنه الرحى
١٠ الثبور: الشرور والهلاك
١١ الحزاورة الوضراء: الغلمان الاشداء ذوي الضراوة
١٢ المرادة: صخرة تكسر الحجارة
١٣ غيهبان الكاشحين: ليل الاعداء

كانوا أسياد قومٍ فما سادو ألا أنفسهم بعد اليوم وهم في إكداء[١]، نصعت رماحنا في جموعهم الطرداء، فما كانت حرب وماكانت عشواء، فما كانوا مثلنا عظاماً وما كانوا مثلنا اشداء، حتى النهاب أصبحت أفياء[٢]، ما أرسلتهم بيضنا في سعير بل أضاعتهم في العماء[٣]، فنشرب بعد اليوم بالكأس نقية صفراء، ويشربون من الارض جفافها اللأْواء[٤]، نقرع كؤسنا سجراء[٥]، ويندبون حظهم وهم أقذاء، وفي تيه ينشزون الندماء، وجلسنا في في روضة غنّاء تحت لواء سونداياتا سيد الحكماء وعظيم العظماء.[٦]

---

١ فقر القوم بعد الغنى
٢ النهاب: الغنيمة بعد المعركة ، والافياء هي الغنيمة من دون معركة
٣ العماء: الوجود قبل الخلق مايسمى بالفراغ قبل الكون
٤ اللأواء: ضيق المعيشة
٥ سجراء: اصدقاء واخوان مخلصين
٦ قصة لملك الملوك سونداياتا حقيقة، وكل الوقائع المذكورة حقيقة تاريخية، ولكن الملحمة التي كتبها العارف من تأليفنا.

من لا أسم له

بعد إنتهاء المعركة، وطلع الصباح، والعارف وگريگرس يبحثون عن زال، فلم يجدوه، وعندما كانوا يبحثون إستغربوا، فلم يكن لجموع الطوارق ولا مِلكتهم وجود، إلا طارقاً واحداً، كان ينتظر خارج الخيمة المخصصة للعارف.

"أين الملكة وأصحابك؟" يسأل العارف الطارق.

"لقد عادوا الى تمنراست" يجيب الطارق "وتركتني هنا لأرافقكم، وأعطتني قوسها، لعله يأتي لكم بالخير، فالملكة المقدسة تؤمن إن لهذا القوس فأل حسن".

فتكمد وجه العارف وتربد، وبدأت المشاعر بداخلة تتخاصم، بين شوق ووحشة، وبين نفور وشطون، فانطلق العارف من دون كلام متوجهاً نحو الشرق، حيث وجهته الثانية، فهو يريد الوصول الى مصر.

"سيدي، وماذا عن زال؟" يسأل گريگرس.

"هو يعرف الطريق" وأنطلق العارف غير مبال بما يجري حتى موعده مع المانسا تغافل عنه وانطلق، حيث وعد العارف المانسا بأن يقابله بعد المعركة ليحتفل بالنصر معه.

وبعد ساعات من المشي ووجه العارف موجوم، وگريگرس يتبعه سريع الخطى، لا يعرف ماذا يفعل، والطارق يمشي أمامهم، وجدوا زال جالساً على أحد الصخور، ينتظرهم ومعه عشر من الجمال، محملة بالذهب[1] وأغراضهم أيضاً.

---

١ تعتبر مالي من أكثر الدولة المنتجة للذهب في العالم

فنظر العارف اليه شزراً، وهو كظيم، ولم يحدثه وأستمر بالمسير، فسأل زال صديقة الكبير الاشقر، فأخبره گريگرس بما حدث من مغادرة الطوارق دون أن تودع تينهنان العارف.

"وأنت، أين كنت؟". يسأل گريگرس.

"لقد ذهبت، لاجمع بعضاً من الذهب" مشيراً الى الابل "وكان علي أن أستلم الرسالة من الحمامة المطوقة، فلقد عادت بالانباء".

"ومالانباء؟" يسأل العارف من بعيد.

"لا تسر كالعادة" وأعطى زال الرسالة الى العارف.

إستمرت الايام وطالت، ومضت الاشهر وهم في الصحراء، وكان زال يغيض العارف بذكر تينهنان ولكن العارف لم يتكلم ولا كلمة، ولكن المشكلة كانت أكبر من هذا كله، فيبدو أن الطارق لا يعلم أين يذهب، فخرت الجمال من التعب، وإضطروا أن يتركوها تموت في الخلاء ولايمكنهم حمل الذهب، فوقف زال مستاءاً لما يحدث فإنهم لا يعلمون أين هم في هذه الصحراء، فهم يسيرون تحت أوار الشمس وتعييهم ام الصخدان[1]، فلقد خسروا حوائجهم ودسوتهم وكوانينهم، حتى الماء والطعام في المزادة[2] قد نفذ، فطفقوا يأكلون طعام البرير وورق البشام حتى تقرحت اشداقهم ويبست شفاههم، وفي يوم من الايام وهم جالسون يستقلبون المك[3] في التيه، كانت الشمس قد بدأت بالافول، وكانوا يجلسون خلف صخرة كبيرة كالتل، وكان هنالك ماء ينضح من تحتها يرطبون به شفاههم، كان الطارق مازال منفرداً لوحده، فإنه يضع على عاتقه سبب

١ الحر الشديد
٢ المزادة: وعاء يحمل فيه الماء والزاد في السفر
٣ المك: الهلاك

الضياع في الصحراء، العارف كان ينظر الى وجه الطارق ويرى يأساً، فإنه يظن بأن الطارق قدأعطى صورة سيئة عن قومه بالفشل بعبور الصحراء، وفي تلك اللحظات، سأل گريگرس العارف "قبل أن أموت يا سيدي في هذه الصحراء، هل لي ببعض الاجوبة؟".

"لك ماتريد" يجيب العارف.

"إني لست بمأفون[1]، ولست بداهية ايضاً، إني شخص بسيط جداً مقارنة بكم أنتم، فأنت قد بلغت من العمر ما لا أستطيع عده، وقد قمت بترحالات ما لاحصر لها، وبرفقتك زال ذو الدهاء والخبث والعظمة، فهو خادم أمين، وحارس يقض، وبطل مغوار، وتاجر غني، و إبن ملك، و سيد عظيم، وما أنا الا بلقيط، لكن يكمن في صدري محارب شديد، لم أسألك يوما ماذا تفعل، ولم أعصِ لك امراً بالرغم من إنك لم تأمرني يوماً بشيء، ولكني كنت أتبعك عن حب وثقة، ولكن هنالك أشياء بعد هذه الرحلة قد حفزت بعض الافكار في داخلي، فبعد هذا العمر كله الذي قضيته معك، وأنا أعرفك وأحبك حباً جماً، ولكن من انت؟"

"أنا من لا إسم له، عندما كنت صبياً ومازلت لم أتمم العام السابع، قد رأى جمع من العلماء، والفقهاء، والمتصوفة، والفلاسفة، ورجال الدولة من الموابذة بأني المنشود، وإني ساكون رجلاً تنهض به الامة، فأحتضنني الجميع، وبتُ أغور في أفكارهم جميعاً، فأصبحت قاضياً وانا في الثانية عشرة من عمري، وكنت فقيهاً في الجامع وكنت فيلسوفاً مع الفلاسفة، وكنت عالماً أبحر في الرياضيات والفلك والطب وغيرها، وعندما بلغت العقد العشرين، وكنت في أعلى المراتب، فكنت وزيراً، وقطباً[2]، وإماماً، ومخترعاً، ولكني لم أرضَ بهذا، فكنت لا أعلم الا علمهم، ولا أدين الا بدينهم، ولا فلسفة عندي الا

---

١ مأفون: ناقص العقل

٢ القطب: اعلى مرتبة لدى المتصوفيين

فلسفتهم، فكان الفلاسفة وغيرهم مما ذكرت يقولون بإن الواجب يقضي عليهم أن ينصحوا المجتمع لكي يتخلص من واقعه السيء، فالمجتمع في نظرهم مريض ولاسبيل لعلاج مرضه الا بتلقينه الافكار الصالحة، ولكن برأيي إن المجتمع لايمكن علاجه بهذه الطريقة هذا إذا كان مريضاً، فالمواعظ المجردة والدعوة بالكلام لا تؤثر في الناس لانهم يسيرون بالحياة حسبما تقتضيه طبيعة المجتمع الذين يعيشون فيه، فوجدت نفسي اصل مراحلهم الطوبائية، وأتشمدق معهم بالافكار العالية التي لا صله لها بواقع الحياة الاجتماعية، فخرجت أختلط مع الناس في حياتهم، فوجدت إن ليس لهم الجهل والمرض الذي يدعيه العلماء والفقهاء والفلاسفة والمتصوفة، فليس كل أنسان فيلسوف أو فقيه أو ماشابه، ولكن كل إنسان هو مفكر اجتماعي على وجه من الوجوه، فالعلماء والحكماء والفقهاء والمتصوفة سوف أختصرهم لك بكلمة واحدة، المتمنطقون، فهولاء المتمنطقون يبحثون في صور الاشياء الخارجية للحياة التي هي الفكر الخارجي للناس، أما الناس فقد أبحرت في موارد الاشياء التي هي الفكرة الداخلية للناس، فكان الناس أعلم بأمور دنياهم، وكان المتمنطقون يتحكمون بصورها، فأطبقت الصور على الموارد، فكانت الطامة الكبرى، فالمتمنطقون موقنون بما يقولون بعيداً عن الاحتمالات الواقعية وهي بديهية لا يمكن الشك بها، وبما إن لكل رأيه فأصبح المتمنطقون في سجال متعصب، والفائز يطبق قوانينه على الناس، والخاسر ملعون إما زنديقاً وإما ملحداً وإما مهرطقاً او اي من هذه الادعائات والمسميات الاخرى، فكان منطق الفائز يطبق على الجميع، ولكن الناس ليسوا متشابهين، فاصبح الفائز يطبق قوانينه بتعسف، حتى وإن كان في نظرية الفائز صلاح، فتحولت الى القمع بسبب التعميم، فأصبح الكل في نفس الميزان، كمن يضع الماء والزيت في نفس الميزان، فخضت لذلك في ضروب الاراء والاعتقادات فلم أحظ بطائل من شيء ولا عرفت منه للحق منهجاً، وإلى الرأي اليقيني مسلكاً جيداً، فالمجتمع ساكن ومتحرك في الوقت نفسه، ولكني مع مرور الوقت، قد

كرهت تصنيف الاشياء، والذي يكون محصوراً بمسميات سيكون مقيداً بأغلالها، كالاخلاق، فإن الاخلاق ليست شيئاً محدوداً، ولايمكن أن تكون أخلاق مجتمع المسلمين مشابه لغيره، فالمجتمع وأخلاقه هم تابعون للأحوال الاقتصادية، والسياسية، والدينية والتأريخية، فالمجتمع يغذي أفراده، ولكن الافراد تبدأ بالمعاناة من هذا القانون، فالحقيقة هي كالبيت، له جوانب متعددة، المتمنطقون ينظرون للبيت من الخارج، وأما الناس يعيشون في الداخل، فسقمت الشمس المتمنطقين، وخنقت الافكار المجندة للمتمنطقين من بداخل البيت، فمن خرج من الباب الخلفي إتخذ رأي المتمنطقين في هذا الباب، ومن خرج من الباب الامامي أخذ اراء المتمنطقين هناك وغيرها من الابواب الجانبية والعليا والسفلى، وبدأ الناس من الداخل بالتنازع على شتى الاتجاهات، فكل جلس في ركنه يتساجلون بما في الخارج، ونسوا ما في الداخل، فمن جهة الذي رأى الشمس تغرب، رأى لونها الارجواني، ومن رأى الشمس تشرق رأى لونها الذهبي، ومن لم يرَ الشمس كذب الاثنين، ومن رأى قمراً إستل سيفه الفضي مزركشاً بنجومه، فبدأ الناس يختارون شخصاً ليحكم بينهم، فبنظرهم هو الجامع الكامل، منهم من نزهه، ومنهم من قدسه، ومنهم من نظر له نظرة بشريه، فأصبح النزاع على هذا الشخص، وأنتهت ملحمة المتمنطقين لوهلة، حتى يبدأ موضوع ثاني، وتعود نفس المشكلة، وبما إن المواضيع متشابكه ومتداخله، فهم في نفس الدائرة، وهذا كله مصدره الاكل الذي يأكله من في داخل المنزل، فالكل يأكل من الحصاد الانساني التليد، فيميلون الى تصديق الاخبار التي تلأمهم ويكذبون سواها، فالأخبار التي تمس مصالحهم أو عواطفهم، أو عقائدهم الموروثة او ماشابه، فلايستطيعون أن ينظروا لغيرها نظرة موضوعية فيتعصبون لها، فينسحب من المتمنطقين الذين خسروا اللعبة لهذا الدور ويعيشون في قوقعة تأليف الافكار، لربما تعود الى السطح بعد سنين أو تموت، ولكن اذا أتى أحد من بعيد وبدأ بالاستقراء لما يجري سيرى أن هؤلاء لربما يعيشون في حياة متماسكة متراصة

بشكل جميل مهما كانت بشاعته ولربما هم في القمة، ولكن القمة لا يمكن أن تكون معلقة في فراغ فهي لابد ان تستند الى جبل شامخ، وهذا الجبل متكون من حصى ورمال وغيرها، وهذه هي كل الافكار مجتمعه مع بعضها تكونت بشكل قوانين، تستند عليها القمة، وبعد أن تكونت القمة أصبحت دستوراً يميل له من في البيت الى التسليم والتصديق بها بالرغم من إن هذا الجبل الذي هو قانون مكون من الافكار المحرمة والمفسدة التي كرهوها، وأشياء اخرى يقبلوها وأشياء لم يتخذوا رأيهم فيها، فيعود الذين انسحبوا او من على طريق الذين إنسحبوا ويقولون إن الناس او الدهماء من العامة الذين يسكنون المنزل ليسوا أهلاً للنظر، فيجب أن تتغير العقائد وأن يُهدم الجبل، ويقيمون جبلاً جديداً، فمثلاً، في البلاد الاسلامية في العهد الاموي أصبحت الاغلبية او الدهماء من العامة هم أهل السنة والجماعة، فطُرد الفلاسفة الذين كانوا يُعرَفون بالمُعتزلة من هذا المنزل على قمة الجبل، وبعد أن توسعت الحياة تكونت تارة أخرى أفكار أخرى، ومازال المنزل يصعد الى قمة أعلى من القمة القديمة، حتى اصبح هنالك كمية من الصخر يستند عليه الجبل، فظهر جيل أخر من الفلاسفة، وأصبحوا الجهة المواجه، فسُموا بالاسماعيلية، وقالوا بأن أهل المنزل، أي الدهماء من العامة يصعب أصلاحهم، فصنفوا الناس قسمين، الخاصة والعامة، الخاصة متخاصمون، والعامة يتخاصمون لخصام المتخاصمين من الخاصة، وإنشق بعض الناس من هذا وهذا وبدأو بأفكار أخرى في منتصف البحر، بعيداً عن الجبل، وسُموا بالمتصوفة، وبما إن العامة مازالوا من أهل السنة، قدم شخص من أعظم المفكرين كان واقفاً فوق المنزل نفسه، والناس تنظر اليه بأحترام حتى وإن كانوا رافضين لافكاره، لانه وإن عادوه فأنه يستحق الاحترام، فقال الغزالي إن الاسماعيلية على خطأ، فأصبح الفلاسفة كلهم على خطأ بنظر العامة، ووضع المتصوفة في أعلى المراتب، فطفق الناس في المنزل يركضون الى النوافذ ينظرون الى الذين في منتصف البحر ويبجلوهم، فهؤلاء هم العامة بنظر الفلاسفة، والعلماء،

والحكماء بإنهم يجب أن لا يعرفوا سوى الطاعة والتسليم، فالفقيه يقول هذا من أمر الرب، والعالم يقول بإن مايقوله مثبت علمياً، وإن الفيلسوف على يقين بإن الكل على خطأ، والمتصوف يحتقر العقل، فقالوا بقول علي بن أبي طالب بإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، والناس تهلل لهذا الكلام وهي لا تعلم معناه، وأصبح رجال الدين من المسلمات في الحياة الطبيعية، وأصبحت قوانينهم هي باب المنزل الموصد، وكان المتصوفة هم المنظر الطبيعي الذي يتمتع به العامة وأصبح الفلاسفة هم الشر المتقد، ولكن هذا الشر هو الشمس الذي لا غنى عنها، فرفضوهم ولكن لامندوحة من السماع لكلامهم، فقتلوهم وحرقوهم بعد أن أخذ الفقهاء مايفيدهم من فلسفتهم واضافوه الى أفكارهم، ثم إرتفع الجبل على أطلال الفلاسفة بأفكارهم ومنطقهم تارة أخرى، فالديانة التي أحتضنت المعري والرازي هي نفسها التي قتلت السهروردي والحلاج وإبن باجة، ولربما في المسيحية، إن كان سيجر هو مازال تحت حكم المتدينين فالذين يهلكون على يد محاكم التفتيش هم مسيحيون أيضاً قبل أن يكونوا من ديانة أخرى، وكل هذا طبيعي في هذه الحياة منذ الوجود سواء كان أدم وحواء، أو أوزيرس والاجدود[١]، أو الانوناكي والايجيجي[٢]، أو بوروشا وبرجابتي[٣]، أو جوتن ويمر[٤]، أو التيتان[٥]، أو أي من المعتقدات الاخرى، إذ ظل هذا الجبل جامداً والحياة أستمرت بالتقدم والتطور على عهدها، سيقوم تيار الحياة القوي بتدمير هذا الجبل الذي يقف في طريق الحياة المستمرة، ويهوي المنزل من أعلى الجبل، ويغرق من فيه من يهلل لجهة واحدة، متعصبين بأراء لم يفهموها، إنما يتبعوها فقط، ولكن العلاقة هنا ليست كما يفهما الناس، فالناس ليسوا

١ أوزيريس: هو الالهة الاكبر عند المصريين الاقباط القدماء والاجدود هم الثامون، مجمع يتكون من ثمان ألهة بدأ الخلق بهم

٢ الانوناكي هم الألهه العليا لدى السومريين، والايجيجي هم الالهة الادنى لدى السومريين

٣ البورشا هو الرجل الكون عند الهندوس وبرجابتي هو اله المخلوقات والخلق

٤ جوتن ويمر هما الالهة الذي خلق منهم العالم والبشر، والجدير بالذكر، إن قصة الخلق هي قصة تعكس الطابع الفلسفي لدى الجرمان، فهم يعتقدون بإن أودن كبير الالهة قد قتل يمر ومن دمه خلقت البحار ومن جسمه خلق العالم

٥ التيتان وهم الالهة العظام والهة الخلق عند الاغريق، وجدير بالذكر إن الالهة زيوس المعروف هو ليس من التيتان، فهو إبن التيتان هو اله ادنى من الهة الخلق

مستقبلين فقط بل يعطون أكثر من أن يستقبلوا، فالمجتمع مادام يفكر بدون أن يبوح بفكرته أصبح سجيناً، لإن الفكرة طاقة، وهذه الطاقة ستكون كامنة لا فائدة منها إذا بقت في مخدعها في بطن الدهماء من العامة الذي يقطنون المنزل، فإذاً الحرية والاستمرارية هي البوح بالقول، وإن كان القول يعني الهلاك، فمن أراد الحياة يجب ان يتبع قوانينها، ولا يشكو منها، ومن أراد الحرية وأمن بما يؤمن بعد الهلاك فيجب عليه القبول بقوانين مابعد الحياة فتكون الحياة عنده مجرد حدث من أحداث كثيرة، سواء الوجود قبل او بعد، او الفناء قبل او بعد هذه الحياة، ولكن هل هذا البوح هو كبوح المتمنطقين بالتحذلق، واللعب بالكلمات، والتمشدق بها؟ هنا وقفت جامداً لا أستطيع الحراك، فقررت أن أخرج عن كل ماعرفت، وتوجهت منطلقاً باحثاً عن السبيل، فحتى وإن كان المتمنطقون في ذروهم فهم مازالوا مرتبطين بالعامة المطبوعين على الكسل والاستنامة الى ما ألفوه من العادات الفكرية، والعلمية، والفقهية، والمنطقية، وكل هذا وهو يستند إلى شيء واحد، وهو المصلحة الخاصة، فكل غني بما عنده، فإن هُدِد هذا الغنى سواء مادي او فكري، بدأت إفرازات المقاومة تستعد لحشد قواها دفاعاً او هجوماً، فيكون هذا كله تعصباً ويكون جهلاً، لان القديم لا يقبل الجديد والجديد سيكون قديماً لا يقبل الجديد، ومن يقبل الجديد سيرفض القديم الذي هو نتاج القديم، فالخوف سيأخذ بهذا ويُكون جبلاً جديداً يناهض الجبل القديم، وينقسم الناس الذين كانوا في نفس المنزل الى منزلين، فتكون الحرب أكثر ضراوة ودموية، ومهما كان دفاع القديم فإن الجديد ينتصر، وهذا لان الجديد هو تحرر من القديم، فيرفض الناس الجديد ولكن يعتنقوه تحت عباءة القديم، وتدريجياً يكون مايكون من هذه المستجدات الغريبة، فيصبحون تُبّع لهذه المستجدات وليس للقديم، وإيجاباً أو سلباً، كتشويه الدين بالديانة وإضطهاد الديانة بقياداتها للعلم، الذي هو بقياداته يضطهد هذه الديانة والغلبة لمن يقف معها من العامة، فالفكر مجرد سوط على ظهر العبيد، أذ رفض العبيد

السوط،فهو إما ان ينتصر، وإما ان يخسر، فهنالك عبداً يقبل السوط، وهنالك عبدا يرفضه، فالعبد الذي يقبل هو الطبيعي في حياة إستند على جبال من أكوام متداخلة مشوهة ونسى قاعدتها الاصلية، والعبد الذي لا يقبل بالسوط سيستمد أفكاره من القاعدة الاصل، البسيط من الافكار المتناثرة المتنوعة، ويقول بإني لأكون واقِفاً في الجحيم أفضل أن أكون راكعاً في الجنة، وهذا مافعلته أنا، فرفضت أن أكون عبداً لافكار أنهشُ منِها كما كان ينهش منها قبلي من العامة والمتمنطقين، الفرق إن المتمنطقين، مستكبرين بها يهجرون، لكن هو بالنهاية نفس الوليمة يتشارك بها الاثنان، كل بطريقته، ولكني بعد هذا كله أرى نفسي أيضاً مازلت عبداً، فإني وإن تحررت، مازلت أتبع نظرة بروتاجوراس[١] حينما قال إن الانسان هو المقياس الاصلي لكل شيء في العالم، فما خشيت أن يكون مصيري مانو[٢] وهيباطيا[٣] وغيرهم على مر التأريخ من إخناتون والحلاج وغيرهم، فلربما أن أكون مثل هؤلاء أفضل من أن أكون ككيرلس[٤] ويزيد إبن معاوية، فبدأت بتكوين شيء خارج هذه كله ، ولكن بعد السفر والترحال وجدتها أثافية، فما وجدت القوانين إلا وحي من الخيال والاوهام، هذه الجبال هي لا شيء، فكلٌ بما يريد، ولعلي أرى في جورجيس بن بختيشوع[٥]، وإبن سينا المصدر الملهم الملهم لما أريد، فلربما ماقالت الفيدانتا[٦] صحيح، بأن هذا الانفصال لا وجود له ولا حقيقة له، وإنما هو يبدو على السطح فقط، أما في قرارة الاشياء فليس سوى الوحدة بالفرد الذي هو جزء من الكل، ولربما إن من وصل الى هذا فقد إنقشعت عندئذ عنه الغشاوة، فهذا زال لربما يراه الناس هو الشر كله، ولكن زال إنقشعت عنه الغشاوة، فهو

---

١ فيلسوف أغريقي يعتبر من اعظم فلاسفة الاغريق

٢ مانو: نبي فارسي

٣ Hypatia: هيباطيا او هيباتيا: تعتبر من أشهر فلاسفة الاغريق وهي أيضاً عالمة رياضيات، قتلت و حرقت ومزقت كتبها بعد إتهاما بالالحاد والهرطقة

٤ Cyril كيرلس الاكسندري: هو راهبا مسيحياً هو من خطط لقتل هيباطية

٥ طبيب مسيحي للخليفة ابو جعفر المنصور

٦ مجموعة من التقاليد الفلسفية المتعلقة بمفهوم تحقيق الذات والتي يفهم المرء من خلالها الطبيعة المطلقة للحقيقة

يعلم من هو ولماذا أختار الطريق، فهو سعيد بالمغامرات ولا يدانيه شعور بالالم لوهلة، تقبل من يكون وأراد أن يكون كما يريد أن يكون حتى وإن كان السوط على ظهره فهو بنفس الوقت يمسك سوطاً لا يريد الاستغناء عن الاثنين، وانت لا توجد عليك غشاوة فانت لا يوجد في يدك سوط، ولا تمسك واحداً، فأنت كما قلت لم تتبعني بأمر ولكن أنت تقوم بما تقوم بأرادتك ولو كنت مغلولاً مهما كان السوط عنك غائب، فبعد هذا كله، ايقنت بإنني لن اكون من المتمنطقين ولا من العامة ولكني منهما سواء، فالقوانين تعجز أن تكون، حتى يؤيدها رأي عام، فكيف أعطي رأياً دون أن يكون على العامة، وأنا لست منهم، فبدأت التجوال والترحال، فأنطلقت من بغداد ماراً بجلال الدين الرومي وكان جلال صغيراً، لكن عقله كبير، وهذا يدل على إن إحدى الاراء التي على قمة الجبل لا صحة لها، بإن الاطفال ليس لهم رأي، فإن الطفل رأيه ضروري، فإذا أخطأ فقد تعلم واكتسب خبرة، واذا أصاب فإنه قد نضج في رأيه وحكمه ايضاً، ثم مررت بأوربا، وأنت كنت معي، مررنا بإمبراطورية نيقية وأقمنا عند أندرونيق باليالوج، ثم البلغار وأقمنا عندهم، وقتلنا القنطورس، وإنطلقت أنت الى والدك، وتوجهت أنا الى الروس، عند أليكسندر نفيسكي، حتى وصلت الى والدك، الذي كنت قد تعرفت عليه من قبل وأنقذتك من براثن العار الذي كان اهلك يضعونه عليك، وأمروه بأن يقتلك لانك إبن زنا، فطردني والدك بعد هذا، حينما كنت أحاول أن أجد حلاً للهدنة بينه وبين نفيسكي، وبقيت أنت مع والدك، تحارب لأستقلال السويد، ثم مررت بالسكسونين وتعلمت من ساكس الغراماطيقي[1]، ومررت بلويس القديس، وفريدرك الثاني، وصاحبتهم، ودرّست في جامعاتهم، وتعلمت منهم، فتوجهت الى روجر بيكون، وتعلمت من روبرت جروسيتيست[2]، ثم إنطلقت مرة أخرى راجعاً، متعلماً مكتشفاً، وبرفقتي أنت، والشاب

---

١ :saxo Grammaticus مؤلف وكاتب دنماركي

٢ robert grosseteste: فيلسوف ولاهوتي وعالم إنجليزي

الذي ولد غريباً عن هذا العالم، الذي وضعته بحماية العنقاء منذ كان صغيراً، وها أنا على نفس الطريق، ومازلت أتعلم، لربما الكثير من المتمنطقين أو العامة يقول بأنه مازال لا يعلم، وإنه مازال يحاول البحث ولكنه عندما يتكلم يبدو من كلامه إنه ذو علم عظيم، ولا يقرب لمنزلته أحد، فيكون من المتمنطقين المعهودين او من العامة المعروفين، هذا ياصديقي بشيء بسيط من أنا".

فسكت گريگرس للحظات، ثم وقف على قدميه وكأن وجهه الشمس، ذهب عنه الترح وتعب الصحراء في الاشهر الماضيه من التيه، ونظر الى يمينه وشماله، وعيناه براقتان، يحمل الرمح بيده، وكأنه مازال في ريعان شبابه، خرج من منزله تواً بعد نوم هانئ واكل مليح، وقال للعارف "لم أفهم شيئا مما قلت، ولكني لن أموت هنا في هذه الصحراء" ويبدأ گريگرس بالمشي متجهاً الى حيث يعتقد بأنه الطريق الصحيح.

فنظر زال الى العارف مبتسماً إبتسامة خبيثة ولم يقل شيئاً.

الدِّمنة[1]

بعد أشهر من التيه في الصحراء، وكان لگريگرس روح قوية، لم يكن يأبه بالتعب والحر الذي يصيبهم، حتى إن مزاجه كان منشرحاً في بعض الاحيان، يحاول أن يمازح العارف، وزال، والطارق الذي لم يتكلم كلمة واحدة.

"هيا يا زال، هل أحببت يوماً؟" يسأل گريگرس زال في إحدى الليالي.

"نعم" يجيب زال وكان وجهه خجولاً.

"حدثنا" يسأل گريگرس.

"إسمها توموي گوزين[2]، كانت أكبر مني عمراً بخمسين الى ستين عاماً" فتبسم زال عندما رأى الدهشة على وجه رفقائه "كانت من الأونا بوگيشا[3]، محاربة عظيمة، كان بإمكانها أن تقسمك نصفين بضربة واحدة وهي تبلغ السبعين عاماً ياصديقي الهمجي، كانت جميلة جداً، حتى وإن كانت في هذا العمر الكبير".

"وماذا حدث؟".

"بعدما أستدعاني شيخ الجبل، لكي أقابلكم، كان عليّ أن أودعها، فطلبت مني أن أعطيها موتاً مشرفاً وجميلاً، لتخرجني من مدرستها، لتعليم فن جديد من أسلوب الساموراي المتخفي، فتبارزنا، وقبلها سيفي، وودعتني ببسمة ذابلة، ودمعة صافية".

---

١ الدِّمنة: الحقد القديم الدائم

٢ :Tomoe Gozen محاربة ساموراي مشهورة

٣ :Onna-Bugeisha محاربين الساموراي من النساء

فسكت الجميع قليلاً "هل هنالك شيئاً قمت به في حياتك لا ينتهي بموت أحدهم؟" يسأل گريگرس.

"من يؤمن بشيء يموت من أجله" يرد اللص على صديقه المحارب.

"ولكن الموت في نظرك هو شيء جميل" يحاول گريگرس مناقشة زال.

"لا ياصديقي، كان الناس في العهود الغابرة منذ الاف السنين، يلبسون الابيض وذلك فرحاً للميت، أما الان لأن الناس أصبحت متعلقة بالحياة وإن كانت بأئسه، فأصبحوا يلبسون الاسود، وينظرون الى الموت بأنه أسوء شيء يمكن الوصول اليه، وأنا مؤمن بإن الذي مات يبكي على الذين يعيشون بسبب حياة القطيع، فهم يأكلون ويتكاثرون وينامون، وعندما يتكلمون لا يحدثون غير جلبة لا مغزى منها، فأصبحت المرأة عورة، والحب عذري، والحرب وسيلة بعدما كانت فخراً وعزة، وأصبحت الدِيانات تقرر أمور الحياة العادية، فأصبح الخوف هو مصدر قوتهم، يخافون من الموت، ومن الله، أغبياء يخافون من ربهم!"

"إذا كانوا مخطئين لماذا لا يخافون؟ فالالهة تعذب من يخالف قوانينها".

"بالضبط، فإذا لم تخالفه إذن أنت مؤمن به، بكل بساطة، ولكن الاغلبية لهم نزعة الانتماء والعصبية، ولكنهم قلما يغمرهم الايمان، فيخافوه لانهم يعلمون إنه غاضب ليس بسبب سوء أعمالهم، ولكن بسبب سوء إيمانهم به، فهم يعلمون بإنهم مؤمنون إيمان موروث، خذني أنا على سبيل المثال، عندما أمنت بأهريمن لم أخلف له قانوناً، فكما يقول علي ابن أبي طالب، من أصلح سريرته اصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس، فالمشكلة ليست بالإيمان، المشكلة بالمؤمنين، لربما ملحد مؤمن خير من مؤمن ملحد".

"لماذا انتم تتكلمون بلغة لا افهما؟ يا سيدي هل توافق على ما يقوله بالرغم من إني لم إفهمه تماماً"

"أعتقد إن ماقاله صديقنا صحيح، ولكن ليس الطريق الذي إتخذته انا في حياتي" يرد العارف.

"وماذا تعتقد أنت؟" يسأل گريگرس الطارق.

"أنا طارقي" ولم يكمل جوابه فكان ينظر الى شيء بعيد.

"ماذا هناك؟" يسأل زال ويقف بجنب الطارقي وكأنهم يستمعون لشيء غير موجود.

"إذاً؟" ياتي صوت العارف مقاطعاً الصمت بين الطارق وزال.

وفي هذه الاثناء سمعوا صوت قوياً، وبدأت الارض تهتز على شكل متقطع، وكلما مر الوقت، ترميهم الارض الى الهواء ويسقطون على الارض تارة اخرى.

"ماهذا؟ زلزال؟" يسأل الطارقي.

فسكت العارف، ووجه متصبب بالعرق، ولاح لهم كائن عظيم، قدماه على الارض ورأسه في عنان السماء، قد غطى الشمس بظله، فكانوا ينظرون له وهم كالهشيم المحتضر.

"ماذا تفعل هنا؟" يصرخ العارف بالعملاق الكبير.

فلم يجب العملاق، فنزل على ركبتيه وقرب رأسه من التائهين الاربعة في الصحراء، ونظر إليهم وكان يتكلم بشيء لم يفهمه العارف.

"ماذا بك؟ هل أصبحت كالعجماء؟".

"لقد تعبت من البقاء هكذا، أريد الموت، فالحياة لا تطاق، فالناس كثر، والمدن في توسع، ولم يبق لي مكان، فأتيت لهذه الصحراء، إذ لا أحد فيها".

فتنهد العارف وقال "أعرف يا صديقي، ولكن هذا هو قدرك".

"أنا لست كما يقولون عني".

"أعرف".

"من هذا، يا سيدي؟" يسأل گريگرس.

"إنه عوج بن عنق" يرد العارف "أخر العماليق" فينظر العارف الى عوج ويسأله "إنتبه لنفسك، لا أريد أن أسمع خبراً حزيناً".

"إن هذه الصحراء شاسعة، والناس فيها قليل، سأكون بخير".

"يا عوج" ينادي گريگرس "هل لك أن تدلنا على موقع ماء قريب؟".

"جير[1]! يالسعادتي، سأستطيع أخيراً أن أساعد العارف" وإنطلق عوج وساروا خلفه، حتى وصلوا منطقة فيها من الخضرة، ومياه، وأشجار، فشربوا من الماء، وأستلقوا تحت ظل الاشجار، وودعوا العملاق، ومازالت خطواته كالزلزال المتقطع.

"لربما هذا هو السبب الذي جعلنا ان نذهب الى سونداياتا" يقول العارف لزال.

"هل تعتقد إن هذا كل شيء؟" يسأل زال العارف.

"لا، أعتقد إن مهمتي مع عوج لم تنته، وهنالك شي لا أفهمه يحدث، كن متيقضاً".

"بالتأكيد".

---

١ جير: نعم

الكل كان نائماً، إلا زال كان مترقباً ومتيقضاً، رأسه مليئٌ بالافكار "هذا المكان مألوف" يقول لنفسه، وبعد مرور يوم، وخيم الظلام تارة أخرى وتوسد كلٌ مضجعه ونام، إختفى زال منطلقاً تحت سرادق الليل المظلم، عندما كان أصدقائه ينعمون بالراحة، والنوم تحت ظل الاشجار.

ثم أشرقت الشمس، فنهظ كل من العارف، وگريگرس، والطارق يجدون انفسهم في قفص من خشب، معلقين من على صخرة كبيرة، وهنالك أشخاص زنوج يحملون رماحاً يحرسونهم.

"أين نحن؟" يسأل گريگرس "كيف وصلنا الى هنا؟ أين زال؟".

إستمرت التساؤلات تنهش أفكارهم، فهم لايعلمون ماذا حصل، فالذين سجنوهم لايردون على أسئلتهم، بل يجلبون لهم الطعام فقط، ويجبروهم على الاكل الكثير، حتى خيم الليل بعد يوم طويل من التساؤلات، فيسمعون صوتا يأتي من فوقهم، وأذ بزال واقف على القفص.

"مالذي يحدث؟" يسأل العارف.

"أنتم في أرض أكلي لحوم البشر!" يجيب زال.

"كيف وصلنا الى هنا؟".

"إن الماء الذي شربتموه، مُخدر، هل قدموا لكم الاكل؟".

"نعم".

"غداً سينقلوكم الى رئيسهم".

"إذا يجب علينا ان نخرج من هذا القفص".

"لا أعتقد، سنقاتل هذه المرة".

"لقد رفضت القتال مع المانديغي والطوارق، والان تريد أن تقاتل أكلي لحوم البشر؟".

"إنه ثأر قديم، أشبه بالدِّمنة، ويجب أن نقوم بهذا".

"هل جننت؟" يقول گريگرس، الذي بدأ الغضب يتملكه، ولكن العارف هدأ من روعه وقال "سنقوم بما قال به زال".

أشرقت الشمس، ففتح الحرس القفص وأخذوا كل من العارف والطارق وگريگرس أسرى، يمشي الثلاثة مستغربين لما يروه، فهم يسيرون في صحراء بين صخور كبيرة، منحوته على شكل أقواس، وبعضها على شكل أناس، تماثيل عملاقة، لربما أجمل ما رأى گريگرس من الطبيعة الصحراوية الصخرية[1]، فهي تشبه حجر الشاهد[2] القادم ولكن بعدد هائل "الالوف منها، بأشكال كثيرة وجميلة" يقول گريگرس.

"نعم، أتفق معك" يرد الطارق.

ثم بعد المسير بين وديان من الصخور المنحوتة بعنصر الزمن والمرور بمنازل صغيرة منتشرة هنا وهناك، وصلوا الى ساحة مفتوحة محاطة بالصخور الجميلة الغامقة اللون، وهنالك يقف حشد من الناس يتعبدون، متوجهين الى فتحة مغارة في الصخور، ثم نفخ أحدهم في بوق، وتقدم إثنان يجرون خلفهم إثنان من السجناء، فوضعوهما على صخرة ونحروهما فأكلوهما، كان المنظر مروعاً، وبعد وقت قليل لم يبق من السجينين الا عظام هشيم.

---

١ مقاطعة إنيدي في تشاد Ennedi of Chad

٢ Menhir: يسمى بالعربية الحجر الشاهد، وهي أحجار كبيرة تنصب على القبور تكثر في بريطانيا وأسكتلندا وتعتبر من الاشياء التاريخية الاثرية والمهمة في التاريخ القديم لهذه المناطق

كان زال واقفاً على قمة أحد الصخور، مترقباً المشهد، وبعد لحظات تقدم أحد من الحشد، ويبدو من لباسه إنه كبيرهم، فوقف يخطب فيهم، حتى سمعوا صوتاً قوياً، وكأن المغارة بدأت بالكلام، فخر الحشد سجداً، وظهر من المغارة كائن كبير الحجم كالمسخ، أكبر من گريگرس بأربع مرات، وجهه ممزق، لا جلد عليه، ليس له عينان، أسنانه كبيرة بحجم رمح گريگرس، ظهره يتكون من حراشف التنين الصلدة كموشخوشو[1]، له أربع أجنحة باليات كبازوزو[2]، له قرون من العاج، يمشي على اربع، الاماميات مكونة من مخالب نسر، والخلفية من أظلاف ثور، وله ذنب عقرب ذو حمأة سوداء كجيروتبلولو[3]، ذو جلد عطن[4]، فنظر الى العارف وقال "أهلاً يايها العارف، الم أقل لك من قبل، إن لا مهرب من قبضتنا؟ إذا إستطاع لصك أن ينقذك من يدي القرصان بقوة العنقاء والسمندر، فهذ المرة لا مناص من الموت، قد أرسلت عليكم الريح لتتيهوا في الصحراء، وعلمت بإن صديقك عوج سيدلك الى هنا" فتقدم هذا المسخ نحو گريگرس قاصداً الهلاك للعارف، فكان على بعد مسافة قريبة من گريگرس الذي وقف امام العارف كعادتة مدافعاً، وكان لا يعلم مايفعل، وفي تلك اللحظات نزل زال من فوق كأنه نسر يهبط بهدوء فاتحاً ذراعيه، كأنها أجنحة، يعترض طريق المسخ، يحمل أسلحة أصدقائة من الرمح والدرع والقوس، فأعطاهم أسلحتهم، فأخذ گريگرس رمحه ودرعه، وأخذ الطارق قوس الفايايا، فنظر زال الى المسخ، وقال "أرى أنك قد تغيرت كثيراً، يبدو أن الهة العالم التالد قد وهبوك أقوى أسحلتهم، يا عزيزي الغول".

---

١ موشخوشو: حيوان بابلي اسطوري ويعني التنين الاحمر الناري وهو كائن له رأس أفعى بقرنين وجسم مغطى بحراشف أفعى وقائمتان اماميان على شكل مخالب اسد، وقائمتان خلفيتان على شكل مخالب نسر. وهذا الكأن مشهور فهو التنين الموجود على بوابة عشتار الزرقاء المشهورة

٢ Pazuzu: وهو ملك الشياطين والعفاريت في الاساطير الاشورية

٣ Girtablilu: وهو كائن خرافي سومري، يسمى بالرجل العقرب، وهو أنسان له جسد وذيل عقرب وهي مشهورة في ملحمة كلكامش تحمي بوابة اله الشمس

٤ عطن: نتن الرائحة

فنعر الغول بغذمرة[1] عالية، وأبدى نواجذة[2] الحادة البيضاء وقال لزال"سندباد! أنت لص العارف؟ لقد هربت من قبضتي تلك المرة، ولن تهرب هذه المرة من الموت" بصرخة كلها وهل، وحشرجة.

فقفز زال السندباد على الغول، وبدأت المعركة، فيرفع الطارق قوسه ويبدأ بأطلاق وابل من السهام، والمحارب يقتل بالعشرات، ولكن يبدو أن المعركة بين الغول وسندباد قد طالت أكثر مما ينبغي، وبدأ التعب يرهقهم، وفي إحدى اللحظات، قذف الغول سندباد على الارض، وسمع العارف والمحارب صرخة إمرأة، فنظر الثلاثة الى الطارق، وكان لثام الطارق قد سقط من وجهه، ولاح وجه إمرأة حسناء، وهي تينهنان، فالطارق الملثم هو تينهنان كل هذا الوقت في الصحراء، فتوقف الوقت أمام العارف، والصدمة تعتلي وجهه، إنها تينهنان، الملكة التي أعادت النبض الى فؤاده، تقف هناك، يحاصرها ثلة من الاعداء، وإن الموت قد فغر فاه عليها، فأخر العارف الكتاب الذي أعطاه إياه زال عند خروجهم مِن لندن، وبدأ العارف يقرأ بسرعة، فأغمض عينيه، وتمتم بكلمات، فتجمعت قواه، وأنطلقت موجة أثيرية من يداه، تطرح كل من كان يقف أمام تينهنان، ويخر أكلوا لحوم البشر صرعاً، ولكن هذه الموجة لم تؤثر في الغول شيئاً، وكأن القوى التي اطلقها العارف ماهي الا سيمياء أحد السحرة المبتدئين، فصرخ الغول تارة اخرى بغذمرته، وكان خلفه يقف جمع من أكلي لحوم البشر لم يتأثروا بما ألقاه العارف، لكن إستطاع العارف بهذا إنقاذ تينهنان.

"إنه لا يموت" يقول سندباد لگريگرس.

---

١ غذمرة: صوت الاسد
٢ نواجذ: أسنان

فنظر گريگرس الى الغول، ونظر الى تينهنان والعارف، وعلم أن عليه إنهاء هذه المعركة بأسرع وقت ممكن، فنظر الى الغول تارة أخرى الذي كان مرحباً بالمتحدي الجديد "إحمي العارف" يقول گريگرس لزال.

"إنه لا يموت، فكلومه تلتئم بعد لحظات" يرد زال على گريگرس.

"سنرى" يقولها گريگرس، وعيناه تشع أصرار وثقة، وينادي على العارف ليعطيه حدأة[1] قد وقعت عينا گريگرس عليها، فرمى العارف له بالحدأة.

"سأجعل من أسنانك رمحاً لي ومن أجنحتك البالية فرشة أنام عليها، وسيكون ذيلك المسموم نطاقاً لي" فأنطلق گريگرس يحمل الرمح بيده اليمنى، ويلبس الدرع بساعده الايسر، ويحمل الحدأة بيده اليسرى، فهجم عليه الغول وبعد ضربة واخرى، خرق گريگرس رقبة الغول برمحه، كأنه سيخ، فبدأ گريگرس بالركض وبدأ التسلق على طرف الغول الايمن برشاقة، وكان الغول يقاتل بكل ضراوة بمخالبة ونواجذه، وبدأ رأس الغول يستدير فكان گريگرس يأخذ يرسم دائرة حينما أنطلق وهو في الوقت ذاتة يضرب عنق الغول بالحدأة كأنه يقطع خشباً، وصعد على طرف الغول الايمن حتى وصل على كتفه، ومازال يوجه الضربات بالحدأة على عنق الغول، ثم فوق ظهرة فأصبح رأس الغول بالمقلوب، فلمعت حمأء الذيل السوداء، وتحرك الذيل حركة سريعة خاطفة نحو گريگرس، التي صدها، ثم تحركت أجنحة الغول وبدأ يرتفع عن الارض مسبباً رياحاً متربة قوية، تخلخل من توازن المحارب الاشقر، ولكن أرسلت تينهنان سهماً نحو أحد الاجنحة، ورمى زال سكيناً مدوراً نحو جناح أخر، فتخلخل طيران الغول الذي مازلت حمأة ذيله توجه الضربات نحو گريگرس، الذي مازال ممسكاً بالرمح، فهبط الغول تارة اخرى على الارض، وبدأت حراشفه الصلدة يتغير لونها، فعلم المحارب أن الوقت قد

---

١ حدأة: فأس ذو رأسين

حان للقضاء على هذا الوحش قبل أن يوجه ضربته التالية، فأستمر گريگرس بالاستدارة حتى وصل الى كتف الغول الايسر ونزل على أطرافه اليسرى، مازال الرمح يدير رأس الغول ومازالت ضربات الحدأة تقطع اللحم مخترقة الحراشف الصلدة، حتى عاد گريگرس الى مكانه أول مرة تحت رأس الغول، فعاد گريگرس خطوات قليلة، وفتح ذراعه، فوقر صراخ الغول ءاذانهم، وبعد لحظات إنطلق رأس الغول الى السماء، وتدفق الدم من عنقه كأنه شلال اخترق سداً، فغمر الدم المنهمر الغيلم[1] بشعره الذهبي ولحيته متخضباً بالحناء القانية المهراقة من رقبة الغول.

فبدأ الجمع الذي لم يبق منه الا القليل بالهرب بعدما شاهدوا رأس الغول يتدهدأ[2] على الارض، وكانت تينهنان، وزال، والعارف ينظرون الى گريگرس الذي كان في جذل مبجل من تحته تمور الارض بالدماء وخلفه الغول كعجز نخل منقعر.

---

١ غيلم: شاب عريض المنكبين ذو شعر كثيف
٢ يتدهدأ: يتدحرج

معبد بيلاخ

خيم الليل بنجومه المرصعة في الصحراء، وكان زال يبحث عن الغنائم في المدينة المستقرة بين الصخور بصحراء تشاد، وكان گريگرس يغسل جسده المخضب بالدماء، بعد أن علق قلادة من أنياب الغول على رقبته، وكان العارف يجلس مع تينهنان، يغسل جروحها ويعقمها، وكان يعتني بها، ولكن لم ينطق بكلمة معها، وكانت تحاول الكلام معه ولكنه كان غارقاً بإحزانه، فلقد ظن بها ظن السوء طول فترة التية في الصحراء على انها فارقته، ولكنها كانت أمامه كل هذا الوقت ترافقه ملثمة بزي طارق، وكانت الحسرة تعذبها، فكانت تفكر بإن هذه الرحلة لا صواب فيها، وإنها لعشقها إنطلقت ترافق العارف، ولكنها عرضت حياتهم وحياتها الى الخطر، فلا تعرف كيف ضاعت في عرض الصحراء، وهي ابنة الصحراء، وتستطيع التكلم مع عزيفها، ومخاطبة رياحها، والغور في رمالها، لكن كما يبدو أن هنالك قوى تقاومهم أكبر من قوى الطبيعة، قوى لا يجرؤ أحد على تحديها، ولكن العارف، بصحبته وأصراره وعزيمته، كان يجتاز المصاعب والعراقيل الطبيعية وماوراء الطبيعية، حتى وإن لم يفهموها ولم يفهموا من يحركها.

كانت تينهنان نائمة، يحرسها گريگرس، وكان العارف وزال على قمة إحدى الصخور في نقاش.

"لا أعلم" يقول زال "بعد معركة السفينة، لا أستطيع التنقل بالاختفاء، عندما أحاول التنقل، أحس بأن ذراتي تنتقل الى بعد أخر، وأرى أطياف الناس الذين قتلتهم في

الماضي، ووجه الهولندي الطائر[1] النتن مكشراً، وأرى وجه العنقاء هناك، لهذا السبب إستدعيت السمندر، فلم أجرب مثل هذا من قبل".

فنظر العارف الى زال مهموماً "يبدو أن قدرك أن تذهب هناك".

فتبسم سندباد قائلاً "لا عليك، حتى ذلك الوقت، ستكون رحلة جميلة".

"لا أعلم مالسبب، سأحاول أن أجد لك حلاً عندما نصل الى الفسطاط[2]"

"لن نذهب مباشرة الى هناك، علينا الذهاب جنوبا اولاً، لا نستطيع دخول مصر في هذا الوقت بهذه السهولة، الحروب في أوجها، سندخل مصر كتجار، أنا معروف بمصر بإسم الشهبندر أقطاي".

فضحك العارف "لماذا هذا الاسم؟".

"يجب أن يكون لي إسم من أسامي المماليك".

"ما أخبار مصر؟" يسأل العارف

"لقد مات الملك الصالح نجم الدين أيوب أبو الفتوح، وأخذت شجرة الدر مكانه مدة ثمانين يوماً، ثم اعتلى العرش عز الدين أيبك".

"وكيف مات؟" يسأل العارف.

"ملك قطعت قدماه، ولايستطيع الحكم في ذلك الوقت، وكانت الحروب الصليبية بقيادة القديس لويس قد بدأت، فدسست السم في أكله فمات".

"هل تريد أن يدخل الصليبيون مصر؟".

---

١ الهولندي الطائر: هي من الفلكلور تتحدث عن سفينة أشباح، وهي التي بنينا عليها قصة القبطان وقراصنته.
٢ الفسطاط: إسم القاهرة القديم الذي بناه عمرو بن العاص عندما دخل مصر.

"أنا لا أريد شيئاً، لكن نحن نمهد لبيبرس الطريق ليعتلي العرش".

"ألهذا السبب قتلت أقرباء لويس القديس؟".

"نعم، كيف تعتقد أن شجرة الدُر استطاعت الزواج بالملك الصالح، فهي من أحسن الحشاشين، إستطاعت التغلغل في صفوف المماليك، وأدت دور الخادمة، فكان كل شخص أقوم بأغتياله، يكون الامر منها".

"الموضوع أعقد مما كنت أتصور، لماذا بيبرس؟"

"إنه المنشود، ذكي، قوي، شجاع، حكيم، وكل الصفات اللازمة لكي يكون حكم مصر قوياً".

"وما قصة سندباد؟".

"عندما خرجتَ أنت من بغداد، وكنتَ وزيراً عند أندرونيق باليولوج[1]، أنا بدأت صعود المراتب في صفوف الحشاشين، أردت القيام بمغامرة مختلفة، فإنطلقت من البصرة مع بحارة، وتحطمت بنا السفينة قرب ساحل، وضعنا في الارض، فلا نعلم أين نحن، ووصلنا عند أرض أكلي لحوم البشر، وأستطعت الهروب منهم، فجن جنون الغول، فأصبح بيني وبينه ثأر".

"الا تعرف أن تبقى في منزلك لفترة؟".

"وكأنك لا تعرفني! هل تريد شيئاً أخر؟".

"أريدك أن تجلب لي هذا قبل الوصول الى مصر "وأخرج له ورقة مرسوم عليها العنخ".

"ماهذا؟".

---

١ Andronikos Palaiologos

"يسمى العنخ، وهو مفتاح الحياة عند المصريين القدماء الفراعنة، أريدك أن تجلب لي أجمل عنخ ليكون قلادة".

"حسناً سيكون لديك عندما نخرج من دنقلة".

"هل تريد شيئاً أخر، أيها العاشق؟" وأنطلق زال راكضاً من من أمام العارف، وسمع العارف زال يقول "سننطلق غداً".

فوقف العارف للحظات وحده، فصفر صفيراً متقطع، وبعد لحظات سمع زلزال دعس عوج بن عنق، فإقترب من العارف "هذا منزلك الجديد يا عوج".

"شكراً يا أيها العارف".

وطلع النهار، وأنطلقوا متوجهين الى المقرة، تاركين خلفهم عوج، يسك في منزله الجديد، لربما سيقوم أكلي لحوم البشر بعبادته الان بعد موت الغول، وهم في الطريق يسأل گريگرس "لماذا لا نتوجه الى مصر مباشرة؟".

"أولاً، لنستريح، ثانياً، الدخول الى مصر صعب في هذا الوقت، الا عن طريق التجارة، ثالثاً، الوضع في المقرة مستقراً جداً، فنستطيع المكوث هناك دون متاعب".

"هل هنالك مكان مستقر في هذا الزمان؟".

"أتفق معك يا عزيزي، ولكن المقرة لم يدخلها المسلمون، ووقعت معاهدة بينهم، ولهذا ستجد أن المقرة[1] دولة مسيحية قديمة، منذ أيام أنتشار المسيحية على يد اليعاقبة، وعاصمتهم دنقلة، فكل شيء فيها هادئ وساكن، سنقوم بأخذ البضاعة من هناك من

١ المقرة: مملكة كانت توجد في جنوب مصر وشمال السودان، وكانت واحدة من الممالك النوبية التي عاشت بسلام لمئات السنين بعيد عن الحروب الاسلامية وغيرها إبان تلك الفترة.

العاج، والقمح، والنبيذ، والحرير، والظلمان[1]، وغيرها من السلع، ومن بعدها سننطلق الى مصر".

وأنطلقوا، فوصلوا الى دنقلة بعد مدة، واستقروا فيها وارتاحوا، واشترى زال البضاعة، وكان العارف، وگريگرس، وتينهنان منبهرين بالدور الذي إتخذه زال، فهو الان التاجر الموقر الذي تحطية الغانيات والقانيات، ويتزلف له التجار والرهبان، فهو الشهبندر الشهير ذو المال الوفير، وعندما فرغ زال من دوره الذي قام به، أرسل بالاخبار، إن الشهبندر سيأتي الى مصر، ليمهد الطريق، و يحضر القافلة للتوجه شمالاً.

"سنتأخر هكذا مع القافلة" يقول گريگرس.

"لم العجلة؟ سنترك القافلة بعد الوصول الى أسوان، دعنا نتمتع بالغنى والنساء، قبل أن نبدأ بهذه المغامرة التي لا تنتهي".

"لك ماطلبت" يقول زال للعارف ويعطيه القلادة ملفوفة بحرير.

"شكراً".

وأنطلقت القافلة، حتى وصلوا أسوان بعد شهر، فلما وصلوا، أندهش كل من تينهنان وگريگرس من رؤية المعابد القبطية القديمة، من معبد ابو سمبل وغيره من المعابد والصروح من التاريخ العتيق، وكان العارف يشرح لهم تأريخ مصر التليد العريق، ماراً بمينا[2]، ثُم خوفو، فإنتف[3]، فحتشبسوت، فأمنحتب الثالث، فأخناطون، فرمسيس الثاني،

---

١ الظلمان: ومفردها ظليم وهو النعام

٢ الملك مينا موحد القطرين، ملك من الأسرة المصرية الأولى مدينة طيبة، استطاع أن يوحد القطرين (المملكتين الشمال والجنوب) حوالي عام 3200 ق.م ولقب لهذا الفضل العظيم بعدة ألقاب مثل (ملك الأرضين، صاحب التاجين، نسر الجنوب، ثعبان الشمال). يعتبر الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى القبطية (المعروفة بالاسر الفرعونية).

٣ الملك إنتف السادس والأسم الملكي - سخم رع هر وب ماعت - أحد ملوك الأسرة السابعة عشر

ويتكلم عن إستكشاف البردي، وقصة الفلاح الفصيح[1]، وبناء طيبة ومعابدها، وغيرها من التأريخ المصري التليد العريق، فأعطى العارف القلادة لتينهنان وحدثها عن مفتاح الحياة، الملقب بالعنخ والذي يمثل عنصري الحياة الذكر والأنثى في إطار شكلي لائق، ورمزًا لحقيقة أن الاتحاد المثمر هو هبة من الله، ويعني الحياة الابدية.

"هل إنتهيت من محاضرة التأريخ؟" يسأل زال العارف.

"نعم".

"لا أريد البقاء في المدينة، سنقيم في جزيرة فيله هذه الليلة".

"أسم غريب لجزيرة تقع في مصر" يقول گريگرس.

"نعم، هو إسم أسماه المؤرخ الاغريقي هيرودتس، وتعني الحبيب او الحبيبة" ونظر زال وگريگرس الى العارف وتينهنان اللذين يحاولان بشتى الطرق الا ينظرا الى صديقيهما.

فوصلوا الى الجزيرة، التي كانت كجنة عدن، بخضرتها، فهي محاطة بمياه النيل التي تجري من الجنوب الى الشمال، والقصور الفارهة والمعابد الكبيرة، فكان خير مكان يضطجعون فيه بعد الرحلة الطويلة المرهقة.

كان العارف جالساً على سطح أحد المعابد، منفرداً ينشد لنفسه بصوت مسموع قائلاً "بإطلال مصر تحت دياجير الليل بأسوان، بمعابد بيلاخ ألتمس أوزيرس متقد بالايمان، كالمتقري[2] بين العمد مستاء هملان[3]، ينظم الشعر لمحبوبته بلا قيود وأوزان، ينعى

---

١ الفلاح الفصيح هي قصة مصرية قديمة عن فلاح يدعى "خن-أنوب" عاش في عهد الأسرة التاسعة وتعتبر من أقدم القصص في التاريخ

٢ المتقري: الناسك المنعزل

٣ هملان فاقت العين بالبكاء

نفسه، يذكر خلود إزيس وطهارة تي[1] وهلاك هامان، فما للكلوم دواء، فجرح الصبابة لا ينسيه خمر ابن خيران[2]، فأين الكميت[3] يا يهودي من الكوثر[4]، أم أغلق أبواب الجنة رضوان[5]؟ ومافائدة الراح[6] إن كان صِرف الهوى[7] يُذهب بالعقل كمس الجان، أشكوك يا حورس مُعذبتي، صبت لي الوداد بالاحزان، هل تسمع يا حورس دعس أقدامها كملاك يمشي على القيزان[8]؟ تلبس الحبير المنمنم[9]، رامشة[10]، تنير المعبد ذو الاركان، حُقة المسك[11]، ماطلعت الشمس بل شف سنا تينهنان، برهرة[12]، طيبة النشر[13]، تمشي الوجى[14] بالغنج كملاك الخود الحصان[15]، ككوكب دري، يغطي جسدها سيراء[16] مرقش باللجين والعقيان[17]، مغطوطش[18] الشعر كدجنة العماء فينان، يقبل المسواك ثغر الشنيب[19] كاللؤلؤ لهق[20]، مضمخة الانفاس بالاقحوان، ودلحاء عيناها[21] وضاءة من

---

١ تي: زوجة الفرعون أمنحتب الثالث الذي يعتقد إنه فرعون موسى و تي هي زوجة فرعون التي ذكرت بالقران (كما يعتقد احد الباحثين)
٢ إبن خيران: خمار يهودي معروف عند العرب
٣ الكميت: الخمر
٤ الكوثر: نهر من أنهار الجنة
٥ رضوان: الملاك رضوان خازن باب الجنة
٦ الراح الخمر
٧ صرف الهوى: خالص الحب
٨ القيزان: الرمال
٩ الحبير: الناعم الجديد من الثياب، المنمم: المنقوش والمزخرف
١٠ رامشة: الطاقة من الريحان والياسمين
١١ حقة المسك: رأنحتها طيبة
١٢ برهرة: شابة بيضاء ناعمة الملمس
١٣ طيبة النشر : ذو رائحة زكية
١٤ تمشي الوجى: حافية القدمين
١٥ الخود الحصان: العذارى الشريفات الطاهرات
١٦ سيراء: ثوب حريري
١٧ اللجين والعقيان: الفضة والذهب
١٨ مغطوطش: أشتد سواده
١٩ ثغر الشنيب: رقيق الاسنان
٢٠ لؤلؤ لهق: لؤلؤ الابيض
٢١ دلحاء عيناها: عين تدمع كالسحاب

كلماتي، أنارت على العميد[١] كالسماكان[٢]، كجنة أزهار وأعناب يفوح الشذا من الجيوب الجيوب والاردان، الاثمد الوحف[٣] يزينها، رنا لبهجتها العاشق الولهان، لوافح الوداد حارقة، غير ذو مثنوية[٤] كالسعير ذو النيران، باسقة الى العلى، سورة في العلياء من حور الجنان، متبولٌ أيتها المقدسة، لكي المناسب[٥] لا عذري ولا مُجان، مهضومة الحشا[٦]، مقدودة كالمرّان[٧]، تلبسين العنخ منزهة، يزين اللبَّة[٨]، أم القلادة من اللبة تزدان؟ فهل أنتِ إيسيز أم عشتروت؟ بل انتِ بلقيس هل لي أن اكون سليمان؟ تمشين الهوينا، رميتني بسهم مرصد من قوس مرنان، يطربني الحجال بخطاك المسجوحة بنغم الافنان، تلجين على قلب راهب أشمط[٩]، عدته العوادي عن الحِسان[١٠]، فهل للضال عودة لرحم لرحم الوجود وتوسد بالكفر إيمان؟ عذراً! فالحب جميل، ولكن الجمال عندك ليس له شان، فهل للصبح صياح الديك وهل للمعبد أذان؟ قبليني إن كنت مرحبة، وأرحلي إن تجاوزت وأطلقيني للنسيان".

---

١ العميد: العاشق الذي هده العشق
٢ السماكان: نجمان نيران
٣ الاثمد الوحف: الكحل الاسود
٤ غير ذوم مثنوية: لا ثاني لها
٥ المناسب: قصائد غزلية
٦ مهضومة الحشا: دقيقة في خصرها، نحيفة البطن
٧ مقدودة: ذو قوام رشيق المرّان: كالرمح، أي مستقيمة ممشوقة كالرمح
٨ لبَّة: موضع القلادة من الصدر
٩ أشمط: خالط لون شعره الاسود بياض
١٠ عدته العوادي: صرفته هموم الحياة

فتبسمت تينهنان وأقتربت منه وقالت "شعر المعلمين، قليل الحلاوة شديد الوقع كالخيزران، لا تجلس ها هنا تشكي حبك لي للزمان، فتعال يا عارف بكل شيء الا الحب! وأترك الافتتان، فها أنا هنا عند ربوعك فأقبل وقبّل الشفتان".

فطلع الصبح عليهم وكانت الشمس بلونها الذهبي تلون السماء، مع صوت خرير الماء، ونسيم الهواء، أذهبت عنهم الترح، وتوسموا في رحلتهم أرتياح، فانطلقوا حتى وصلوا مصر، نزل العارف عند البيمارستان ومعه گريگرس وتينهنان، وأنطلق الشهبندر إلى تجارته في الاسواق.

"فرحت بقدومك يا صديقي" يقول شخص سمح الوجه، طيب الخلقة ذو لحية سوداء، يلبس لباس السواعير الذي كان يلبسه السواعير في المغرب، يرحب بالعارف ومن معه.

"إشتقت إليك يا صديقي" يقول العارف "دعني أعرفكم بالنطاسي[1] ابن النفيس".

فسلموا عليه، وتوجهوا الى المكتبة، وجلسوا يتكلمون ويتسامرون، ثم ذهبوا في نهاية اليوم الى منزل ابن النفيس.

"غداً سنبدأ العمل" يقول ابن النفيس "لقد جهزت لك كل ماطلبت في رسالتك التي وصلتني".

"جيد، لقد شرح لي ابن رشد شرحاً وافياً، فهو الذي ارشدني الي مايجب عمله لاكتشاف العلة في بدن زال، وبعثني لك" يقول العارف.

---

١ النطاسي: العالم الماهر والطبيب الحاذق

فنظر ابن النفيس الى العارف ووجه باجل "هذا كرم من ابن رشد، لن أجعل رأيه في علمي الا صائباً".

ومر شهر على العارف وابن النفيس وهم في البيمارستان، يجرون تجاربهم، ويبحرون في فن الطب والجراحة، معتمدين على ماتعلمه العارف من ابن طفيل، وابن رشد بعد ما إستحضر أرواحهم، وكانت تينهنان في البيت مع الحريم لا ترى العارف إلا ماندر، وكان گريگرس كعادته لا يعرف الجلوس، فكان يعمل بجهد، فقد تعلم حرفة التمريض عندما كان في مراكش.

"أين كنت؟" يقول العارف لزال غاضباً، حيث كان غائباً لمدة شهر.

"كان عليّ القيام بشيء مهم".

"أتوقع إن أحداً قد مات؟".

"إنوسنت الرابع" يقول زال مكشراً عن أسنانه للعارف.

فرفع العارف يده الى السماء مستسلماً "هذا أمر منها كذلك؟".

"لا! هذا شيء قمت به للتسلية، فإنوسنت يذكرني بوالدي، فضلاً عن أن إنتصار البابا في صقلية، سيضعف الموقف في مصر".

"هل تقصد البابا إنوسنت الرابع؟" يسأل ابن النفيس وهو لا يفهم.

"هو نفسه" يرد زال.

فسكت ابن النفيس ونظر الى العارف، فشرح له العارف قصة زال، بإنه يقون بالاغتيالات حسب خطة مرسومة، لجعل بعض الناس في مكان الحكم.

وبعد أشهر كانت دراستهم تجري كلها على زال، فهم يحاولن إخراج السم من داخل جسده، كان العارف وابن النفيس يبقون في البيمارستان أيام عدة ويكتشفون أشياء جديدة لم يعهدوها من قبل.

وفي يوم من الايام، خرج ابن النفيس، والعارف تغمرهم البشاشة.

"إرى إنكم توصلتم لشيء" يقول زال.

ففتحوا له ورقة من البردي كبيرة عليها رسم إنسان، قلبه واضح بالرسمة وخطوط حمراء وزرقاء.

"إنها الدورة الدموية الصغرى" يقول ابن النفيس.

"وهذا يعني ماذا؟" يسأل زال.

" إن الدم ينقى في الرئتين من أجل استمرار الحياة وإكساب الجسم القدرة على العمل، حيث يخرج الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين، حيث يمتزج بالهواء، ثم إلى البطين الأيسر" يقول ابن النفيس.

"ماذا تقول يارجل؟ أن الدم يتولد في الكبد، ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن بالقلب، ثم يسري بعد ذلك في العروق إلى مختلف أعضاء الجسم".

"هذا ماكنا نعتقده، ولكن ماوصلنا اليه لا غبار عليه، الان نستطيع إخراج السم من بدنك، لان بعد سحب الدم، واضافة دم نظيف، سيتخلل الدم النظيف الى الجهاز العصبي، وسيشفيك من السقم الذي في بدنك".

أنصاف الحقائق

"أنت النطاسي بحق" يقول زال مبتسماً لابن النفيس، بعدما أستخرجوا كل السموم من جسمه وأصبح بأمكان زال التنقل بالاختفاء.

"إن لديك قوة خارقة يا عزيزي، أتمنى أن يكون إستعمالك لها خير، وأن تقوم بكل ماهو جيد من خلالها" يقول ابن النفيس لزال.

"يا عزيزي النطاسي، لماذا ينظر الناس الى الشر على أنه اداة قمع للخير؟ أتعرف من يقمع الخير بحق؟ الذي لم يعمل خير أبداً".

"وكيف هذا؟"

"هل كانت الفتوحات الاسلامية خير؟".

"بالطبع".
"ولكنها شر الى الذين كانوا يقطنون في البلاد التي فتحت اليس كذلك؟".

"إن البلاد التي فتحت لم تكن تعلم الحق، والفتوحات الاسلامية نشرت الحق لها".

"صحيح أتفق معك، وعندما أصبحت هنالك دولة عباسية ودولة اموية ودولة الاندلس، وأنشقاق المغرب العربي، ودولة الفكر الاسماعيلي، والصفاريون والاخشيديون في خراسان، والايوبيون، والفاطميون والطولونيون في مصر، والحمدانيون في الشام؟" هل يعلمون الحق أكثر من دولة الحق التي أنتشرت أول مرة؟".

فلم يجب ابن النفيس ونظر الى العارف الذي كان منصتاً لصديقه.

"دعني أعطيك درساً في الحياة، إن عزيزنا العجوز هنا" يشير زال الى العارف "فلسفته تفيض بالقول بإن كل شخص يستطيع أن يكون، وإن السياسة لا دور لها في بناء المجتمع، ولكن المجتمع هو من يبني الدولة، وإن نظرية لكلٍ مأربه في نظام متداخل لا يفرض قوانينه، هي نظرية إفلاطونية يدعوا بها أكثر شخص يقاتل ضد الافلاطونية، لا! الحياة أكثر بساطة، لانها كما هي لم تتغير منذ نشأتها، إن المجتمع هو العش الذي تتطور في رَحْمِه عيوب الإنسان وبشكل إنتقائي متكافئ يحدث تطوير مريح لأنصاف الحقائق، لنلقي نظرة مجردة على التجاوزات الغريبة من الأخلاق حولك إن كانت هي أخلاق في المقام الاول، فتُنفَق الاف الدنانير على أسلحة جديدة وقصور عظيمة وغيرها من أجل أن يقتل الانسان غيره من البشر بإنسانية، الجميع ينشئ بنفس الطريقة ويُلقَن الشيء نفسه. يقولون للجميع كونوا لطافاً مع الآخرين، ولكن يجب عليه الفوز بالمنافسة! أكيد بطريقة شريفة، لكن الشرف عندما أصبح هو غشاء البكارة أصبح الشرف ضعيفاً ورقيقاً، حتى لا يعرف متى يكون قابل للأختراق او بكل بساطة صامداً أمام قذف الناس لهذا الشرف المزيف، فأصبحت المنافسة كلوح خشب يطفو على سطح الماء، فاللوح هو الشرف القوي الصلب الذي لا غبار عليه، ولكن اللوح مبلل لانه على سطح الماء، فأصبح الشرف هو لوح خشب مبلل وبمرور الزمن، يصبح الشرف غير موجود فقط لان أستعمال كلمة لوصف عمل لا يكفي، فأصبح الفوز بالمنافسة هو بأستعمال كل الطرق غير الشريفة بمسميات شريفة، وحتى نستطيع تحريك هذه المياه الراكدة نلقن الكل ونقول: إنك مميز، يجب أن تمارس حريتك، يجب أن تؤمن بنفسك، وسوف تنجح، ولكن من الواضح منذ البداية أن ليس هنالك سوى عدد قليل سيتمكن من النجاح، والباقي في قمامة التأريخ، فمارس الجميع ما يسموه "الحرية" وهذه الحياة

هي النتيجة، كل الخطابات منذ بدء التأريخ هي لتجنب النزاعات ولحماية بعضنا بعضاً من الأذى، فوصلنا هنا على القمة كما شبهها العارف ولكن هذه القمة هي ليست الخير وليست الشر، هي الواقع الذي لا يمكن تغييره، الجميع تقهقر من المجتمع عن طريق بوابة صغيرة خاصة به، فأصبحت تكتلات صغيرة تخاف من منتدى أكبر منها، فتبقى على شكل مسميات عرقية أو عقائدية وتتكون لهم "حقيقة" أشبه بال"حرية" ويجب عليهم نشر هذه الحقيقة التي هي أساسها مسمى شفاف إسمه "الشرف"، فيأتي شخص مثل العجوز هنا ويقول إن الكل على حق، أختلف، أنت تقول الكل على حق، ولكن الّذي على حق لا يقبل أن يكون جزء من حقيقة أخرى، فالعالم يعتبر علمه هو الحق ولايقبل أن يدخل تحت حقيقة الدين والعكس الا في بعض الاحيان، وغيرها من الفلاسفة والفقهاء، فوصلوا الى مرحلة متقدمة من الشرف وهو أن لا يُنتقص من أحد، وكل حزب بما لديهم فرحون ولكن كل حزب يعلم إن لا أحد على حق إلا هو، وبعد أجيال تعود النظرية الاولى في الشرف الى الطفو على السطح ويبدأ النداء القديم بالشرف، على سبيل المثال، الاوطان، مبدأ فكرة الوطن لسخافتها تجعلني أشعر بالغثيان، وطن؟ ماهو الوطن؟ كيف يكون؟ من رسم حدوده؟ شخصان؟ ملك عيلام مع ملك أكد تقاتلا، مات الاف الجند، أستهلكت ملايين من أوزان الطعام، ثم يجلس الاثنان على طاولة واحدة، يشربان أعرق وألذ المدام، ويتفقان على حدود بينهما، مجرد لانها لم يستطيعا شرب النبيذ قبل موت الالاف، فتكون هذه الحدود الذي مات من أجلها البواسل من الجنود الذين كانوا كالقطيع يتبعون ملكهم، الذي يُخلد إسمه على ألواح أو بقصائد أو بأشعار، وبعد مرور مئات سنين، يسقط هذا الوطن عن طريق محتل جديد، فيصبح وطن جديد يقاتل لمفاهيم مختلفة عن المفايهم القديمة التي تكون منها الوطن أول مرة، فيتكون القطيع مرة ثانية، ويموت الالاف وتتكون حدود جديدة للوطن، ويأتي الدهماء من العامة أي القطيع، وينادي بالوطن الذي لا يعرف كيف تكوّن، وكيف

تحددت ملامحه وحدوده، وتستمر قصة الوطن و"الشرف" بهذه الطريقة ينهي القطيع قضيته، ليس مع إثارة ضجة، ولكن بخبل وتذمر، تذمر القطيع على أوطانهم التي هي ليست لهم، ولربما هذه الاوطان غير موجودة، ينادي الناس بالحرية؟ والشرف؟ والاخلاق؟ والوطن؟ لا ياسيدي يجب أن يُخلق سياق من دون السيطرة على المحتوى، لان المحتوى سيبقى كما هو، من يريد أن يغيره يجب أن ينظر الى الواقع وأن لا يحلم إلا أن يجعل من هذا الواقع واقعاً رناناً يُذكر في التأريخ، يبحث العجوز هنا عن الخلود للاشخاص وأعمالهم، ويقول بإن أعظم الاعمال هي ليست بتعظيمها ولكن أبسطها، وأنا أقول إننا كلنا خالدون، ولكن الخلود له مسميات أخرى كالشرف والوطن، أنا إن خلدت سأخلد وأنا أبتسم لاني أعلم اني ذئب ولست من القطيع، العارف يريد أن يبحر في بحر من القمامة وإسترجاع الحقائق القيمة وحتى تفسير معانيها للأجيال القادمة، بهذه الطريق يخلق السياق، ولكن مازلنا نعلم إن المحتوى هو قمامة، ولكننا نعلم أيضاً إن غائط النحل هو الشهد، فمن سيكون غائطاً ومن سيكون شهداً؟ هذا هو السؤال، بعيداً عن المسميات الاخرى، الواقع كما هو لن يتغير، والدليل الاف من السنين، لم ولن تكون هنالك حرية، لان الانسان يفتقر إلى المؤهلات لممارسة الإرادة الحرة لان الانسان عندما يخطأ سيعيش في حالة إنكار، من خلالها يمكنه ببساطة اللجوء إلى "حقيقة" أكثر ملاءمة، من أجل أن يشعر بشعور رضى أفضل، تاركاً وراءه ماكان يسمى "الحقيقة" التي احتضنها أول مرة. ليس الشر هو من خنق العالم بظلامه، بل أنتم، أنتم الذين تعتقدون أن هنالك ضوءاً، أنتم تؤمنون أن شخصاً واحداً هو المنقذ وأن شخصاً واحداً هو المدمر، ولكن قليل من ينظر الى الحقائق الكاملة، الذي دمر العالم هو من يرى أشياء ويتغاضى عنها، كما سقطت ساسان، والاندلس، وفينيقة، وأشور، وبيزنطة، ومصر القبطية، وغيرها على يد المسلمين الذين دقوا المسامير في نعوشهم عندما ألبسوا لباس الدين على سيوفهم المضمخة بالدم، فشوهوا صورة دينهم، فأعطى هذه الحروب

الحق بالتقدم والقتل، إن السبب الوحيد لانتصار السراسنة[1] في العراق والشام هو سبب إضمحلال الدولة الفارسية والبيزنطية، وستسقط الدولة الاسلامية بسبب إنحلالها وتفككها، ليس لان قوى الظلام قد قتلت قوى النور، بل بسبب تفككها. ألم يكن العرب اللخميين أصدقاء الفرس ثم قام ملكهم أمرء القيس بالاتفاق مع البيزنطيين؟ ألم يكن نصارى العراق أصدقاء العرب؟ لماذا بعدما أحتل أو فتح العرب بلادهم من الفرس استعبدوهم وفرضوا عليهم الجزية؟ هل هذا نور أم ظلام؟ أم لانه كان بصيغة دينية أصبح نور، ولكن هو لا هذا ولا ذاك، أنه مجرد دورة الحياة الطبيعية إذ عند سقوط دولة تعقبها دولة، لا دخل للدين فيها فهو نور، بل أقصد الديانة فهي ظلام، هو من أخذ ميثاق "الشرف" الذي يدعوا الى "الحقيقة"، والان أصبح النصارى هم النور والظلام أيضاً فينتهي دور المور[2] كما سينتهي دور السراسنة، وسيجلس القطيع يبكي على إنتهاء الدولة العظيمة، وتتناقل الاجيال عظمة هذه البلاد وكيف دمرها الظلام من الخارج، ولكن لا يعترف أحد ب"الحقيقة" إن الظلام هو قابع في رحم النور بإن القطيع هم السبب الاول والاخير في إنتهاء الوطن الذي هو "الشرف" لهم و"الحقيقة" العليا، ويلومون العدو الذي دحرهم، ألم يكونوا هم العدو الذي دحر من قبلهم؟ هل تناسى العرب الطوارق والامازيغ؟ هلى تناسى العرب الكاهنة ديهيا ملكة الصحراء؟ الم يحاول السراسنة إحتلال "فتح" صحراء الجزائر والمغرب العربي لعشرين عاماً ولم يستطيعوا، حتى أدخلوا عليهم رجال ديانتهم فكونوا ديانة تلائم معتقداتهم مشابه للديانة التي ينشرها السراسنة ب"فتوحاتهم" فدخل الامازيغ والطوارق الى هذه الديانة، وساهم الامازيغ بالفتوحات بالاندلس كما ساهم النصارى قبلهم في فتوحات الشام، ثم أصبح النصارى كالعبيد وأصبح الامازيغ عبيداً ايضاً، ولكن هنا تكمن المعجزة البشرية، فبعدما علم النصارى

---

١ السراسنة: هو الاسم القديم للعرب عند الفرنجة

٢ المور: المسلمين في الاندلس لدى الاوربيين

والامازيغ "الحقيقة" أصبح للنصارى مجتمعات صغيرة يؤمنون بحقيقتهم التي أصبحت عرقية دينية، فعلم السراسنة إن هذه "الحقيقة" النصرانية الاشورية الكلدانية ستكون "حقيقة" ظلام داخل "حقيقة" النور فأخضعوهم للجزية، ولكن هذه "الحقيقة" عند الامازيغ إختلفت، فإنشق الامازيغ وكونوا دولهم الخاصة بهم في المغرب الغربي، وأصبحوا هم "حقيقة" النور وكانت "حقيقة" السراسنة المظلمة بعيدة عنها، ولكن السراسنة أعتبروا إن "حقيقة" النور عند المغرب العربي "حقيقة" نور أيضاً لانهم لا يستطيعون مواجهتها، فتغيرت "الحقيقة" التي جاءوا بها عند "الفتوحات" وأصبحت "حقيقة" موافقه لهم، وهذا الشيء نفسه لدى الحملات الصليبية فكل له "حقيقته" وكما قلت، هذا هو المحتوى، عفن بحقيقته، كل ماعليك هو أن تخلق لها سياق، ومن هنا تتكون "حقيقة" أخرى إن هذا السياق لايمكن أن يكون فعالاً إلا إذا أصبح ظلاماً بعيون الناس، لانه يخلو من "الشرف" الذي ينادي به من لا شرف له، من يقبل بالحقيقة إن المحتوى هو قمامة، إستطاع أن يكون له شأن، ومن لم يقبل بهذه "الحقيقة" لن يخلق سياق، وسيكون كالقطيع، ودائما يكون القطيع هو النور، وماغيره هو الظلام، فإني أفضل أن لا أكون إنسانياً على الاطلاق عن أكون إنسانياً للحظات ثم أعود ممارسة لاإنسانيتي المعتادة".

"أنت متشائم يا صديقي، الحياة ليست بهذا السوء" يرد ابن النفيس.

"سوء؟ بالعكس إنها جميلة بهذا التعقيد، ففي هذا العراك الازلي بين الظلام والنور، تكمن حقيقة جميلة تتكون من إختلاط الاطياف المعتمة والمضيئة، هنالك تكمن الجائزة الكبرى".

"غريب! إنه لا يعتنق شيئاً مما تعتنق أنت" يقول ابن النفيس للعارف.

"يقول صديقنا هنا إننا يجب أن نخلق سياقاً، وهذا ما لم أفعله معه، إني لا أخلق سياقاً لاحد، لكن أحاول تنظيف القمامة، هو إختار من هذه القمامة مايريد" يقول العارف.

"من الصعب أن تنشأ إنساناً بهذه الطريقة" يقول النطاسي.

"كل ينشأ بطريقته، عندما تخلق سياقاً، كأنك تعطي نفس الدواء لأمراض مختلفة" يرد العارف .

فسكت ابن النفيس هنيهة، ثم قال "لربما بعد أن تصل إلى دمشق سيكون النقاش في هذا أعمق وأحكم" وتبسم له ثم اضاف "متى ستنطلق الى دمشق؟"

"في غضون أيام" يرد العارف.

الملاحدة

كان العارف يسلم على أصدقائه مغادراً مصر، فكان ابن النفيس، وبهاء الدين زهير، والصنهاجي[1] يودعونهم، وعندما إنطلقت القافلة قال بهاء الدين زهير:

أحبابنـــا أزِفَ الرحيـــل	فـــزَوِّدونا بِالدُّعـــــاء
أحبابُنـــا هلْ بعـد هـذا	اليـــوم يـــومٌ للقـــاء
إنـي لأعـــرفُ منـكـمُ	يا سادتي حُسنَ الوفاء
مذ كنتُ فيكم لـم يخِبْ	أملي ولم يخبُ رجائي
ولـقـــدْ رَحَلـــتُ وإنَّـني	بالفضلِ منشورُ اللِـواء
لا تســتَقِـلَّ بـيَ المَطِيّ	لمـــا حَمَلنَ من الثنـاء
وإذا ذكـرتُكـــمُ غَنيـتُ	بِـــذاكَ عن زادٍ ومـاء
عندي لكم ذاكَ الوفـاءُ	المستمـرُ على الــولاء
فعليـكمُ أبـــداً ســـلامي	في الصباح وفي المساء

وإنطلق العارف، وگريگرس، وتينهنان مع الشهبندر أقطاي، خرجوا بقافلة تجارية عظيمة، كان گريگرس، يمشي خلف العارف، فهو الحارس الامين، وكانت تينهنان تبدو منزعجة، حيث إن طول إقامتها في القاهرة لم تكن جيدة، فكانت تجلس طول الوقت في المنزل مع الحريم، ولم تكن تقابل العارف لانه كان مشغولاً طول الوقت مع إبن النفيس، ولكنها كانت تملؤها غبطة بمقابلة محمد بن سعيد الصنهاجي، فهو شاعر أمازيغي يقرب لها بالنسب.

---

١ الصنهاجي: هو الشاعر المعروف محمد البويصيري

لما كان العارف ينظر اليها طول الطريق تقرب منها وحاول التكلم معها، فلم تجبه، فقال لها مغازلاً "

أمن تذكـــــر جـيران بـــــذي سلـمِ مزجت دمعـــا جـــرى من مقلة بدمِ
أم هبّت الريـح من تلقاء كـــاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضمِ
فما لعينيك إن قلت أكففا همتا وما لقلبك إن قلـــت أستفق يهمِ
أيحسب الصبّ أن الحـب منكتم مـــا بين منسجـــم منـه ومضطرم
لولا الهوى لم تـرق دمعا على طلل ولا أرقت لذكـر البـــان والعـــلم
فكيف تنكر حبّا بـــعدما شهدت به عليك عـدول الدّمـع والسّقم
وأثبت الوجـــد خـطيّ عبـــرة وضنى مثل البهار على خدّيك والعنم
نعم سرى طيف من أهـــوى فـأرّقني والحبّ يعترض اللـــّذات بالألم
يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليـك ولو أنـصفت لـم تلم[1]"

فنظرت اليه وتبسمت، وبعد شهرين وصلت القافلة الى دمشق، كان الشهبندر في الاسواق ومعه تينهنان، كانت تريد أن ترى حاضرة الدنيا دمشق، وتمشي في أسواقها، وتزور كنائسها وجوامعها، فرافقت زال التاجر، وتوجه العارف الى منزل سبط ابن الجوزي.

"أخاف أن يسيء الناس إستعمال الكلام الذي نكتبه وندعو به" يقول سبط ابن الجوزي، وكان رجلاً شيخاً يلبس عباءة بيضاء.

"بالطبع، لاننا نحن أسأنا إستعمال الكلام الذي وضع بين أيدينا" يرد العارف.

"ما العمل؟ كل شيء يتساقط، كأن بناء فتت الماء قاعدته وبدأ يتهاوى".

---

١ مقتطفات من بردة البويصيري

"القاعدة تحت الارض ماتزال سليمة، فكل القواعد سليمة، ولكن مابني عليها معوج، مهما كان معتدلاً".

"أصبت، هل نستمر؟ أم نتوقف؟ من على صواب؟" سأل سبط إبن الجوزي.

"أعتقد بواجب الاستمرار، اذا كان أشخاص مثلك ومثل غيرك من الناس يتوقفون، فسيأتي أناس أكثر خبثاً ودهاءاً وسيسوقون العامة الى أفكارهم ومعتقداتهم، لا تسألني هذا السؤال، لم أعد أعلم هل المشكلة في الصواب والإراغة[1]،، أم المشكلة من يأخذ الكلام ويؤله بغير ذي حق".

"لربما كلنا مخطئون، فكلنا أبحرنا في أمور الدنيا، وتداولنا كلام لاصلاح فيه ولا ضلال، ولكن اللغو يكسب الناس الكسل والنفور".

"ولهذا نحن أفضل منكم" يقول شخص يجلس على ميمنة العارف، يلبس لباس السواعير، كان هنالك ثلة من الناس يجلسون في منزل يشتمل على فناء داخلي مكشوف ذي فسقية[2]، محاط بأشجار البرتقال والليمون الاخضر، كانت العصافير تغني على أغصانها، وكان خرير الماء يكسر بعض من الصمت الذي يعم النقاش، فكان يجلس في الفناء كل من العارف وسبط ابن الجوزي، وخليفة ابن أبي المحاسن الحلبي، وابن أبي أصيبعة، وبنو الرحبي كل من شرف الدين وجمال الدين، وابن القف، وابن العيدم، وابن خلكان، ومؤيد الدين العرضي، وعلى ميمنة العارف كان يجلس عز الدين ابن السويدي.

---

١ إراغة: خداع

٢ فسقية: حوض من الرخام تمج الماء فيه نافورة

"ولهذا نحن أفضل منكم" يقولها بن السويدي لابن الجوزي.

"أتفق مع بن السويدي" يقول إبن أبي أصيبعة "إن الناس تحب أن تقوم بأمور حياتها دون أن يتدخل أحد في أمور دنياهم، ولكنهم أيضاً لا يستطيعون التخلي عن أمور دينهم، وبما أن دينهم واضح وجلي يبدأ العامة من الناس بالبحث عن أشياء إن تبدو لهم تسوئهم، فيخرج من رحم الحاجة الى الاستناد على أناس لهم من الحكمة ما يليق بالاحترام، فتبدأ الديانات بالتكون، ويخرج علينا الفقهاء من كل فج، وحتى لا يُنتقص منهم، يبدأ العامة بالبحث عن شخص يعطيهم الطريق الى الكسل، الا ترى إن رجال الدين يتواجدون غالباً في الدول التي فيها المؤمنون، ويكثر اهل الموعظة لاناس يعيشون على مواعظ الحياة وما يكتسبون منها من خبرات".

"ولكن يا سيد عز الدين" يقول إبن خلكان "أنت قلتها، إن العامة أرادوا هذا النوع من الناس، تخيل أن هنالك أشخاصاً يبحرون بالفقه بحسب مفاهيمهم الخاصة، لكن العامة ذهبوا بعيداً ولربما لما سمح للعلم والطب والفلك وغيرها من التطور ولكنا مازلنا بدواً رحلاً".

"لربما ما تقول صحيح، ولكن هنالك شيء مهم" يقول إبن العديم "إن التأريخ أثبت أن هذا شيء طبيعي، وإن رجال الدين هم كرجال العلم وغيرهم من فلاحين وعمال وحدادين وغيرهم، المشكلة الحقيقة هي أن العمال يعتقدون ان عليهم طاعة العلماء والفقهاء وغيرهم، إن للفلاح حُكماً يفوق حُكم الفقيه في الفلاحة، فإذا قال الفقيه رأيه في الفلاحة فهذا يعني أن الفلاح لا يفقه، ليس العلة في الفقيه الذي تفقه في ما لا يفهم فيه، وأنما العلة في الفلاح الذي سمع شخصاً أقل منه حكمة مجرد لانه فقيه".

"وهل يخلو العلماء من هذا الطغيان؟" يسأل مؤيد الدين العرضي.

"بالطبع لا، فرجال العلم هم كالفقهاء أو رجال الدين أو الفلاسفة، كل لهم قوتهم الضاربة الفتاكة على حياة الناس، كل ينادي بما ينادي على رفات العباد" يجيب العارف "يجب أن نتذكر شيئاً مهماً، إن هذا ليس للمسلمين خصصياً، فكل الحضارات في كل الاصقاع تمر بنفس الدورة وبنفس المشاكل، من رجالاتها وعامتها".

"بالطبع" يقول إبن الجوزي "ما الحل إذن؟"

"نظرنا الى الموضوع ذات مرة، وكان الجواب واحداً من ثلاث" يقول شرف الدين بن الرحبي "إما أن يأتي رجل قوي ويأخذ بالحكم، ويأمر باستصال الديانة عن الدولة، وأن تكون مراكز الفقه متاحة فقط يوم الجمعة، وأن يكون التعليم والفقه والعمل للكل، وأن نقضي على نظرية التناقض المشتركة الاحتكارية فأراد الغراب أن يمشي كالفاختة، فأضاع المشيتين".

"ماذا تقصد؟".

"يعتقد العامة أنهم عندما تكون دولتهم عظيمة أو تأريخهم عظيم يكونون هم عظماء، وعندما تفشل دولتهم يكونون هم ضحايا وسبب الخراب هو حكامهم الذين كانوا سبب العظمة فيما سبق، وبهذا يعتقد العامة أن العظمة إشتراكية كالنظرة المالية الذي وضعها النبي عليه الصلاة والسلام في بيت المال وأشتراك الناس بكل المال الموجود، ولكن عند زوال العظمة يبدأ الناس بالقاء اللوم على إحتكار الحكام والوزراء الى المال، وكثرة الغنى في مكان وفقر في مكان ثان، بالرغم أن هذه هي الحالة ذاتها التي كان يعيشون بها في دور العظمة، فيكون هنالك تناقض بين حالة وأخرى، فإما أن يكون النظام إحتكاري ويقبل الناس بعظمة حكامهم، وإما أن يكون النظام أشتراكي وأن يسهم الناس في عظمتهم".

"أكمل جزاك الله خيرا" يقول إبن الجوزي.

"والطريقة الثانية هي" يقول جمال الدين بن الرحبي "كما قال أخي أن يساهم الناس في الحكم، أي يكون الحكم من ثلاث طبقات، الحاكم، المحكومون، والمحكمين، الحاكم هو الخليفة له السلطة العليا في البلاد وله الامر، والمحكومون هم الموظفون والعمال من الذين ينفذون الاوامر لتسري عجلة الحياة من تجارتها ومالها وسياستها وجيشها وخلوها من الامراض، وكثرة نتاجها الزراعي وتنشيط حرفها وغيرها من الاشياء كعلومها وأدبها وفنونها، والمحكمين هم أشخاص يختارهم المحكومون ليكونوا مراقبين للحاكم وقضاة للمحكومين، على أن لا يكون المحكمين من طبقة واحدة وإنما جمع من الحرفيين والعمال والنساء والاطفال والعلماء وفقيه يجمع عليه كل الفقهاء، على أن يكون لهؤلاء المحكمين فترة معينة لاتزيد عن عامين ولا تنقص عن عام، تقتضي عليهم بعدها أن يتركوا مقاعدهم لغيرهم، ليكون العامة هم المحكمين الذين هم أكثر الناس تأثراً بالقرارت التي يتخذها الحاكم، وهم ليس لهم أمر قضائي ولكن لهم تقييم عمل الحاكم فقط، فأبن المحلة محقور، ولا يجوز إطالة فترة المحكمين، ويكون العسكر منفرداً بحكمه لاستقرار البلاد، فأن طغى العسكر، ليس لان قائدهم طغى، ولكن لان العامة من الناس الذين هم العسكر قد طغوا وهذا سبب المحكمين لانهم لو قيموا تقييماً صائباً لكان العسكر في حال جيد وما أغرتهم مطامع الحكام، وهذا ماعناه أخي فتح الله عليه بالاشتراكية وبهذا تكن الحياة كمرعى ولاكالسعدان وماء ولا كالصداء".

"وما الحكم الثالث؟" يسأل ابن الجوزي.

"أن تستمر الحياة كما هي، تبكي الدهماء، ويتمتع الحكماء، ويتعالى العلماء، ويتسافه الفقهاء، ويغضب رب السماء، فتنتهي حضارة خاتم الانبياء".

"إن الحضارة هي كالنخلة ذات الطلع، إن لم يقطفها الناس يبس، فإذا كثر الخير تبدى" يقول إبن الجوزي.

"لربما كثير من الناس يقول ولماذا أنتم مهتمون بهذا، فنقول: من نظر الى العواقب سلم من النوائب".

"لو كان الفارابي هنا لجن جنونه" يقول إبن خلكان، فضحك الجميع.

بعد أن قضت الجلسة التي أسموها جمع الملاحدة، سأل گريگرس العارف "لماذا تسمون تجمعاتكم بهذه الاسامي، زندقة وهرطقة والحاد؟".

"في زمن كزمننا، يجب على العالم أو الفقيه أو غيرهم أن يجلسوا ويتناقشوا مع بعضهم بعض، ولكن نحن نعلم أن هذه المطارحات والمناظرات دائما ما تنتهي بجلبة وتكفير وسب وشتم، فوجدنا ان أفضل طريقة لفعل هذا، وأن نتقبل الحوار من غير خصام عن طريق الاعتراف بإن كل واحد من الجمع يعتبر ملحدا او كافرا او مهرطقا او زنديقا بعين الجمع، فبهذه الطريقة لا داعي أن يرد على كلامه بالمسميات هذه، فيكون النقاش مبني على أساس إنصت وأستمع، فلا داعي الى أن تلقي عليّ المسبة والهجاء، فأنا أعلم وانت تعلم بأني أستحق هذه المسبة، فلننتهي عن الشتم والقذف ونبدأ بالاستماع، لعل في الاستماع خير".

"الا ترى أن حياتكم تملؤها التعقيدات؟ في السويد حياتنا أسهل، إن لم يعجبك شيء قم وغيره بيدك، وإن لم تقم بذلك فتقبل عواقب سكوتك، فكما يقولون في بغداد، نفس عصام سودت عصاما".

"الحياة بسيطة، لكن هنالك من يحب تعقيدها، وأنا منهم للأسف".

"هل لي بكلمة معك؟" يقاطع الحديث خليفة بن أبي المحاسن الحلبي، فكان هو الشاب الذي جلس طول الوقت لا يتكلم أبداً.

"كيف لي أن أخدمك؟" يرد العارف.

"هل لك أن تأتي الى البيمارستان غداً، إني أعمل على كثير من دراسات الساعور العظيم أبي مروان ابن أزهر، وعلي بن عيسى الكحال، ولكن هنالك شيء ينقصني، أتمنى أن يكون لك الوقت".

"بالطبع، ولماذا غداً؟ دعنا نذهب الان" وأنطلق العارف والساعور وخلفهم يمشي بخطاً بطيئة، گريگرس.

"لم تقل شيئاً في التجمع؟" يسأل العارف أبي المحاسن الحلبي.

"إن اكثر الناس يضعون اللوم على العلماء والفقهاء، والفقهاء والعلماء يعزون المشكلة على العامة، وأنا أرى إن كلاهم مخطئ، وكما قال صديقك هنا، نفس عصام سودت عصاما، أنا رجل طب، فهي مهنتي، فأني لا أغش أحداً ولا أجور على أحد، وقدمت للطب ما لم يقدمه أحد قبلي، إذا أراد العامة الطبابة عندي فهذا من دواعي سروري، وإن لم يقبلوا فهذا شأنهم".

وصل العارف والساعور وجلسوا يعملون على البحوث التي كان يعمل عليها أبو المحاسن، حتى وصلوا الى تحليل طويل وعملي وأرادوا أن يقوموا بتجربة ماوصلوا اليه، فجاؤا بشخص أعور، وأقاموا بعملية أستطاعوا بها إزالة إظلام العدسة، وجلس أبو المحاسن يشرح للكحالين عن سادة العين، وكيفية علاجها وكتبوها كلها في كتاب الكافي في الكحل.

وجلس السويدي وابن ابي أصيبعة مع العارف وأتموا كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء، عازمين بكتابة تأريخ الطب وأطبائه وأخلاق الطب، التي بدأت تضمحل في هذه الايام، فهو رسالة للاطباء بإن مهنة الطب لا يجوز أن تكون سلعة، كما جعل رجال الدين الديانة سلعة، فخسر القوم بعد ذلك، ولكن العالم كالفقيه كالفيلسوف كل يبحث عما يجده صحيح، وأيضاً قام العارف بمساعدة بنو الرحبي وأتمم معهم كتاب خلق الانسان وهيئة أعضائه ومنفعتها، إذ أصبح هذا الكتاب هو الكتاب الاكبر كموسوعة طبية لجسم الانسان.

كان العارف يجلس مع إبن الجوزي تحت ضل احد الاشجار على الارض خلف الجامع الاموي، وبدوا وكأنهم متسولين، فقال ابن الجوزي للعارف "انت ترى الكل على حق، لكن هل هذا صحيح؟".

"لربما في داخلي وفي بعض الاحيان، أعلم إن هنالك أشياء لايمكن أن تكون صحيحة، لكن أفعالي لا تستطيع الا ان تسير على هذه الطريقة، فلقد تشبعت بهذه الافكار".

"تذكرني بابن عربي".

"ابن عربي!" يقول العارف وهو يقف على قدميه ينفض ثيابه من التراب "أين دفن ابن عربي؟".

"في ضاحية الصالحية"

فتبسم العارف وأنطلق متجهاً نحو ضاحية الصالحية.

ابن عربي

وصل العارف الى ضاحية الصالحية في دمشق المحروسة ودخل ضريح الشيخ الاكبر ابن عربي، توقف العارف للحظات يتمتم كلاماً واحرازاً غير مفهومة، وإذا بروح ابن عربي تتجلى أمامه كشمس النهار الساطعة كالسراج المنير.

"السلام على سلطان العارفين وإمام المحققين، السلام على البحر الزاخر والكبريت الاحمر، السلام على الشيخ الاكبر، السلام عليك يا محيي الدين ابن عربي" كان صوت العارف ملؤه دفئاً، ووقاراً، وخشوعاً.

"والسلام على الابن الضال، وعارف السؤال، وكاظم الجواب" يرد ابن عربي.

كان العارف يقف مرتجفاً، خجولاً، قانتاً، لا يتكلم، جبينه يتصبب عرقاً.

بادر ابن عربي بالكلام قائلاً "نعم".

فأجابه العارف "نعم".

فإبتسم ابن عربي وقال "لماذا؟".

فأجابه العارف "وأنت لماذا؟".

فإبتسم ابن عربي إبتسامة خجواة لكنها مملوءة بالحياة، وكأنه روح من أرواح هذا الزمان وهذه الدنيا، فإستغرب العارف، وقال له "ما بال شيخنا الاكبر يبتسم؟".

فيجيب ابن عربي "لقد ذكرتني بلقائي الاول مع قاضي قرطبة، أبو الوليد بن رشد، وأرى إنك يا إيها العارف قد إستلطفت وأعتنقت بعض افكاره".

"وكيف كان لقائك مع ابن رشد؟" يتسائل العارف وكله شوق ليعرف كيف كان لقاء صاحب الفكر الاشراقي بصاحب الفكر العقلي، وهل كان لقائهما كما كان لقاؤه مع ابن رشد.

فقال ابن عربي" دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد ابن رشد، وكان يرغب في لقائي لما بلغه عما فتح الله به عليّ في خلوتي، وكان يظهر التعجب مما سمع، فبعثني والدي اليه في حاجة قصدا منه حتى يجتمع بي، فإنه كان من أصدقائه، كنت صبياً، ما بقل وجهي ولا طر شاربي، فلما دخلت عليه قام من مكانه الي محبة وإعظاماً، فعانقني، وقال لي "نعم" فقلت له "نعم" فزادت غبطته فرحاً بي لفهمي عنه، ثم إستشعرت بما أفرحه، فقلت له "لا" فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده، وقال لي "كيف وجدتم الامر في الكشف والفيض الالهي؟ هل هو ما أعطاه النظر؟" فقلت له "نعم، لا، وبين نعم ولا تطير الارواح من مواردها والاعناق من أجسادها" فإصفر لونه واخذه الافكل وقعد يحوقل[1]".

وبعد أن اكمل ابن عربي سرد ذكرى لقائه بابن رشد، أعاد سؤاله على العارف "لم تجبني لماذا؟".

فاجابه العارف "لكي أعرف لماذا".

---

١ من كتاب الفتوحات المكية لابن عربي.

فبدأ ابن عربي بالاسترسال وكانه يعرف ما يريد العارف "حسناً، بما أن هيئة الله لم تاخذ صيغة هذا الدين او ذاك، واستثناء كل ما عدا هذا الدين المعين، فإني أؤمن بكل الاديان وبالبشرية والكون جمعاء، وبعد أن صارت المحنة التي تعرض لها ابن رشد، وبعد نفيه ومصادرة كتبه، وما نبع بعد ذلك من صدور فتاوى تحريم دراسة الفلسفة وتعلمها، خرجت كما خرجت أنت إيها العارف، باحثاً عن المعرفة والحقيقة المطلقة والانسان الكامل".

"ولكنك من شيوخ الكشف والفيض، ومن أصحاب الفلسفة الاشراقية والتصوف، ما شأنك وشان الفلاسفة أصحاب الفلسفة العقيلة الارسطية؟" يتساءل العارف مستغرباً.

"إعلم يا إيها العارف، ان ما يتوصل اليه الفلاسفة من أصحاب النظر العقلي المعتمد على الاستنباط والاستنتاج بإستخدام أدلة المنطق، بعد إجتهاد يوصلهم لوجه واحد او لعدة وجوه من الحقيقة، فأنا لا أخطئ أحداً في إيمانه ولو اخطأ في فكره ونظره، ومن هنا فإنه لايوجد لدينا قبول للتكفير وفتاوى التحريم، فالخطأ يقع دائماً فقط حين يزعم الزاعم أيا كان، إن منظوره للحقيقة هو المنظور الكامل النهائي، وذلك لان تصوفنا هو عبارة عن نظام علمي للتصوف وليس غيبة صوفية وفيض وإشراق فقط، وكأنه رمزاً خالياً من البحث".

فيضيف العارف وكله إجلال وتقدير لفكر ابن عربي "وهذا ما ساعد الاجيال التي هي الان من بعدك، إذ وجدوا نظاما كاملاً استطاعوا أن يوظفوه".

فيبتسم ابن عربي ابتسامة حزينة ويقول "ولكن لذلك ثمنه الذي دفعته".

فيبادر العارف ويتسائل "وهل هناك ثمن أغلى وأجمل من أن ينادونك بالشيخ الاكبر والكبريت الاحمر؟".

"يا عزيزي هذا بعد مماتي، لكن في حياتي كان الثمن هو مناداتي بالزنديق الاكبر".

فيتساءل العارف متجهماً "فعلاً! لماذا أسموك بالزنديق الاكبر؟".

"إعلم يا إيها العارف، إن كل من يأتي بشيء جديد وغير مألوف عما هو متعارف عليه فإنه من الممكن بل ومن السهل إتهامه جزافاً بالكفر والزندقة، ولكني في نهاية الامر سعيداً جداً، فليس من المهم أن تحصل على ثمار أعمالك وأفكارك خلال حياتك، وذلك إن الافكار البنائة، العميقة الفحوى، البسيطة المظهر، سيعرفها الناس بعد مماتك، وسيعرف الناس إنك كنت على حق، أو إنك لم تذهب في أفكارك شططاً، وهذا أمر طبيعي مع أي شخص يأتي بالافكار الجديدة".

فيسرح العارف بأفكاره مستذكراً جلساته في مراكش مع المتهمين بالزندقة وجلساته مع المتهمين بالهرطقة الذين التقاهم عند زيارتهم لتوما الاكويني، وجلسة الملاحدة التي قام بها قبل أيام، ويسترسل بالحديث متسائلا "إذاً كل من ياتي بفكر جديد يتهم بالكفر والزندقة، وكثيرا ما أطلقت عليّ هذه التهمة جزافاً وظلماً، حتى إني أصبحت لا أفهم ما هي معايير الكفر والايمان، فما قولك؟".

"إعلم ايها العزيز، إن الكفر والايمان مصطلحات ومفاهيم عارضة، والتقسيم الى كفار ومؤمنين منشؤه نزول الشرائع التي قسمت الناس وفقاً لتصديقهم او لتكذيبهم لرسل الله، أما الحقيقة الوجودية فلها شأن أخر، فإن الكون كله مطيع لله بالفطرة، والمخلوقات كلها مسبحة وعابدة بالطبيعة، والبشر كلهم مؤمنين بالعهد الاصلي في لحظة الذر الاولية

والازلية، وأما في التقسيم الوضعي فإن الناس كلهم مؤمنين إما بالظاهر أو الباطن معاً، وهؤلاء هم الموحدون، أو إنهم مؤمنون بالظاهر دون الباطن وهؤلاء هم المنافقون، أو إنهم مؤمنون بالباطن دون الظاهر وهم من يطلق عليهم الكافرون، وكلها تسميات وضعية".

"وماذا عن الكافرين؟".

"إن الكافرين هم من يكفرون بفكرة الله بالتعريف، ويؤمنون بالتطبيق".

فسكت العارف هنيهة، وكأن الايام تمر كثوان قليلة، وبعد هذه الحوارات الفلسفية الاشراقية، في الوقت نفسه يلتفت ابن عربي الى العارف بعد الصمت الطويل ويقول له "إلى هنا أعتقد أني أجبتك عن سؤالك لماذا، لكنك لم تجبني عن سؤالي لماذا، مع أنني كنت أنا المبادر بالسؤال أولاً، لماذا إستدعيت روحي وفكري؟".

أجاب العارف منتشياً وطامعاً "أعتقد إنك أجبتني عن أغلب ما لدي من تساؤلات، وهذا ما كنت أرومه في لقائي بك، ولكني أطمع بالمزيد من الاجابات عن بعض الاسئلة، فأني أتسائل عن الغموض الذي يكتنف كتاباتك، واستعمالك للكلمات الصعبة، والجمل ذات التراكيب المعقدة، وخصوصاً في كتابيك فصوص الحكم، والفتوحات المكية؟".

"إعلم يا إيها العارف اولاً، إنني لست بكاتب هذين الكتابين، ولكنهما وحي أوحي إليّ، وإلهامٌ ألهم اليّ، فكتاب فصوص الحكم أملاه عليّ الرسول في المنام عندما كنت في دمشق، وقال لي "إن هذا كتاب فصوص الحكم خذه وأخرج به الى الناس ينتفعون به" أما كتاب الفتوحات المكية، فهو ما فتح الله به عليّ عند طوافي ببيته المكرم، فأنا مجرد متلق لما يتجلى ليّ من معارف، وإن ترتيب أبوابه ليس نتيجة الاختيار الحر من جانبي أو

التأمل المقصود، لقد أملى الله علي بالفعل ما كتبت بواسطة ملاك الوحي، لذلك فكتاباتي لا تخضع لترتيب الكاتب ولا لنظر المؤلف، لانها إيحاءات ربانية، وإعلم يا إيها العارف، إن إستعمال الصوفيين للكلمات الصعبة والجمل المبهمة، فإنه يحمل عدة أوجه، لعجز اللغة العادية عن الوفاء بحق التعبير عن مواجد الصوفية ومعارفهم، فكلما إتسعت الرؤيا ضاقت العبارة، والمشهد هناك لمن يريد أن يراه" وأنشد ابن عربي يقول"

فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ولكن للأسف، عانينا ما عانيناه من علماء الظاهر، ولم يظنوا بنا خيراً، وذلك لعجزهم من الانفتاح على المعنى الباطني للوجود كله، فلم يستطيعوا فك شفرة بعض أبعاد اللغة الالهية، وكلمات الله الكونية، وذلك لعدم قدرتهم على النفاذ من ظاهر اللغة الوضعية الى باطن اللغة الالهية في كتاباتنا نحن معشر الصوفية".

"أرى أنك لم تضع حداً بين الخالق والمخلوق، خصوصاً وأنت مُتهم بأنك مؤسس مذهب وحدة الوجود؟".

"إعلم يا إيها الساعي نحو الكمال، نحن أنفسنا الصفات التي نصف بها الله، ووجودنا هو عين وجوده، إن الله لازم لوجوده ونحن لازمون لمعرفته، إن الذات الالهية في حالة التجلي هي الانسان والانسان هو نفسه الذات، إن الذات في حالة الاطلاق هي الذات والانسان هو الانسان، وإن الخالق والمخلوق كالماء والثلج، نفس الوجود مع إختلاف الهيئة والظهور، وإعلم يا صديقي إن وحدة الوجود تختلف عن الواحدية والحلولية، لانها لا تعني إستمرارية الاتصال المادي بين الله والخلق، كما إتهمونا، إن هذه الاتهامات كلها باطلة، فهم يخلطون بين العقائد الالهية والفلسفية، ولا يأخذون بعين الاعتبار ان العرفان ليس منفصلاً عن البركة الالهية والولاية، فإتهامنا بالحلولية لا شك باطل، لان الحلولية

نظام فلسفي وإنها تقتضي اتصالاً جوهرياً بين الله والكون، حين أن الله له التعالي المطلق، وإسمع ما أقوله لك عن الله وإحفظه، إنه هو لا بعد معه ولا قبل، لا فوق ولا تحت، لا بعيد ولا قريب، لا إتحاد ولا إنفصال، لا كيف ولا أين، لا متى ولا زمان، لا لحظة ولا عمر، لا كينونه ولا مكان، وهو الان كما كان، وإنه الواحد بلا واحدية، والفرد بلا فردية، وإعلم يا إيها العارف، إن أغلب من يعرفون الله يتصورون إنه الفناء وفناء هذا الفناء شرط للوصول الى معرفة الله، وهذا خطأ وإشتباه واضح، لان معرفة الله لا تستلزم الفناء ولا فناء هذا الفناء، فالاشياء لا وجود لها، وما لا يوجد لا يستطيع أن يفنى فالفناء يتطلب فرض الوجود".

ويكمل ابن عربي كلامه بعد صمت العارف، ويقول"يا إيها العارف المتسائل، عليك بالعمل، ولا يحدنك زمان ولا مكان، وعليك أن تكون الانسان الكامل، وهو الروح أصلاً أو العقل الاول الذي يحتوي على كل المثل العليا في باطنه، كما في الكلمة التي هي المولود الاول لله الذي إجتمعت فيه المثل جميعا، وليكن ندائك للبشرية جميعاً، فالدين لله وحده، وليس هناك فرق بين إنسان وإنسان، ومكان ومكان، وزمان وزمان" ثم أنشد يقول "

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قـــابلا كل صورة فمرعى لغـزلان ودير لرهبـــان
وبيت لأوثـــان وكـــعبة طـــائف وألـــواح تـــوراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحـــب أنى توجهت ركـائبه فـالحب ديني وإيماني"

ثم يتبسم ابن عربي ويسأل"يا إيها العارف، كيف حال ابنة خالتي؟".

"ابنة خالتك؟" يسأل العارف مستغرباً.

"تينهنان! ألم تعلم بإن أمي أمازيغية الاصل؟".

فتسمر العارف وبدأ يتصبب عرقاً وقال "لا أعلم كيف السبيل، فحبها كالسلسبيل، ولكن على عاتقي هموم، فوصالي بها قليل، فما أردت غير وصالها، ولكن حبي لها بخيل، لم أبني لحبها معبدا، ولم أملك لحبها دليل".

"لا عليك" سمع العارف صوت تينهنان من ورائه "أعلم إنك تريد الوصول الى هدفك، وأعلم إنك تحبني، سأكون لك خليلة، ورفيقة، فنجاحك هو نجاحي، ومعرفتك هي معرفتي، فليس من وصل الى العظمة عظيم، بل من وقف بجانب من سعى لها" فتقربت تينهنان من العارف ومسكت يده وأنحنت لإبن عربي ودنا منها وقبل جبينها.

"إنك بحق أمازيغية" يقول العارف وعيناه وضاءة بالغبطة، وقال لها "المرأة ليست من سكنت منزلها، بل من خرجت وأستبقت الى العلى، فكان العلى لها منزلا، وكانت كالحور للرجل أملا، وكانت نبراساً وكانت لمن بعدها مثلا، فالمرأة لا تقاس بزينتها، بل يزيدها أصرارها تجملا، فمن يأتنس للعظمة إمرأة، كان راشداً وعاقلا، فلا تحقرنها، فمن ظن بها ضعفاً ماكان رجلا، بل كان سفيهاً، كفرعون طغى، أما كانت إمرأة فرعون من خير من أهتدى؟ فهي الام، وهي الارض، وهي الرخا، ما أغوت حواء أدماً، كلا إن الانسان ليطغى، أعذريني مولاتي، ففيك الفقر وفيك الغنى، فأنت اليوم والامس وأنت نور الضحى، ما أنتِ بجسد لناظري، بل أنتِ البصيرة ماخاب فيك الرجا، فزيدي من بعد علمي علما، فماكان الانسان ذكراً، بل كان الانسان الذكر والانثى".

"أن عشقك جميل، لكن هنالك من يفوق عشقاً بعشقه للكون أجمع، فهو يحذو حذوي في هذا الزمان المرتبك المشوش، وسط هذا الهرج والمرج الذي يعصف بالمنطقة شرقها وغربها" يرد ابن عربي.

"هل لي بمعرفته؟" يسأل العارِف.

"أنت تعرفه، فهو رفيقك، وخليلك، إنه المحيط".

"جلال الدين الرومي!" يقول العارف بنبرة مندهشة وعين متشوقة وروح متلهفة.

"هو بالضبط، إذهب اليه، فهو بأمس الحاجة الى رفيق، وأنت خير رفيق" يقول إبن عربي.

"سأذهب اليه، فلقد إشتقت اليه".

الرومي

بعد أن سلّم العارف وتينهنان على إبن عربي، وودعاه، وكانت أفئدتهما عامرة بالرهبة، عادا الى المنزل، وحضّرا أنفسهم للسفر.

"لقد قلت إنا سنذهب الى بغداد" يقول زال غاضباً.

"أعلم، لكن علينا الذهاب الى قونيا أولاً" يرد العارف الذي كان مشغولاً بأغراضه، وكانت النقاشات الاخيرة مع العلماء تشغله عن الاستماع والنظر الى زال، الذي كان يحاول بكل قوة إقناع العارف بأن يذهبوا مباشرة الى بغداد.

"إنه الشتاء، لماذا تريد الذهاب الى الشمال؟" يسأل زال.

"علينا مقابلة الرومي".

"إذهب أنت، لقد تعبت من نقاشاتكم التي لا معنى لها" ويخرج زال من المنزل.

فتوقف العارف ونظر الى الجمع، فهز برأسه، وعلم إن هناك خطباً ما، ليس بزال، ولكن بالعارف نفسه، فهو لم ينصت لصديقه الذي يبدو أنه بحاجة لمساعدته، فنهض وودع اصدقاءه من العلماء، والفقهاء، والفلاسفة، وخرج خلف زال راكضاً.

"ماذا بك يا صديقي؟" يسأل العارف بنبرة هادئة ملؤها حنان "لا تجعلني أعدو خلفك! لقد بلغت من العمر عتيا، أنا لم أعد يا صديقي، ذلك الذي علمك الرماية، والفروسية، والسباحة عندما كنت صبياً" وتبسم العارف.

"لا شيء" يرد زال ببرود.

"أخبرني؟".

"لقد بدأ هولاكو بالتحرك متوجهاً الى عش النسر، سيدمر كل شيء ويقتل العشرات من الحشاشين".

فسكت العارف ولم يقل شيئاً.

"أسف يا عجوز، لم أكن أقصد الاهانة أمام الناس".

"لاتقلق لهذا، دع الناس تفكر كيفما تريد، هل تريد الذهاب الى هناك؟".

"هولاكو قوي الان، لا أعتقد أني أستطيع الدخول" فتنهد زال وقال "سأتي معك، لعل طقساً قونيا البارد يطفئ شيئاً من سعيري".

وعادا الى المنزل، وطفق العارف ينهي تحضيراته الاخيرة، أما زال، فكان يرسل بالرسائل مع الحمامة المطوقة والغراب.

"كثير من الرسائل؟" يسأل گريگرس.

"نعم!" يرد زال "هنالك تحضيرات يجب أن أقوم بها".

"غريب".

"مالغريب" يسأل زال.

"لقد قلت ان الغراب قد غدر بك وذهب الى القرصان".

"لا ياصديقي، انا لم اكن افهم عمل الغراب، فاعتقد بالخيانة، ولكنه شيء مختلف تماماً" يوضح زال.

"في السويد، نقول بإن الغربان هم أرواح الذين قتلوا في حياتهم ولكن ليس في أرض المعركة، ولكن! غراب يقوم بإرسال الرسائل، هذا عمل الحمام، أليس كذلك؟".

"هذا ليس بغراب عادي".

"ماذا تقصد".

"هل تعلم من هو أوتينبيشتم؟".

"أليس هذا هو النبي المذكور في القران[1]؟".

"نعم، نوح، عندما إنتهى الطوفان، أرسل نوح حمامة وغراب، هذه الحمامة والغراب هما نفسهما اللذان أرسل معهما الرسائل".

فضحك گريگرس بتهكم "مستحيل".

"ألم أقل لك أن لا شيء مستحيل" يأتي صوت العارف مجيباً گريگرس.

فتعتع المحارب الكبير قليلاً، وحاول تدارك الموقف، فقال لزال "القادم لا يبشر بخير، أليس كذلك؟".

"لا عليك، كل شيء سيكون كما يجب أن يكون" يرد زال مبتسماً.

---

١ اوتنبشتم: هو الشخص اليذي نجا من الطوفان في ملحمة كلكامش

وأنطلقوا بعدها متوجهين الى قونيا، وخلال طريقهم قص العارف عليهم قصة تسمية إبن عربي لجلال الدين الرومي بالمحيط.

"وذلك عندما وصل جلال الدين الرومي الى بغداد" يسرد العارف القصة ويكمل "بعد خروجهم من بلخ، بعد الهرج والمرج الذي أصاب بلخ مع بداية زحف المغول غرباً، وقد كان جلال طفلاً صغيراً، يمشي وراءه والده، الذي كان عالماً ومتبحراً بالعلوم والفقه والفلسفة، فرأه ابن عربي وهو يمشي، فاذا بابن عربي يقول عجباً محيط يمشي وراء بحيرة".

"هل تعني أن ابن عربي علم أن جلال الدين الرومي سيكون أعظم من والده وهو مازل صغيراً؟" يسأل گريگرس.

"نعم".

"كما كنت أنت؟" يسأل گريگرس العارف.

فنظر العارف للوجوه الثلاثة التي كانت تنظر اليه وكأنها على شرف معرفة سر كبير، فتبسم العارف وقال "أسألوا غيري".

"هيا يا عجوز، أنت تعلم كل شيء عنا، فأنت من أنقذني من والدي عندما أراد قتلي ومازلت رضيعاً، خوفاً منه بإني إبن شيطان".

"لقد كان والدك على حق" يقول گريگرس بإبتسامة خبيثة.

فضحك زال وقال لگريگرس "أتفق معك" ثم قال للعارف "ثم أخذتني الى العنقاء، ثم أعدتني الى أبي بعدها، فتقبلني، ثم علمتني ما لم أعلم، من العلم والفقه، والمنطق، والمبارزة، وغيرها".

"وأنا كنت لقيطاً، فأراد الجميع قتلي لاني إبن زنا، ولكن أنت أنقذتني، وعلمتني، وأخذتني الى بغداد، وجعلتني حامياً للخليفة ثم أرتحلت معك خارجاً من بغداد، وقمنا بكثير من المغامرات، وقتلنا القنطورس، وكان في كهفه يوجد هذا الرمح العظيم، رمح أودن، ومن ثم عدت لأهلي حاملاً رأس القنطورس، وبيدي رمح أودن، ففتح لي والدي ذراعه وإستقبلني، وشاركت في معركة سبارساترا، ورفعت رأسي أمام عشيرتي وأمام الالهة".

"هل تحبين أن تضيفي شيئاً؟" قال العارف لتينهنان.

"إن حياتي طبيعية، أنا الروح والام المقدسة، ولكن من أنت؟".

"هيا يا عجوز" يضيف زال "كل مانعرفه عنك، بأنك أكبر عمراً مما يقول لنا وجهك، لايعرف أحداً أصلك، أو أين ولدت، ومن أبوك، وعلى يد من تعلمت؟".

"ليس الان، لكني أعدكم بأني سوف أخبركم عن قريب".

وبينما كان الاربعة يتداولون الحديث، والمواضيع المختلفة، وصلوا الى قونيا بعد عشرين يوماً، وكانت وجهتهم الاولى المسجد الكبير، وسط المدينة الذي بناه السلطان علاء الدين كايكوباد، وكان سؤالهم الاول عن مكان جلال الدين، فأخبرهم الناس بإنه الان يجلس مع مريديه، في مدرسة كرتاي لدراسة العلوم الطبيعية.

وكانت المدرسة من أجمل المدراس التي رأوها برحلتهم، حيث كان البلاط الرائع ذو اللون الازرق الفاتح والاخضر في قبة ذلك البناء المزخرف، حيث كانت تزينها المثلثات السلجوقية، والقبة ذاتها مغطاة بنجوم متشابكة في مهارة مرسومة بقطع البلاط ذات اللون التركوازي الاخضر واللون الازرق والاسود والابيض، حيث تشكل كل واحدة منها نموذجاً منفرداً بذاته، غير أنها مرتبطة بالقطع الاخرى بطريقة تفوق الوصف، وكانت قمة القبة مفتوحة، لكي ينعكس شكل السماء وشكل النجوم بالليل في حوض الماء الصغير الموجود في وسط المدرسة.

وفور دخولهم الى المدرسة سمع العارف قهقه گريگرس.

"مابالك؟" يسأل العارف مستغرباً.

"إن المحيط يجالس المستنقعات" ويستمر بالقهقة العالية بعد أن رأى الرومي يجالس المتشردين، والمجذومين، والمخمورين، وحتى بعض بائعات الهوى، ويكلمهم بأعذب كلمات العشق الالهي وبإحترام شديد، وكأنه يجالس ملوكاً وأمراءاً، وإذا بالرومي من بعيد يرمق گريگرس بنظرة شزر، وكأنه سمع ما يقول، فإرتعدت فرائص المحارب الضخم، وكأنه في غمار معركة شرسة، وفي لجة ليل بهيم، ولكن سرعان ما تغيرت هذه النظرة الى نظرة حنونة محبة تحمل في ضياءها شوق ملتهب، اطفأها وجه العارف الفليح، وكذلك كان العارف يبادله نفس النظرات المتوهجة بنور المحبة.

"مالذي دار بخلدك أيها الاسكندناوي؟ ألم تتعلم من هذه الرحلة أن لاتحكم على الناس لمظهرهم؟ وأن لا تحكم عليهم من جلاسهم ورفاقهم؟ فكل أنسان على وجه البسيطة هذه له دور بالحياة، قد لا يقل عن أكبر الادوار التي يؤديها أشرف شرفاء القوم وأعظمهم، ألا تتذكر حديثنا عندما كنا تائهين في الصحراء، عندما حدثتك عن خروجي

من ثياب الطوبائية والافكار العالية، لكي أخالط الناس وأعيش حياتهم الاجتماعية؟ وإنما وجدته بهؤلاء الناس، إنهم ليسوا هم الجهلة والمرضى، لكن الذي يدعيه ما يسمون أنفسهم علية القوم ومتمنطقيهم، ألا تذكر عندما قلت لك بأنّ كل إنسان هو مفكر إجتماعي على نحو ما؟ ألم تتعلم أن لا تكون من هؤلاء المتنمطقين الذين ياخذون صور الاشياء الخارجية دون الابحار في موارد الاشياء الداخلية؟" يوبخ العارف گريگرس.

فطاطأ المحارب الكبير رأسه، وأعتذر للعارف، وفور وصولوهم بالقرب من مجلس الرومي مع الفقراء والمتسولين، بادر الرومي لانهاء جلسته، لكي يتسنى له الترحيب بضيوفه، فقال للجالسين واعضاً ومنهياً للجلسة "...أحبائي، والان سأوصيكم بجد، عندما تظهر عرائس المعنى وجوهها لكم في الباطن وتكشف الاسرار، حذار! حذار! من أن تُحدثوا بها الاغيار وتشرحوه لهم، ولا تخبروا أحداً بكلماتي هذه التي تسمعونها، فلا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها عن إهلها فتظلموهم".

فيتمتم گريگرس هامساً للعارف متعجباً "عجيب وكأنه سمع حوارنا، وقرأ أفكاري"

"ما ذلك بزول بدي[1]، ستتعلم درساً قيماً من الرومي".

فنهض الجمع من حول الرومي، وكانت واحدة من النساء التي كانت في الجلسة وقفت ولكنها كانت على وشك السقوط، فمسكها گريگرس وقالت له "شكراً ياسيدي، يبدو أن الخدل[2] أصابني" وتبسمت له.

فسمع گريگرس صوتها فكانت كأنها بلبل فتان، ذو حنجرة موهوبة، بُح صوتها، عيناها خابيتان، ترتسم على وجهها الاشقر المتسخ غمازتان، فإلتاع فؤاد المحارب وتيمه

١ ماذلك بزول بدي: مذالك بالعجب العجاب
٢ الخدل: الخدر في الرجل من الجلوس

الحب، فإرتبك وشل ذهنه، وكأن وجهها كالأتون[1]، أبلج الظلام في داخل المحارب، وكانت تنظر اليه وهو جذلان، فلم ينطق بكلمة، فتبسمت بوجهه، وتوجهت مغادرة.

فتبسم العارف والرومي وتينهنان، وكان زال يهز برأسه ويقول "وهوى أخر الرجال في فراديس العذاب".

بادر الرومي بعد إنصراف مريديه مرحباً بالعارف وأصدقائه "مرحباً بك إيها العارف، الطيب الروح، النقي السريرة، صاحب الافكار الملهمة".

"كيف حالك أيها الرومي؟ أرى إنك قد تغيرت كثيراً عن لقائنا الاول قبل سنين، فكأني أرى إن فكرك قد صار أوسع قبولاً، واكثر نضجاً، وأعمق معنى، لكني أرى الحزن والوجد والتعب مرسوماً على محياك، والشوق لاعجاً بأجفانك، وعينيك أضناها الكرى".

فتبسم الرومي وأجاب "ألم أقل بأنك صاحب الافكار الملهمة، لقد أخذت بنصيحتك قبل سنين، عندما قلت لي بأن أخرج من دائرة الفكر الواحد، وأن أعيش حياة الناس، وأترك الظاهر، وأن أغوص في أعماق الباطن، وقد عملت بنصيحتك، ولكن لكل الاعمال في هذه الحياة إيجابياتها وسلبياتها، فوائدها ومضارها، وإن من فوائد نصيحتك بإني أعيش حياة الناس حاملاً همومهم، ويحملون همومي، ويستقبلون أفكاري، وأما المضار فهي بدأت عندما أفِلت شمسي، وغاب عني أنيسي وملهمي، شمس".

"شمس؟" يتساءل العارف "ومن هو شمس؟".

"هذه قصة طويلة، سأخبرك بها فيما بعد، ولكن دعني أرحب اولا باصدقائك، ضيوفي الكرام، مرحباً بكِ سيدتي" يرحب الرومي بتينهنان.

---

١ أتون: الشمس

وينظر الى زال مرحباً ويقول له "خوش آمدي حال، شما چتور است؟".

"خوب، مولانا" يجيبه زال بأنحناءة إحترام وتقدير.

فتلتفت تينهان الى العارف مستغربة "مالذي يقولانه؟".

"إنه يرحب بزال باللغة الفارسية" يقول العارف مستغرباً أيضاً "وكإنه عرف أصول زال، وقال له مرحباً، كيف حالك، فأجابه زال، بخير".

وكأن الرومي قد تعمد جعل ترحيبه لگريگرس أخر ترحيب، لكي يكلمه عما جال في خاطره عند دخولهم المدرسة، فإلتفت إليه، وإنحنى له بكل تواضع، وقال له "مرحباً بك أيها الشمالي العزيز".

"مرحباً بك يا مولانا، لقد تغيرت كثيراً عن أخر مرة رأيتك فيها، عند خروجي انا والعارف من بغداد" أجاب گريگرس.

فتبسم الرومي عندما سمع گريگرس يناديه بمولانا، وهو منذ برهة وجيزة كان غير مقتنع بمظهره ومجلسه الذي رآه عليه عندما دخلوا المدرسة.

"إعلم يا بني إن الرجل لا يكون عالماً بسبب الجبة والعمامة، وذلك أن الأعلمية فضيلة في ذاته، ولا يغير من الامر شيئاً أن يرتدي صاحبها قباء او عباءة، وإعلم يا بني أن تعظيم الاولياء وإحترامهم لا يأتي من صورهم، وإنما ياتي الاحترام والتعظيم من كونهم روضوا نفوسهم وأجسادهم واصبحو روحاً أكثر منهم جسداً ونفساً، فهم من هذا الباب يمتازون بسمو وعظمة مصدرهما ما وراء الزمان والمكان" وإلتفت الى العارف مبتسماً وكانه يصفه بهذه الكلمات "ومن هنا فإعلم يا بني، الا تستصغر رجلاً في هذه الحياة

الدنيا مهما لمست فيه من بساطة ودروشة، فإعلم أنك حين تستعمل الغربال فإن النخالة تكون فوق الغربال ولا طحين يبقى، فإنه يهبط الى تحت الغربال، قطعاً أن الطحين من حيث القيمة فإنه فوق، بالرغم من أنه من حيث الصورة تحت، وبهذا فإن علو الطحين ليس من جهة الصورة في عالم المعاني ما دام إن ذلك الجوهر موجوداً فيه، فهو فوق في الاحوال جميعاً" وإلتفت الى العارف مشاكساً، وقال "ألا توافقني الرأي إيها العارف؟".

فتبسم العارف وقال "وكإني أرى رومياً غير الرومي الذي إلتقيته قبل سنين".

"نعم يا أيها العارف، فقد أشرقت عليه شمس لا شمس مثلها، والان قد أفلت عني".

"ما قصتك يا صديقي، حزين مهيض؟ وماقصتك مع الشمس؟ هل هناك شيء لم أعرفه عنك خلال فترة غيابي في رحلتي الطويلة لقد أقلقني إبن عربي عندما قال لي، بأنك بأمس الحاجة الى رفيق".

بحسرات وتنهدات تأوه الرومي، فقال للعارف "أشياء وأشياء، لا عليك إيها العزيز، ولكن أخبارك لم تنقطع عني، فلقد كنت أتابع أخبارك، وإنجازاتك، وتنقلاتك الفكرية والمكانية أولاً بأول، بداية من خروجك من عوالم المتمنطقين وزماناتهم ومكاناتهم، فلقد أصبحت أصنام زماننا أكثر من أن تُعد، فمن الملوك والحكام الذين أصبحنا لا نستحي أن نختار لهم ألقاباً تحمل ظلال الاشراك، كما أن لدينا الكثير من الاصنام في باطننا أيضاً، من الحرص والهوى والحقد والحسد، ونحن نطيعها كلها، فنفس الانسان محل شبهة وإشكال، لا يمكن بوجه من الوجوه إزالة الشبهة والاشكال عنها، إلا إذا عشقت بعد ذلك لا يبقى فيها شبهة واشكال، وإن العقل محدود لا يقدم الحلول للاشياء كلها، وكم من ضحايا ضاعوا في متاهات هذا العقل، فلم يجدوا ضالتهم ولم يجدوا أنفسهم،

حتى لقد علمت أنك تركت مجتمعات الفلاسفة وعلماء الكلام، ويا أحسن ما فعلت فإن كتبهم وأعمالهم لا تعدو أن تزيد عن مهاترات وجدالات والاعيب منطقية تحمل نتائجها في مقدماتها، وما أن تدخل عالمهم حتى تشعر بجفاف القلب وضجره، وأعتلال الروح".

وقف العارف مستغرباً لكلمات الرومي ومتسائلاً "هل هذا هو الرومي الذي رأيته قبل سنوات؟" وبادر متعجباً، وقال "ولكأني أرى أنك أكثر إيماناً من ذي قبل، وما الذي غيرك كل هذا التغيير؟".

"أكاد اقول إن الايمان ذوق وإشراق وحدس وحب وعشق، يكتسبه الانسان بالممارسة والسلوك كما يكتسب لغة من اللغات، فمن درسوا اللغات الاجنبية يقولون إن تعليم هذه اللغة لا يمكن أن يكون إلا بتعليم قواعدها، وحشو عقول المتعلمين بقواعدها وصروفها، لكنهم لو مارسوا النطق بها لتعلموها بكل سهولة، وكذلك هو الايمان، فإنه يقوم على أساس العشق والمحبة بدلاً من النقاش العقلي الذي لا ينتهي، فإن خطر في بالك أي خاطر عقلي لا بأس من الاستفسار والاستدلال، وبعدها إرجع الى قلبك، تاركاً الجدل مع المتمنطقين، كما فعلت أنت، وكما فعلتُ أنا، أخذاً بنصيحتك قبل سنوات، وأنتظرت ملهمي وصاقل معدني حبيبي، شمس الدين التبريزي، الى أن أجاد الزمان عليّ بلقائه، وتبادلنا نفحات العشق الالهي، وأسرار العلم الباطن، وجلسنا في حدائق الروح نستنشق عبير المعشوق".

"إذاً لقد وجدت من يبادلك علمك وافكارك أخيراً" يقول العارف.

"نعم، لكنه رحل" أجاب الرومي بحزن.

فجلس العارف متقرباً، متشوقاً، يطلب أن يقص الرومي عليه قصته مع شمس الدين التبريزي.

"حسناً" تنهد الرومي وبدأ بالحديث "بعد أن زرتني يا أيها العارف قبل سنين، ونصحتني بأن أجد من أسلك معه دروب الصالحين، وأعبر معه حواجز الزمان والمكان، متنقلاً بين أفلاك العشق الالهي، وأعرج بروحي من ظاهر الفقه والشرائع الى باطن الارواح والودائع، فصرت أبحث عن شخصٍ من جنسي، ليس البشري بل الروحي، لكي أجعله قِبلة وأتوجه اليه، فلقد مللت من نفسي، حينها جاد علي الرحمن، بشمس الزمان، الدرويش الهائم في ملكوت الله، تاركاً الدنيا والعيال وراء ظهره، متنقلاً بالارض، متاملاً البشر والشجر والحجر، أيات من أيات الله، وبعد لقائي بشمس، إنقلبت حياتي وإتجاهاتي وفُتحت قريحتي، وأشتعلت مواهبي، وتركت مكانتي كعالم فقيه مقيد باصول الشريعة الظاهرة، إلى متصوف في روحانيات الحب الالهي، وعندها هجرت منصبي كفقيه ومدرس، وتخليت عن كل ما كان يشغلني في حياتي، حتى إنني إنزويت عن أهلي واولادي، وإنغمست في قضاء وقتي مع شمس، حتى إن إحدى خلواتنا دامت لاربعين يوماً، علمني فيها ما لم أتعلمه في حياتي من تجليات، ورؤى ربانية، لكن أهل قونيا بدأوا يتضايقون من شمس الذي أخذني منهم، وضاقوا به ذرعاً من تصرفاته التي لا يفهمها إلا الراسخون في العلم والعباد الصالحين، فإن الناس لها ظاهر الفعل، ولا تعلم خفايا الأرواح، وإستمرت رفقتي معه أربع سنوات، حتى أفِلت شمسي، وصرت أنفث لوعات وجدي وحبي أشعاراً روحية عرفانية، وفيرة الحرارة، صادقة الألم" وبعيون مغرورقة بالدموع بدأ ينشد "

لا رفيق سوى العشق

طريق دون بدء او نهاية

يدعو الرفيق هناك

ما لذي يمهلك حين تكون الحياة محفوفة بالمخاطر

حسبت إني حكمت نفسي

فتأسيت على زمان قد مضى

أخذا في اعتباري شيئا وحيدا أعلمه

لست ادري من أنا

آه يا أيها العارف، هكذا نحن في هذه الحياة نطلب ليلاً ونهاراً الهدوء والراحة، والحصول على ذلك في الدنيا غير ممكن، وبرغم ذلك لا نبقى لحظة واحدة من دون طلب، ومثل هذه الراحة حتى عندما نجدها في هذه الدنيا كالبرق الذي يمضي ولا يستقر، وعندئذ أي برق يكون؟ برق مملوء بالبرد، مملوء بالمطر، مملوء بالثلج، مملوء بالمحن".

هزار أفسانة

في أحد الليالي، بعد أيام من مقابلة الرومي، كان زال يجلس على قمة منارة الجامع في قونيا، كان الليل قد أسدل نقابه، وكانت أنوار المنازل تجمل المدينة الجميلة ذات الشوارع المعبدة، والجوامع الزاهرة، والقصور الفاخرة، يستمع لصمت المدينة، المكون من أصوات العجلات على الطرق، ونقض الضفادع، وصرار الليل، وتراتيل المصلين، وصوت النسيم، وتنفس النائمين، فأغلب الناس قد غلبهم النعاس، لكن زال لا ينام فهو الدرفيل الذي ينام وجفناه لا تغلق، فهو ذلك الذي لم يعرف له منزلاً، ولم يكن له أخاً، فهو ذلك الذي يخالط الكل، وينفرد وحده، هو الشهبندر، هو الامير الذي لا أمير مثله، كان يجلس وكان باله مشغولاً بشتى الذكريات والترحالات، ويتحسس ثقوب النرد في يده، فهو يخب في لعبة النرد ويربح منها المال عن طريق تحسسه لثقوبه، فهو بارع بالحيل والألاعيب، وكان يريد عوده ليعزف على بعض الاوتار لتلعب الحان المقامات الاندلسية الجميلة، ولكن هذه المغامرة بالنسبة له أكثر مجداً من العبث الماجن والاستهتار المفضوح، والتطفف، والسرقة، والتجارة الفاحشة، فلعبة التجارة أسهل وأقل خطورة من ماهو في صدده في هذه اللحظة، والسنين القادمة، ما أشبه البارحة باليوم، فها هو ذا يقوم بنفس الشيء، ولكن بمفاهيم أخرى وأساليب مختلفة.

ينظر زال الى أحد الجازيبوات[1] في الاسفل، فيرى تينهنان، تلبس ثوباً من دمقس أبيض، مطرزاً بالذهب، كأنها ليفيا[2]، جميلة مفاتنها، ناعمة بشرتها، فواحة بالازهار وأديم

١ الجازيب، نظام البلكونة في تركيا، يكون مفتوحاً ذا عمد يستعمل للاسترخاء والراحة
٢ Livia Drusilla: من أشهر الامبراطورات الرومانيات وتعرف بهيبتها وسلطانها وجمالها

الارض، يراقبها زال، وكان يرى في جمالها وهيبتها ماكان يراه في أمه العنقاء، فوجدها مهيضة، ومكدومة، تغطي وجهها بيديها، وتذرف الدمع.

"ماذا تريد يا لموص؟" تقول تينهنان الى زال الذي ظهر خلفها فجأة.

"لا شيء، كنت أريد بعض الرفقة، وأعتقد بأنك لربما بحاجة لرفيق".

"لقد تغيرت كثيراً" تقول له.

"كيف؟"

"لقد تغيرت كثيراً" تقول له وتكمل "أنت أكثر الناس لكاعة، وأعظمهم رداءة، فأن شهرتك لها سعيراً خاص، والان، أنت تقوم بكل الخير والاحسان، وتساعد العارف".

فأطلق زال ضحكة عالية، سمع صداها بين الازقة والمنازل.

"لماذا تضحك؟ تكلم بدون موارية[1]".

"كما تريدين، ولكن يبدو أنك لم تفهمي كيف أفكر، وهذا شيء طبيعي، فأنت ملكة، تجلسين في خيمتك، تحكمين شعبك بقوانينهم وأعرافهم التي أنتِ نشأتي عليها، فالذي يجلس في منزله لا يعلم ماذا يحدث وراء حدود هذا المنزل، ولن يقبل أفكاراً مختلفة، ولكني ياسيدتي لست كما تعتقدين، لموص، أو جبان، أخذ من عتمة الليل سلاح، وانحر رقاب الناس وهم نائمون، أنا اخترت هذا الطريق ليس لسهولته، بل لأني لا أثق بأحد غيري يقوم بهذه المهمة، أنا تعلمت من العارف كيف أفكر في الحياة، فالعارف

١ دون موارية: دون أخفاء شيء

كإيكارو[1]، بلغ عنان السماء ومازل في ريعان الشباب، فاحترقت جناحاه، وسقط، فتعلم منها، وأصبح يحلق بجناحان ذهبيان لا تحترقان".

"لماذا سقط؟".

"لقد إعتزم القول بأنّه يعلم، فهوى" ثم أكمل قائلاً "عندما كان العارف شاباً وكان محيطاً بأخبار الحياة وأمورها، قد أمن بما يفكر به ودافع عنه، حتى إعتقد إن ليس من بعد علمه علما، فهوى، لان من يعتقد بأنه على صواب، فإنه مخطئ، فمن يفتح خابية الخمر قبل أوانه يشرب منها خلاً، وبدأ يرتشف من الحياة بروية، وخرج من القيود التي تكبله، وبدأ بالنزول بالفلسفة من عليائها، والدخول بها في معترك الحياة، فعلم إنه فقير ولكن لايعيق الفقر عن الفوز والوصل الى مفاتيح الحياة، بل رتابة الاشياء هي من تعيق التقدم، فكما يقول هو، بإن الله يحب الفقراء ولايحب المتسولين، فأنا أتفق معه في مقولة ثمامة بن الاشرس، بأن أسوء الناس هم أكثرهم شكوى، فلم يشتكي، ولم يكن من الانوف العالية ولكن ذو أنفة، فلم يكن كالذين يقرأون العلوم وينادون بها ولاينجزون منها شيء، فالسفاهة هي الكلام دون أنجاز، هذا ماقمت به أنا، متشبهاً بالعارف، لكن بأسلوبي الخاص".

"لهذا السبب ضحيت بريشة العنقاء؟".

"لقد وجدت نفسي كثيراً على شفى حفر المنية، وكانت هنالك بعض الاوقات التي كان الهلاك قد هبط من كل ناحية، ولكنيّ لم أضحِ بها، ولكن قد وصلنا الى نقطة اللاعودة، فكلما أراد الشخص الوصول الى العلى، كلما زادت المصاعب، وهنالك لحظات حيث

---

١ Icarus: في المثلوجيا الاغريقية هو شاب كان مسجونا عند الالهة فصنع له والده جناحان من الشمع، فهرب ايكارو من السجن، ولكنه بالغ بالارتفاع حتى تقرب من الشمس فذابت جناحيه الشمعيتين وسقط أيكاروس ومات.

يكون الاختيار بين الاستمالة الى الاساليب القديمة، وبين التضحية بما هو غالي ونفيس من أجل الوصول الى الهدف، فأنا والعارف لانؤمن بتغيير الانسان، فالانسان سيبقى أبداً على ماهو عليه، بأنانيته وأهوائه، فالمكان الذي هو فيه داخل هذا الجسد داخل قوانين الطبيعة لن يستطيع منها خروجاً، لهذا لا داعي أن ننصح ونقول يجب على الانسان أن يتغير من شخصيته وأفكاره، وأنما فقط أن يقوم بها، ويضحي من أجلها، لقد قمت بما قمت به في حياتي لكي أكون الشخص الذي يعتمد عليه العارف، لو لم أكن ذلك اللموص، العالم بخفايا الامور من سياساتها، وتجارتها، والاعيبها، لما إستطاع العارف الوصول لهذا الحد، لو لم أجلب لجلالتك قوس الفاياياً لتقبلي بتهريبنا، لما تعرفتي على العارف، لما أحببته، لما رافقتنا، وجعلتيه ينكث العهد الذي قطعه على نفسه".

"عهد؟".

"ألم تسألي نفسك، لماذا كان العارف كمداً، متجهماً بعد خروجنا من أرض الغول؟ سيدتي، لربما الحب يجعل الانسان أقل مرتبة من الانسان، ولكن العارف ليس بهذه السذاجة، العارف عندما كان شاباً كان ملماً بالخيمياء وفهم قوانين الطبيعة، وله من المقدرة على تغييرها وجعلها تجري بأمره، ولكنه قد قام ببائقة[1]، بعدها أطلق على نفسه العهد أن لا يتخذ من هذا العلم طريقاً أو مخرجاً، ولكن بعد أن أخلف العهد لينقذك، عاد التوزان للعارف نفسه، وليس للعالم، لانه أعاده بعد أن قابل اليعسوب ".

"أي توازن؟".

---

١ بائقة: شر، داهية، مصيبة

"بعد أن قام العارف بالبائقة، قد أخل بتوازن العالم، وجعل منه باباً، يدخل من لدنه، أفعال وأجناس من جنس عدم التوازن، هكذا ظهر القرصان والغول في عالمنا، وبعد لقائه باليعسوب أغلق هذا الباب، ولكن ماتزال تبعات ما فعله قائمة، كان العارف يظن أنه عندما يساعد في إنتشار الحضارة في أوربا، حرصاً عليه بأن يجد إتزان في العالم، بعد أن بدأت حضارة المسلمين بالتقهقر، ولكنه لم يفلح، لربما إن أسوء أفعالنا هي أعظمها نتاجاً، وهذا ماقمت به أنا، إن كل ما قمت به من قبل، هو الذي جعلني أعتلي قمة الجبل وأن اكون أنا من يرافق العارف".

"كما يقول گريگرس، أنتم تعقدون الحياة".

"أتفق معك، الحياة إن كانت بسيطة، خل توازنها، فيجب أن يكون هنالك تعقيد، فالناس الذين يميلون الى البساطة في حياتهم، ستظهر عليهم شمس سوداء، تؤدي بحياة النعيم التي ينعمون بها الى ظلام طويل، حتى يستفيقوا من غمتهم، ومن يتخذون التعقيد فقط توقفت حياتهم ولم يرتشفوا من جمالها".

"ان الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم" يأتي صوت جلال الدين الرومي من الخلف الذي يقبل عليهم مع العارف.

"هذا ما أحاول قوله يامولانا، سمعت العنقاء تقول مرة للعارف "عندما تكون في منتصف القصة، فإنها ليست بقصة على الاطلاق، ولكنها فقط إرتباك، فوضى من الحواس، ومقادير بسيطة من أشياء لانراها، ولكنها موجودة حولنا، فمن يمعن النظر يستطيع أن ينعم بجمال هذه الاشياء، وتوظيفها توظيفاً صحيحاً، فتصبح هذه الاشياء جزءاً مهماً من قصة تستطيع أن تخبرها، وإن لم تستطع النظر الى هذه الاشياء وتوظفها، لربما مرت الحياة وكانت مجرد وجود، لا قصة له".

"وهل بدأت ملامح القصة بالتكون لديك؟" يسأل الرومي زال.

"سنرى، لربما العارف لا يحب أن يُذكر إسمه في التأريخ، فكل مايقوم به، لا يكتب إسمه عليه، ولكني لن أغادر هذا العالم بقصة واحدة، ولكن سيكتب الناس عني هزار أفسانة[1]، فأنا زال، أنا الامير القصير، أنا إبن العنقاء، أنا سندباد".

فتبسم العارف، وكانت تينهنان لا توافق على مايقول زال، وكان الرومي، ينصح زال بالبحث عن الروح الالهية في داخله، وطال النقاش، وبدأت شمس الصباح برسم لونها الذهبي على أطراف السماء.

"قل لي؟" يسأل گريگرس بطل الف ليلة وليلة "لماذا كنت ممتعضاً لتحرك هولاكو نحو الحشاشين، انت لست منهم؟".

"إن عش العنقاء بالقرب من هنالك، فإن قلبي وجل على العنقاء".

"سأذهب معك، بعد أن نوصل العارف الى بغداد" يطمأن گريگرس زال.

"سيرتعد هولاكو خوفاً" وتعتلي الاثنان إبتسامات خبيثة، وعيون قادحة.

"لقد ذكر زال هنا شخصاً بأسم ثمامة بن الاشرس، من هو؟" يسأل الرومي العارف.

"مناظر قوي، وأديب بارع، كان يمثل لوناً مميزاً من ألوان الاعتزال المغامر في شؤون الدنيا، المتردد على قصور الخلفاء، يزين مجالسهم بالمناظرة في مسائل الاعتزال وغير الاعتزال".

---

١ هزار أفسانة: ألف ليلة وليلة باللغة الفارسية

"إذا لقد إخترت طريقك، كما إختار ثمامة طريقه، هذه هي رسالتك في الحياة يا أيها العارف؟" يسأل الرومي.

"من لم يتخذ طريق له في حياته، فقد خاب، فالانسان هو مجموع من أفكار وأفعال" يرد العارف.

"من أراد شيئاً، وعمل به، وما سمع لكلام الناس، فما من قوة على وجه الارض ستوقفه، فكم من عبد أصبح ملكاً، وكم من فقير أصبح غنياً، وكم من جاهل أصبح عالماً، أذهب الى بغداد وأتم عملك، فحان وقت أن تحصد مازرعت" يقول الرومي للعارف.

و طلع الفجر في هذه الاثناء، هبطت عليهم الحمامة المطوقة، فأخذ زال الرسالة التي كانت تحملها وقراءها، فتحسر وقال "دخل هولاكو قزوين، ووصل الى همذان بعد أن قضى على الاسماعيليين".

"والوجهة المقبلة؟" يسأل گريگرس عن وجهة هولاكو.

"بغداد" يرد زال.

دار السلام[1]

قبل أن ينطلق العارف، وتينهنان، وگريگرس، وزال من قونيا متوجهين الى بغداد، كان گريگرس يتكلم مع الفتاة التي علا في غرامها، ووعدها بالعودة، فهو محارب له من العزة والشرف، كلمته لا تتغير، لا يغش أحداً، ولايفكر بطريقة فاحشة، وعندما كان يتكلم معها، نظر الى العارف، فغمز له العارف، فبدأ جبين گريگرس الذي لا يهاب شيئاً يتصبب عرقاً، فإن العارف قد أعطاه بعض من الشعر ليلقيه على مسامع الفتاة الحسناء التي أحبها المحارب الضخم، وقال لها:

قَتيلٌ بِوَادِي الحُبِّ مِن غَيرِ قَاتِلٍ ... ولا مَيِّتٍ يُعزَى هُنَاكَ ولا يُزَمْ

فَتِلكَ الَّتي هَامَ الفُؤَادُ بِحُبِّهَا ... مُهفهَفَةٌ بَيضَاءُ دُرِّيَّةُ القُبَلْ

ولي وَلَهَا فِي النَّاسِ قَولٌ وسُمعَةٌ ... ولي وَلَهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مَثَلْ

كَأَنَّ عَلَى أَسنَانِهَا بَعدَ هَجعَةٍ ... سَفَرجلَ أَو تُفَاحَ فِي القَندِ والعَسَلْ

غمُوضٌ عَضُوضُ الحِجلِ لَو أَنَّهَا مَشَت ... بِهِ عِندَ بَابَ السَّبسَبِّيينَ لانفَصَل

فكَم كَم وَكَم كَم ثُمَّ كَم كَم وَكَم وَكَم ... قَطَعتُ الفَيافِي والمَهَامِهَ لَمْ أَمَلْ

حِجَازِيَّةِ العَينَين مَكيَّةُ الحَشَا ... عِرَاقِيَّةُ الأَطرَافِ رُومِيَّةُ الكَفَلْ[2]

فودعها، وودعته، وأنطلق گريگرس مع العارف وتينهنان صوب بغداد، وعندما كانوا في الطريق، ووصلوا الى الموصل، قال العارف لزال "أذهب أنت أمامنا، وأخبرهم بأني قادم، سأدخل من خلال النهر".

١كل المعلومات الموجود في هذا الفصل حقيقة عن بغداد والحقبة المذكورة، ومأخوذة هذه المعلومات من كتابين:
ا-صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي – ميخائيل عوّاد
ب-العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري – أ. د. بدري محمد فهد

٢ من شعر أمرؤ القيس

فأخذ زال العارف بعيداً عن تينهنان، وگريگرس "أستعراض بموكب؟" ماذا حدث لك؟".

"لا تقلق، أنا أعلم ما أفعل" يرد العارف.

"كما تريد، هل معكم جوازاتكم؟".

"نعم، وانت؟".

"عيب!" يقول زال بمكر "أنا لا أحتاج لجواز، لاني غير مجاز بدخول أي مدينة في العراق والشام، فأنا لا أدخلها من أبوابها" وأختفى زال من أمامهم.

وصل كل من العارف، وتينهنان، وگريگرس الى حدود بغداد الشمالية، وكان هنالك مركب نهري ينتظرهم، الملاحين كانوا يلبسون أفخر الثياب، وكان المركب من خشب مطلي بلون باذنجاني، كان قلعه أبيض كبيراً، وكان المجذفين من الزنوج العبيد، فركبوا المركب، وأنطلق بهم، فنظر العارف الي تينهنان وقال "سأدخلك في مقعر زمني".

"ماذا تقصد؟".

"عندما سندخل بغداد، سأجعل بغداد في ناظريك ليست ببغداد الان، ولكن بغداد قبل مئتي عام".

"لماذا؟".

"لانها كانت أجمل مارأت عين، وسمعت به أذن، إنها دار السلام، التي لايوجد فيها سلام، هي أرض الحبيب الذي لا حبيب فيها، هي أرض الاحزان، والاشعار، والحب، والجمال، هي اليونان في جمالها، وروما في عظمتها، وبابل في هيبتها، هي تخت

جمشيد في بهاءها، هي هارابا[1] في شموخها، هي سبأ زمانها، هي واسيت[2] في مثاليتها، هي كل النقيض بين النقيضين، هي مرتع الفردوس وعذاب سقر، هي أرض النهرين، هي غاية بني البشر، هي من الى غريبها طوق الياسمين، ولابنها عذاب وأنين، هي الشمس والقمر، هي مرتع الميادين، حرب الدنيا والدين، هي الانس وليالي السهر، هي أرض عمّرها وخربها السلاطين، أرض أستباحتها المجانين، فيها أطلال وعبر، هي سمٌ يُشرب من كأس معين، هي الحرم في بيت الزراجين، هي صحراء ومطر، هي بغداد ... لايرحمها القدر".

فدخل المركب من عند الجدار الخارجي لبغداد المدورة، فتناسقت الالوان، وأصبحت الشمس الذهبية مشرقة، والغيوم البيضاء تلون السماء الزرقاء، دخل المركب من خلال بوابة عظيمة، عليها نقش بارز يمثل الخليفة وهو جالس وعلى جانبيه تنينان قد أنعقد جسم كل منهما، منظر يخلب الالباب، وكان الجند على قمة الجدار، يلبسون الاقبية الملونة، والمناطق في أوساطهم، ويتقلدون السيوف، وفي أيديهم الدبابيس، والطبرزينات، كان العجيج[3] يعزف موسيقى هادئة، وكانت المياه فواحة برائحة القيسوم والنيلوفر، والزنبق، وكان أهل بغداد يقفون على أرصفتها، وعلى سطوح منازلهم، مهللين، يغنون، ويرقصون على الحان القانيات من العوادات والطنبوريات، والزامرات، والدفافات، والكراعات، بثيابهن الفاخرة والحلي النفيسة، وعطورهن الفواحة من اللخالخ، والكافور، والمثلثة الخزائنية، والترمكية السلطانية، وكان الاطفال يلعبون بالكعاب، والبيض، والسير وفردشير، كانت المنازل ببغداد تقع في أزقة مبنية على طراز معماري من البناء الكُمَّين، تحتوي على النقوش العربية والفارسية الفاخرة، كانت المنازل تغلف من داخلها بالواح

١ Harappa: مدينة تقع في الباكستان حالياً، كانت فيها من أقدم الحضارات في التاريخ، عاصرت الحضارة السومرية والفرعونية
٢ Waset: طيبة، المدينة الفرعونية التاريخية في جنوب مصر
٣ عجيج: صوت النهر

من خشب الساج الهندي، ويطعم بخشب النارنج، على أشكال زخارف ونقوش وكتابات، والحيطان لاتخلو من الستور الحرير، والبسط المعلقة، والطنافس الخرشنية، والنخانخ الاندلسية، والمطارح الارمنية، والقطف الرومية، والمقاعد التسترية، الطرحات القبرسية، ومطارح محشوة بريش الصعو الهندي، وشموع العنبر تتوسط المجالس، فكانت المنازل تحتوي على أفخر الاثاث، فيها كل أنواع الخزفيات، وفيها آخر الاختراعات الحديثة في ذلك الوقت، كالبثيون[1] وغيره من الاختراعات، كأنظمة التبريد، فمنهم من كان له الباذهنج، أو الخيش، او الشرائج التي كانت تغمس بالطيب، والزعفران، وماء الورد، والاغنياء منهم كان لديه المروحة، وكل بيت يحتوي على مكتبة، فيها من كتب الفقه، والعلوم، وغيرها، وكانت كل المطابخ تحتوي على كتاب الطبيخ لأبي الحسن علي أبي منصور المنجم، الذي يحتوي على وصفات جميع أنواع الاطعمة الصحية وطرق طبخها، مثل أكلة الزماورد، والادام، والدجاج الممقور والمصوص، والاسفيذباج، وأيضاً وجبة المضيرة، والسكباج، والهريسة، والعصيد والثريد، وغيرها من المشهيات والابازير، وغيرها من الحلويات كالخبيص، والخشكنانج، والارنين، والناطف، والزلابية، والسنبوسج، واللوزينج، والفالوذج.

كان الناس يلبسون ثيابهم من الثوب البغدادي المشهور، والثوب العتابي، المعروف بخطوطه الممتدة من طرف الى طرف أخر، والثوب الملحم، سداه إبريسم، ولحمته غير إبريسم، ومنهم من يلبس السقلاطون، ومنهم من يلبس الطيلسان، ومنهم من يلبس الثياب السبنية، ومنهم من يلبس الثياب الحظيرية، والثياب التسترية، وأغلبهم ينتعلون اللالجة، كأنهم يحتفلون كأنه عيد القلنداس[2]، وكانت تينهنان أفخرهم ثياباً، تلبس

١ البثيون: وهي ماسورة المياه، فكان في وقتها أختراعاً عظيماً حيث ان فرك الى اليمين خرج الماء حارا واذا فرك الى اليسار خرج الماء باردا

٢ عيد القلنداس: عيد رأس السنة الميلادية

الشوذر من حرير، وفوقه رداء من ديباج، ووشاح مطرز بخيوط الذهب، كان المركب محاط بضروب السفن والمراكب والقوارب من الزبازب، والزلالات، والحراقات، والسميريات، والشبارات، والحديديات، والشذاءات، والخيطيات، وغيرها على أشكال مختلفة، فمنها على شكل الاسد، والفيل، والعقاب، والافعى، والفرس، وكان الناس يحتفلون كأنه يوم الثلاثاء

يــوم الثلاثاء ما يــوم الثلاثاء في ذروة من ذرى الايــام علياء

كأنما هو في الاسبوع واسطة في سمط در يحلي جيد حسناء

مــاطبق الله نيــروز الامير بــه الإ لتــلقاه في كـــــل ســـراء[1]

فدخل الموكب الى حير الوحش[2]، فنهر دجلة يتخلل بساتين وحدائق، فيها من الحيوانات، من الغزلان، والنعام، والفيلة، والزرافات، والفهود، والنمور، وغيرها كالطيور من البط، والطواويس، والقماري، والدباسي، والنوبيات، والشحارير، والزرياب، والهزار، والببغ، والقبج، والفواخت، كأن المار بالحير يغور في أعماق قصة منطق الطير لإبن العطار.

وعندما خرجوا من حور الوحش، ووصلوا الى بستان الخليفة، الذي في قصره يطل على نهر دجلة، كان الامير الاصفهسلار[3] ينتظرهم، رحب بهم، وأستقبلهم بحفاوة.

ثم عادت الالوان الى شاكلتها، وعم الهدوء، فماعادت موسيقى القينات تعزف، ولا نسيم الهواء العليل يحمل العطور والروائح الفواحة، ولكن كان البستان جميلاً تكثر فيه

١ شعر إبن الرومي ... إن يوم الثلاثاء في بغداد القديمة في العصر العباسي كان يوم عطلة، يوم مخصص للبطالة واللهو
٢ حير الوحش: حديقة حيوان
٣ امير الاصفهسلار: أمير الجند من المراتب العسكرية العالية في العصر العباسي

أشجار النخيل الباسقة، وتوجه العارف وتينهنان وگريگرس، يتبعون الامير الاصفهسلار الى داخل البستان، فظهروا على رابية عالية تطل على حديقة واسعة مفتوحة، فيها جمع من الناس، من الفقهاء، والعلماء، والقضاة، والجند، والوزراء، والسفراء، والامراء، ويترأسهم الخليفة المستعصم بالله.

سياسة بغداد

كان الاصفهسلار يتحدث مع العارف طول المسافة من دجلة حتى الرابية المطلة على حديقة الخليفة والتجمع الموجود معه، بعدها، أنطلق الاصفهسلار بعيداً، متابعاً لجنده، يعمل على أن يكون البستان في مأمن، وأن لا يدخله أحد من العامة أو اللصوص.

أراد العارف أن يأخذ خطوة الى الامام، متوجهاً الى الحديقة، فهو الان وصل الى بغداد، هل كانت رحلته الطويلة التي أبعدته عنها قد إكتملت؟ أم إن خروجه لا رّادّة[1] منه؟ وعندما كان يسأل نفسه هذه الاسئلة، وإذ بتينهنان تخطو خطوة أمامه، وقالت "دع الامر لي، أنا سأقوم بالكلام".

"ولكن يا مولاتي" يقول العارف مخاطباً إياها، بهيئة الام الروحية الامازيغية المقدسة، وليس مخاطباً إياها كمعشوقته "إن هؤلاء من دهاة الساسة، فهم أهتار، لا يستطيع أحد مجاراتهم، يستطيعون إغراق الناس بالمدالسة[2]، لست نداً في مخاتلتهم، إضافة الى ذلك، يجب عليك معرفة تاريخ هذا البلد، والاحوال الاجتماعية، والسياسة لمعرفة مناقشتهم، والوقوف أمام منطقهم، فمن لم يعلم بالشيء لايجب أن يتحدث به".

فنظرت إليه حانقة، وعيناها تملؤها مكر ودهاء، وقالت بنبرة حصيفة "يا إيها العارف، لم تأت إلى ملكة الامازيغ، لتكون لك صحبة، بل لتكون لك عوناً، وإن كنت تظن أن في غرامي لك مؤازرة، فإنك مخطئ، إني ملكة، وإني عند تجولي في الاسواق في دمشق مع

---

١ رادة: فائدة
٢ مدالسة: الخداع في الكلام

زال، أخبرني بتاريخ هذا البلد، وأخبرني عن ساسته، وعن أساليبهم الماكرة، وأنا خير ند لهولاء".

فسكت العارف للحظات "حسناً، ماذا أخبرك زال؟" يرد عليها مستمعاً.

"أخبرني بأحوال الدولة الاموية، حيث كانت دولة سياسة خالصة، وحكم وراثي لاشك فيها، فلم تعتنق الخلافة الاموية ديناً، ولم تدع لشيء منه، فكانت دولة تحكم بمنظور دنيوي".

"ولكن العباسيين يختلفون عن الامويين، فهم يدلسون الدين بمصالحهم" يرد عليها العارف مقاطعاً.

"نعم، فأصبح الناس جزئين بعد نشوء الدولة العباسية، وبعد سقوط الدولة الاموية" تكمل تينهنان نقاشها "فقسم، مع الساسة، وهم المستفيدون من الحكم، وقسم مع الدهماء من العامة، العلويين، فكان أصحاب المعتقدات الدينية متحدين، وكانوا متأزرين فيما بينهم، تحت راية معلمهم، أعظم فلاسفة الاسلام، جعفر الصادق".

"ولكنهم الان قسمان" يقاطعها العارف تارة أخرى، ويقول "فبعد أن كانوا متحدين، قسم يتبع الصحابة، وقسم يتبع أل البيت، يتفق القسمان تماماً في دينهم، فأتباع أبي حنيفة، وإبن حنبل، والشافعي كلهم كانوا تحت راية أعظم فلاسفة الاسلام، جعفر الصادق، فإذا إختلف الناس في مبدأ الصحابة أو أل البيت، لم يمنعهم هذا الدين الواحد من أن يكونوا معاً، علويين، إن لم يكونوا بالنسب، فبالانتماء، وكلهم ضد العباسيين، لا أعني بهذا، أن العباسيين خائبين، بل كانوا دنيوياً، من أعظم من حكم الارض، فلا داعي لذكر

الامجاد التي بنوها، والصروح التي أقاموها، والبيمارستانات والمراصد التي شيدوها، والعلوم التي ترعرت في المدراس التي عمروها، وغيرها من مقومات الحضارة العظمى".

فتبسمت الملكة الامازيغية وقالت بكل هدوء، هدوء الساسة الذين ينقضون على خصمهم في الكلام "ولكن عندما دخل رجال الدين في الدولة في عصر المتوكل، وأصبح شعار الدولة "اللهم أنصر الدين والدولة" فنزل الدين وأصبح ديانة، وهبط الفقه من قدسية الدين الى دنس الديانة، وهبط حكم الدولة، وإنتهى أخر حكم قوي للعباسيين، وإنتهى عصر القوة، إنتهى عصر هارون الرشيد، والمأمون، وغيرهم من لهم الفضل ببناء إمبراطورية، تأمر بالعدل البشري، ويشب تحت ظلالها كل مظاهر الحضارة، وبعد إنتهاء هذه الحقبة العظيمة، أصبح الخلفاء طغاة يحكمون الدول، وأصبح رجال الدين...".

"رجال الديانة، وليس رجال الدين" يقول العارف موضحاً.

"كما تسميهم أنت" ردت عليه واثقة "رجال الديانة، يحكمون الشعب، فالفقهاء يملأون أذان العامة من الناس بالموعظة، والخطاب، والتهديد، والوعيد، ويبجلون رجال الدولة وحكامها، فأصبح الخليفة العباسي يتظاهر بالتقوى ويدّعي التدين، ولكنه دنيوياً كما كان الخليفة الاموي، فتزعزع إيمان الناس، لانهم لقمة سهلة، يخضعون للحيل الشرعية التي يلقيها الفقهاء الذين ينعمون بنعيم الخليفة".

فهز العارف برأسه "ألم أقل لك، بأنهم أصبحوا شقين، وذلك بسبب إنشقاق العلويين، طلاب الامام جعفر الصادق، بعد هذه الفترة من الانحطاط الحضاري، فالشق الاول، هم أهل السنة والجماعة الذين يدعمون الخلافة العباسية، والشيعة الذين يقفون ضد الخلافة، وأصبحوا في نزاع مستمر، وأدى هذا الى حروب وشدائد، رائدها الجهل،

والغفلة عن مصالحهم المشتركة، فتعصبوا، وباتوا يقاتلون إخوتهم، متبعين كلام لا يفهموه، إنما هي العصبية المجردة، والتطرف الزائد لفقيه يحرم ويحلل كما يشاء حسب أهوائه، فأصبح رجل الدين عملاً، كعمل الفلاح، والحداد، والنقاش، وغيرهم".

"أنت لا تسمعني" تقول مستنكرة، بنبرة هادئة، لا يعلو صوتها "لم توفق في التشبيه، إن هؤلاء، الفلاحين، والحدادين، والنقاشين يكسبون المال بعرق جبينهم، أما رجال الديانة، فيأخذون الاموال بالكذب على الناس، ولكن لاعتب على رجال الدين، العتب على الناس الذين يتبعوهم، فليس العيب في من قال كلمة، بل العيب في من صدقها دون تفكير، فبدأت الدولة تتداعى لأن المجتمع تداعى، ثم بدأت تتكون تجمعات سياسية مناهضة، أخلت بأخر ظواهر التوازن الحضاري، كثورة الزنج، ثم دولة القرامطة، والراوندية، والمقنعية، والخرمية، والديلمية، والادارسة، والاغالبة، والطولونيين، والاخشيديين،والحمدانيين، والفاطميين، والايوبيين، الغزنويين، أما في وقتنا الحالي بالتحديد توجد هنالك من الدول المنشقة عن الخلافة، قائمة بذاتها، فهنالك دولة الاندلس، ودولة الموحدين، والدولة الزيانية، والدولة الحفصية، والدولة المرينية، ودولة المماليك، والدولة الرسولية، والسلاجقة، والدولة البويهية، والدولة الارتقية، والاتابكة بتسمياتهم المتعددة، والدولة الخوارزمية، والدولة الاسماعيلية".

"يبدو أن زال لم يترك دولة أو إمارة منشقة، الا وأتاك منها بسلطان مبين" يضيف العارف، ويقول "وكل هذا وذاك، نجد معارك الرعاع والاغنياء، فبدأ الترف يسبب النزاعات بين الفقراء الذين يعملون ليلاً ونهاراً، لايجاد لقمة العيش، وهنالك من ينعم بالمال من دون عمل، فأصبح الخلفاء العباسيون في هذه الفترة الاخيرة ضعاف الشخصية ليس لهم دراية بشؤون الحكم، ولكنهم يظهرون الى العامة بمظهر القدسية، ولكنهم خائفون على مراكزهم، فأصبحوا بعيدين عن الناس وعن إدارة شؤون الدولة، ولا

يفرق عنهم المستعصم شيئاً، فهو يعيش في قصره الواسع، ولايظهر للناس الا نادراً، وحكومته في يد غلمان القصر...".

فتقاطعه الملكة المقدسة قائلة"غلمان القصر الذين كما يقول زال عنهم، إن أغلبهم جواسيس".

"جيد" يقول العارف متعجباً.

"فأهمل المستعصم بالله، كما أهمل الخلفاء من قبله الناحية العمرانية، والري، والزراعة، وتفيض الانهار، وأثقلوا الناس بالمكوس والضرائب، وأنزر المعاش[1]، وسرح كثير من الجند، فأصبح التسول عملاً، فالمستعصم بخيل، قليل المعرفة والتدبير، عديم اليقظة، كثير الغفلة، محبأ للهو، يقضي أكثر وقته في سماع الاغاني، فالذي يحكم بقايا الامبراطورية العباسية الان، شخصان، الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي، ومجاهد الدين الدفتردار الصغير أيبك، يصولون ويجلون كما يريدون، فالعلقمي بخبرته الواسعة ودهائه وسيطرته على بيت المال، والدفتردار وحكمه للعيارين، الذين لهم سلطة عليا، حتى على الجيش، فهم كمرتزقة أو جيش صغير، هذا هو الوضع الراهن، يا إيها العارف".

فنظر گريگرس الى العارف بإندعار، وقال الى العارف "أما أنت، فلقد عاشرتهم، وتعلم خفاياهم، وخفايا بغداد، وخلفائها، وأهلها، من تجارها وعمالها، وجندها، ولصوصها، لكن الملكة المقدسة المبجلة، لله درها" فإنحنى لها، وقال "صوتي للملكة".

"حتى أنت يابروتس؟" يقول العارف لگريگرس مصدوماً.

---

١ أنزرت المعاش: قللت الراتب.

"سيدي، أنت لا ترى فرقاً بين الرجل والمرأة، لكن، أنا عندما أرى إمرأة كالملكة، مزمعة، مريدة، لا أحب أن أكون على خلاف معها، إن كيدهن عظيم".

فتبسم العارف وقال لملكة الطوارق "لك ماتريدين، يامولاتي".

فأشارت له بيدها، كما تشير الملكات لوزرائها، بأن يأخذوا بيدها ويسيروا معها حتى مقعدها، فكانت تخطو بخطوات شمم[1]، لايقف أمامها شيء، حتى بدا لگريگرس إن الريح تنفلق لها، لقدسيتها وإكتناهها[2]، حتى وصلوا الى الجمع، وكان الجميع جالسين ينظرون الى الثلاثة قادمين، فسلم العارف عليهم، وقدم لهم الملكة المقدسة تينهنان، ومحاربه الذي يعرفه الكل، فلقد نشأ گريگرس بين قصر الخليفة المستنصر بالله، ومنزل العارف.

وبعد سلام العارف، رد الخليفة المستعصم بالله وقال "وعليك السلام، يا بانِ المستنصرية، يا رفيق عمي، ومن رفض وزارة أبي، يا عارفاً بما لاندري".

فإنحنى العارف إحتراماً، ثم نظر الى يمين الخليفة ونظر الى الوزير، ثم نظر الى شمال الخليفة ونظر الى الدفتردار، وقال "كيف حال طلابي؟ الدفتردار والعلقمي؟".

فردا عليه بأليق السلام، وأسنى الكلام، وخاطبوه خطاب الطلاب لمعلمهم، فجلسوا كلهم وبدأت النقاشات السياسية، الخارجية والداخلية، ولكن كانت السياسة الخارجية هي الموضوع الاهم، كان العارف مراقباً، منصتاً الى النقاشات والحوارات التي لا تخلو من الصراخ، والحقد، والدسيسة، فكانت تينهنان هي من تقوم بكل الكلام، وكانت خير ند للوزراء والقادة.

---

١ خطوات شمم: خطوات ذا إنفة وإعتلاء
٢ أكتناه: جوهر الشي وحقيقته

"متى وكد[1] هولاكوخان في همذان[2]؟" سألت تينهنان.

"أوائل محرم من هذا العام، قبل أكثر من شهر بقليل" يرد الدفتردار.

"وماكان بينكم من مراسلات؟".

"إن هذا المتغطرف، الاهوس، يرسل رسالة الى أمير المؤمنين، الخليفة سلام الله عليه، ويقول له أن يسلم بغداد، وهل في هذا الطلب تعقل؟ إنه أمير المؤمنين، خليفة العباسيين، حاكم البلاد مشارقها ومغاربها، لايسلم شيئاً، بل الناس تسلم له بكل شيء حتى بأرواحها".

فنظرت تينهنان وقالت بحذر "ولكني أعلم بأن الخليفة الناصر إستنجد بالمغول ليقاتلوا خوارزم، وإتفق معهم على أن يدفع له حصة من خراج الدولة، وأن يمدهم بالجيش والعدة إن لزم الامر".

فبهت الدفتردار ولم يعرف مايقول، وكان يتساءل بداخله عن كيفية علم هذه المرأة بما يحدث، فهي مجرد إمرأة، ثم أنها ليست من هذه المنطقة، فبدأ يأخذ حذره في الكلام.

"إن هولاكوخان عندما غار على الاسماعيليين، طلب من الخليفة أن يمده بالمعونة، وأنا نصحت الخليفة وأمير المؤمنين ولكن كان لعظمة أمير المؤمنين رأي أخر، فاستشاط هولاكوخان غضباً، والان، عينه مصوبة نحو بغداد، إنتقاماً" يرد العلقمي.

---

١ وكد: إستقر

٢ همذان: هي المدينة التي إنطلق منها هولاكو بحملته للدخول الى بغداد وإستقر فيها في شهر يناير عام ١٢٥٧

"بعث لي برسالة، يستفسر مني لماذا لم أمدده بالجند" يقول المستعصم مدافعا عن نفسه.

"وبمّ أجبت يا أمير المؤمنين؟" تسأل تينهنان المقدسة.

فأشار الخليفة الى خادمه، فأخذ خادمة رسالة من أحد الرسائل الموجودة على الطاولة، وأعطاها الى الملكة، كان نص الرسالة "أيها الشاب، يا من بدأت بحياتك وشيكاً، وشربت كأس العز، والحظ الحسن من عشرة أيام، وجعلت نفسك تبعاً لذلك فوق العالم أجمع، وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء، كيف تطلب مني طلباً لا يمكنك تنفيذه؟ أيخيل اليك، إنك بذكائك، وقوة جيشك، وشجاعتك، ستأسر نجماً من النجوم؟ إتبع طريق الحسنى، وعد خراسان، إن آلاف الالاف من الخيالة والجند، على إستعداد للحرب رهن إشارتي، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر[1]".

"يا أمير المؤمنين، أما أشار عليك وعاظك؟" تسأل تينهنان الخليفة.

"نعم لقد أشاروا" يرد الدفتردار عليها قبل أن يرد الخليفة "وأشرنا له بهذا".

"أنت أشرت بهذا" يقاطعه العلقمي بالكلام "أنا أشرت على أمير المؤمنين بأن يدفع لهولاكوخان، وأن يبعث له المال، على العهد الذي بينهم".

"ولماذا؟" يقول الدفتردار "لماذا، نحن نتكلم معك أنت يا غريبة؟" يسأل الدفتردار الملكة المقدسة.

"إنها تتكلم بلساني" أجاب العارف، وهو مصيخ للنقاش.

---

١ مقتطفات من رسالة المستعصم الى هولاكو

"حسناً" يقول الدفتردار متلعثماً، ويكمل "لماذا ندفع من خراجنا الى هولاكوخان؟ خوفاً؟ ممن نخاف؟ إن كل من حاول الدخول الى بغداد، قد لاقاه الفشل، وأحاطه غضب الله، فالخليفة أمير المؤمنين هو خليفة الله في الارض، الا تذكرون يعقوب بن الليث الصفار، وأخيه عمرو، والبساسيري، والسلطان محمد السلجوقي، ومحمد خوارزمشاه، كلهم فشلوا في أن يدخلوا بغداد، إما أرسل الله عليهم لعنة، وإما دحرتهم قواتنا، ولا تنسوا بأنّ لدينا جواسيس في جيوش ذلك الاهوج، وجواسيسنا هم من المقربين له، سيعملون على أن يردوه عن قراره، فالفلكي حسام الدين، وهو منجم هولاكوخان الاول، قد نجم له عواقب ماسيحدث إن حاول أن يدخل بغداد، فقال لهولاكوخان بوصاية منا [1]بإن كل ملك تجسر على السير ضد بغداد، وإبناء العباس، لم يبق له عرش ولاحياة، وأذا أقبلت على حربك سينتج عنها ست مصائب كبيرة، فستموت الخيول ويصيب الجنود أمراض كما أصاب بني إسرائيل، وستكسف الشمس لعام، ولن يسقط المطر لعام، وستهب الرياح الشديدة من الاعاصير وتزلزل الارض، وسيموت النبات، كما سيموت الخان الاعظم في هذا العام[1]".

يقول العلقمي معقباً على كلام الدفتردار "ولكننا نعلم أن هولاكوخان قد نحر رقبة الفلكي حسام الدين، ووضع مكانه إستاذ الكائنات، نصير الدين الطوسي بنفسه ،بعد أن أسره في قلعة ألموت، أنت تعرفه يا أيها العارف، فإنه كان أحد طلابك أيضاً، في ما مضى، وكلنا نعرف الطوسي، صادقاً، يفصح عن رأيه وإن أودى ذلك بحياته، ونعلم أن الطوسي ليس بمنجم، ولكنه عالم في الفلك، والرياضيات، والفيزياء، والاحياء، وغيرها من علوم الارض والشريعة، فعندما سأله هولاكوخان عن ما قاله الفلكي حسام الدين،

١ نص ما نجم به حسام الدين لهولاكوخان قبل أن يبدأ بحملته على بغداد

فنده الطوسي، وقال إلاّ أحد يعلم الغيب، وإن من أعد العدة، وأقام في نفسه الايمان بما يريد، أصابه".

"وكم عدد جندكم؟" تسأل تينهنان.

"ثلاثون ألف، ويزيد" يرد العلقمي.

"لم تسألك عن جيش الخليفة، وإنما تسئلك عن جيش الدولة" يقول العارف.

"هذا ماقصدت" يرد العلقمي غير أبه.

فينظر العارف الى الخليفة، الذي كان بلا حول ولا قوة، في داخله ضعيف واهن كشعبه، وفي ظاهره يعتليه الغرور والثقة العمياء، ويقول للخليفة "إن جحافل هولاكوخان التي في تقبع في همذان، تصل الى نصف ألف ألف من الجند، يا أمير المؤمنين".

"بالله عليك، يا إيها العارف، لا يوجد جيش على وجه الارض بهذا العدد" يرد المستعصم، وفي عينيه الخوف والوجل.

"لقد كان جيش هارون الرشيد، أضعافاً مضاعفة من جحافل التتار".

فلم يجب الخليفة لما قاله العارف، وبدأت الضجة تعم الحديقة، فأعادت الملكة المقدسة النظام في الجمع، وكأنها هي أميرة المؤمنين "وما رأي سليمان شاه بهذا؟" تسأل تينهنان.

"مايرى أمير المؤمنين" يرد عليها رئيس حكومة الخليفة، غير مبالٍ لسؤالها.

وإستمرت النقاشات، وإستطاعات تينهنان أن تأخذ بالإخبار التي كانت تبحث عنها، فإنتهى المجلس، وتوجه العارف الى منزله القديم.

"أعتقد بإن العلقمي والدفتردار يعملون معاً" تخبر تينهنان العارف وهم في طريقهما الى منزله.

"لا أعتقد، فإنهما يكرهان بعضهما بعضاً، منذ أن كانا طالبين عندي، فهذا سني وذاك شيعي".

"طلاب!" تقول تينهنان بطنز[1] لگريگرس "ألا ترى إن كل طلابه، أقاموا الدنيا وأقعدوها، إلا أنت ياعزيزي".

"يا مولاتي، إني أحاول أن اكون الواجهة البيضاء له، الا تجديني أرافقه أينما إرتحل" مذق[2] گريگرس معلمه العارف، وهو يتكلم مع تينهنان وتعتليه إبتسامة خبيثة.

فهز العارف برأسه، ولم يجب مستسلماً، ويضحك في داخله، وإستمروا بالتوجه الى منزله، الذي كان بجانب المدرسة المستنصرية التي بناها العارف عندما كان شاباً في عصر المستنصر بالله، وعندما وصل الى المنزل ودخله، كان المنزل نظيفاً، مرتباً، وكأن هنالك شخصاً يعيش فيه، فبعد هذه السنين التي إرتحل فيها العارف، مازال البيت على حالته، كأن البيت بسيطاً، كل الجدران تختبء خلف رفوف الكتب، رائحته فواحة، الشموع في كل مكان، وكأنه مكان للطهارة والتعبد، وكانت تينهنان تنظر الى المنزل وتبتسم، فلم تكن تتوقع أن يكون هذا منزل العارف، بل توقعت منزل كبيراً فيه من الجنان والبساتين، والغلمان والجاريات، وغيرها مما يتنعم به العلماء ذو المكانة العالية.

---

١ طنز: تهكم

٢ مذق: لم يخلص للشيء، أو شابهه

"لا أعلم" يقول گريگرس لنفسه بصوت عالي "هل هذا منزلي، أم بيت والدي في السويد منزلي" فلقد كان المحارب يخدم العارف عندما كان صغيراً، وترعرع بين أحضانه، بعدما أنقذه العارف من القتل من والده.

"عدت أخيراً يا عجوز" يأتي الصوت من شخص قد خرج من أحد الغرف، شعره طويل، لكزه الشيب في كل مكان، يبدو عليه إنه في العقد السادس من عمره، عظيم المنكبين، عيناه موقدتان، يلبس ثوباً أبيضاً، وإبتسامته صقيلة، وعتية في الوقت ذاته.

"الخفاجي!" يقولها العارف، وبدأت دموع الوجد تتساقط من عينيه، وإحتضنه بطريقة لم يحتضن أحد مثلها من قبل.

وطال العناق بينهما، فنظر گريگرس الى تينهنان التي كانت نار الاستغراب والفضول بداخلها متقدة، فقال لها "إنه الخفاجي، أخ الخليفة المستنصر بالله، وعم الخليفة المستعصم بالله، لربما الصديق الحقيقي الوحيد للعارف، كان صديق طفولته، كان قائداً للجيش، وبطل من أبطال العراق، شهم، وصيدح، ومضاء العزيمة، هو الذي علمني المبارزة بالرمح، فلربما لم أكن ذلك المحارب القوي لولا ماعلمني أياه من فنون القتال، فله خبرة كثيرة، فهو دخل في حروب كثيرة، وقتل كثير من التتار، فهو من إستأصل التتار من حدود العراق الشمالية، وكان العقبة الوحيدة، والند الحقيقي لدشت قفجاق[1]، الذي حكم هذه المناطق من الارض بعد أن قسم جنكيزخان مملكته الى أربعة أقسام، وكان يجب أن يكون الخفاجي هو الخليفة بعد المستنصر بالله، ولكن لا أعلم ماحدث، فقد مات المستنصربالله بعد أن غادرنا أنا والعارف من بغداد".

---

١ إبن الامبراطور جنكيز خان، وعم هولاكوخان

وبعد أن تواصل العارف بصديقه، قدم گريگرس على الخفاجي وإحتضنه بقوة حتى عصره، ففتح الخفاجي عناق المحارب، وكان لقائهما أشبه بمصارعة بين الاثنين، فصرع الخفاجي بگريگرس الارض وقال له ضاحكاً "إنهض ياولد، لايغرنك الشيب، ولا تعتقد بإن الزمن قد طوحني بالسنين المرهقة، فمازلت أملك من المريرة[1] ما أصرعك به يا لقيط".

فنهض گريگرس ممسكاً بيداه متألماً، وتعتليه إبتسامة "أنا لا أريد أن أصيبك بالضعضعة، فأنت شيخ كبير".

فضحك الاثنان بزهزقة عالية، وكأنهما يستعيدان ما مضى من السنين، ثم إلتفت الخفاجي الى تينهنان وقال "أعلم أنها ولاغيرها من إستطاعت أن تثقب قلب صديقي كالنجم الطارق".

فتبسمت تينهنان وسلمت عليه بحفاوة.

---

١ المريرة: القوة والعزم

المعاهدة

كان العارف، وگريگرس، وتينهنان، والخفاجي يجلسون في منزل العارف، يسرد عليهم الخفاجي ماحدث في بغداد بعد أن خرجا منها.

"إذاً أزاحوك عن الخلافة قبل أن تتقلد مفاتيحها، ووضعوا ذلك الأنوك[1] مكانك" يقول العارف لصديقه.

"نعم، لقد قلت لنفسي، لا ضير في ذلك، مادمت أنا رئيس الجيش، ومادام نصير الدين أحمد الناقد هو وزير الدولة، ولكن بعد موت الوزير الناقد، إعتلا مكانه اللوذعي[2]، أدهى طلابك، العلقمي، أقصاني من قيادة الجيش، ووضع قبضته على كل شيء، وها أنا سجين في منزلك" يرد الخفاجي.

فطأطأ العارف رأسه، وقال "أعذرني يا صديقي، فيبدوا إني أضعت الطريق بحق".

"لا عليك، فالذنب ليس ذنبك، من ينحني للناس عليه القبول، بأمتطاء الناس له كالبغل".

فحاول العارف الخروج من الضيق الذي في داخله لما يعانيه صديقه، وقال له "تعتقد الملكة المقدسة تينهنان، إن العلقمي والدفتردار يتبعان خطة واحدة، ماتقول؟".

---

١ أنوك: أبله، أحمق
٢ لوذعي: فصيح اللسان، حاضر البديهة

"لا أعتقد، فإننا نعلم كم يكره أحدهم الاخر، ولكن هناك شيء في الخفاء، أنا متأكد من ذلك" يرد الخفاجي ويسمع طرقاً على الباب "إنه قرة سنقر، إفتح له الباب يا أيها الاشقر".

"هذا فارس صيدح، مهذب وغطريف[1]، هو خليفتي في الجيش، أعتمد عليه كثيراً" يعرف الخفاجي قرة سنقر بصحبته.

فشرح لهم قرة سنقر عما يحدث في الجيش، والوزارة، والدولة "إن هنالك الكثير من لهم إيد خفية في هذا كله، كفخر الدين الدامغاني، وسليمان شاه وغيرهم، ولكن كل شيء يتحرك وكإنها لوحة الرقعة، على جانب يجلس العلقمي بالقطع السوداء، فهو يحرك القطع التي تتصل بالحالة الخارجية للبلاد، فلقد سرح كثيراً من الجنود من خدمتهم، ونصح الخليفة بالتزلف لهولاكوخان، ويجلس الدفتردار بالقطع البيضاء، محركاً القطع التي تتصل بالحالة الداخلية للبلاد، فهو من أقنع الخليفة أن يبعد العلقمي بعد أن سرح الجيش، وأقنع الخليفة بأن يناكف[2] هولاكوخان دون أن يعيد بناء الجيش، فضلاً عن ذلك قيادته للعيارين، فهم مرتزقة ينادون بسنية الخلافة، فنهبوا الكرخ بشيعته، وبدأت حرب المناوشات بين السنة والشيعة من الداخل، وكان الحنابلة على خلاف مع الحنفية، لان الحنفية أقرب من الخليفة وهم أكثر في مؤسسات الدولة".

"وماذا تقول عن كلام تينهنان؟" يسأل الخفاجي.

"لا يختلط الماء بالزيت، لا يمكن أن يكون هذا، فالدفتردار يكره العلقمي، والعلقمي يشرب العلقم كلما يرى الدفتردار".

---

١ غطريف: كريم وسخي
٢ يناكف: يقف له ندا

"وماذا تتوقع؟" يسأل العارف قرة.

"ماذا أتوقع؟ إنه قادم لا محالة".

"كم لدينا من الوقت؟".

"عام واحد".

فوقف العارف، وبدأ يفكر، ينظر الى كتبه، وعقله يسرح في الافكار والحساب، وبعد فترة طويلة ينظر الى گريگرس ويسأله "أين زال؟".

"لا أعلم".

"أنا أعلم" يأتي صوت زال، خارجاً من أحد الغرف "لقد سمعت كل ماقاله الخفاجي وقرة، وكلامهم صحيح الا شيء واحد".

"وما هو؟" يسأل العارف زال.

"تعال معي".

"الى أين؟" يسأل العارف.

"لا أستطيع إخبارك، وستأتي وحدك، حتى بدون گريگرس" يرد زال.

"حسناً" يرد العارف.

وإنطلق العارف وزال في أزقة بغداد الضيقة إعتساساً[1]، كان العارف يرى إن بغداد قذرة، تكثر فيها الازبال، جدران المنازل متسخة، فبدأ يتذكر التفاصيل الدقيقة التي شاهدها عندما كان يمشي في شوارع بغداد، بعدما كان متوجهاً الى منزله، بعد أن فرغ من الاجتماع في حديقة الخليفة، إن الناس وجوههم كليلة[2]، دواخلهم دمامة[3]، أفكارهم ورئاء[4]، الفقير في الشارع لا يعطيه أحد المال، والعجوز لا يساعده أحد في عبور الشارع، والطفل يلعب وهو تاعس، وبالغت المرأة بحجباها وبلباسها، فعيون الرجال قذعاء، طلاب المدرسة مترنحون من الكسل، والمعلمين متقاعسين بتعليمهم، أذان الجامع هامس، لون السماء باهت، الهواء عافن، كل هذه المشاهد تذكره بلحظات هروبه من لندن قبل سبع أعوام، فكل شيء هنا وهنالك متطابق ومتجانس، ولكن هنالك الاشياء تنقشع، وهنا الاشياء تطمو، فهل هذا التوازن الذي قال عنه زال؟ هل بدأ التهتك هنا، والسمو هناك؟ هل سيصبح هنا التأريخ، وهناك الحاضر؟ يسأل العارف نفسه، ولا يجد لاسئلته جواباً، وهو يتبع زال الذي يقوده الى مكان لا يعلمه، ولكن كل مايعلم بإنهما الان خارج أسوار بغداد، فتقربا على إحدى المقابر النائية، التي كان يسكنها الدومر[5]، فخرج عليهما شخصان، مغطيان رأسيهما، وقال أحدهم "السلام عليك إيها العارف".

فهز العارف برأسه، بإبتسامة ندم "كان عليّ أن أصدق بتينهنان" يقول "الدفتردار والعلقمي يعملان مع بعضهما".

---

١ إعتساس: إعتس الشيء: قصد الشي ليلاً
٢ كليلة: ضعيفة ومتعبة
٣ دمامة: قبيحة
٤ ورئاء: تظهر خلاف ماهو عليه
٥ الدومر: الغجر

"لا ياسيدي" يجيب العلقمي "نحن نعمل للهدف نفسه، كلٌ له أسلوبه".

"وما الهدف؟"يسأل العارف.

"حان الوقت بأن تنتهي هذه الحقبة الزمينة" يقول الدفتردار.

"لماذا؟ وكيف؟ سني وشيعي على وفاق؟ منذ متى؟".

"لا تعتقد كما يعتقد معظم الناس بنا، إننا لا نقوم بهذا من أجل المال، والحكم، أو من أجل إنتمائنا الديني، الطائفي أو العرقي، نحن نقوم بهذا، لان الامر أصبح يبعث على التقزز! الا ترى؟ حضارة عظيمة، يحكمها بهماء، ويعيش فيها الدهماء، فنحن كالسنة والشيعة، ألم تتفق الفرقتان على الظلال، والإنكسار، والتفرق؟ فها نحن نتفق" يرد العلقمي.

"قوموهم" يقول العارف.

"يا سيدي، إن ما يعانيه هذا البلد من تفسخ إجتماعي، وإنحطاط أخلاقي، لا يرتق في يوم أو يومين، وخاصة، إذا كان الناس لا ينصتون، فلقد علمتنا منذ صغرنا، أن لانكون إفلاطونيين، فدعوة الناس إلى الإصلاح أمر يسير، ولكن الوعظ لم يفلح في يومٍ من الايام، إنما الانشاء الصحيح هو من ينفع الناس، فالناس لا تسمع الا لمن يقول لها ماتريد أن تسمعه، فهم إعتادوا على سماع المواعظ من غير أن يطبقوها" يشرح الدفتردار.

"ذلك لان الواعظين أنفسهم لا يتبعون ما يقولون" يرد العارف.

"بالضبط يا سيدي، نحن نعلم، أن العرب كانوا يحاربون بعضهم بعضاً، حتى جأء النبي محمد، فأصبح العرب قوة واحدة، لان محمد ابن عبدالله يقوم بما يقوله، فهو الصادق الامين، وبتوحدهم إستطاعوا إنشاء الامبراطورية التي نحن في أطلالها، ولكن ألان هم متفرقون، ولا نبي بعد محمد، ولم يظهر بينهم من يفعل مايقول، ولكن كل يدعي النبوة بكلامه، فكلٌ عندما يتكلم، ترى في طريقته، إنما قوله هو الحق، وإن كل شيء غير مايقوله هو الظلال المبين، فأصبح الناس يعيب أحدهم الاخر، ومهما كان للانسان من فضائل، يضعه الناس في ميزان الاخلاق العالية، الذي لا يصله أحد، فبذلك يجدون عيباً في أي رجل، ولا يرون عيبوهم بالرغم إنهم أيضاً في ميزان الاخلاق العالية لأناس أخرين، فلا ترى عيوبهم، فأصبح المجتمع يطلب من الفرد أن يكون كالملاك، والفرد يرى في المجتمع الشيطان، فأصبح الفرد شيطاناً، لان المجتمع يعتقد بكماله كالملاك، فتفكك القوم قضهم وقضيضهم[1]، وعندما يخرج لنا إنسان بعيوبه وحسناته، لا يقبله المجتمع، فيلعنوه ويطعنوه من كل جانب، متناسين عيوبهم التي هي أشد وأبغض، ثم بعد مماته، يبجلون الذي كانوا له طاعنين، ويقدسوه، فأصبحوا كالمنافقين بل أضل سبيلا، فهم يحبون من لايحترمونه، ويحترمون من لايحبونه، فتكونت الطبقات بين الناس، من لا يبالي بالناس، ومن يغالي في رأيهم، فالذي يهتم لامرهم أذوه حباً، والذي تعالى عنهم كرموه خوفاً، فتكوّن الضعاف منهم، وأصبحوا تحت بطش الجلاوزة، الذين نحن منهم، أنا والعلقمي، تخيل يا إيها العارف، شخصان فقط يتحكمون بحياة آلاف آلالاف من الناس، فيسجد الناس لمن دعس على رأسهم، وبصق الناس في وجه من أراد إعلاء شأنهم".

"إحكموا بهم بالعدل، وبالصلاح" يقول العارف.

---

١ القوم قضهم وقضيضهم: جميعهم

"إنهم لا يريدون هذا، هم يريدون أن يحكمهم طاغية، فالمجتمع، متفسخ، فاسد، لايستطيع أن يوفق بين مصلحته ومصلحة أفراده، فنشأ هذا الفرد في هذا المجتمع، يرى أخطاء الناس، ولا يرى في نفسه خطأ، فبدأ الفرد يحكم على الفرد الاخر كما يحكم على المجتمع، ولا يصلح العطار ما أفسده الدهر".

"وماذا تريدون مني؟".

"نعقد معك إتفاقاً".

"لماذا؟"

"أنت العارف، نحن طلابك، أنت الوطن للغرباء، وأنت العلم للجهلاء، أنت التأريخ لمن لا حاضر له، أنت علمتنا آلاّ نكون منسوخين، ونرى في مانفعله صلاح" يجيب العلقمي.

"هاتا ماعندكما".

"نحن نستطيع أن نوقف هولاكوخان في مكانه، ونستطيع إقناعه بأن لا يدخل بغداد، فأنا كما يعتقد هو، بإني جاسوسه في بغداد ومن يقوم بترتيب الامور لدخوله، فيسمع مشورتي، وأما الدفتردار، فهو الشخص المطلوب من هولاكوخان، لانه من يقوم مقام الخليفة الذي لا رأي له، فإذا أخبرناه بمقتل الدفتردار كذباً، تقاعس عما هو بصدده، والطوسي معه في خيمته، بصفته منجمه، يستطيع أن يأتي له بالحجة ليتوقف عن مسيرته، فالطوسي يعلم كيف يقوم بهذا، بعلمه، وفصاحته، ودينه، وأما مفتاحنا الحقيقي لهذا كله، هو صديقك هنا" يشير العلقمي الى زال.

فشزر العارف زال "ومادخلك أنت في هذا؟".

"إستمع لما لديهم" يقول المهرب للعارف.

"يا إيها العارف" يقول الدفتردار "إن للامير القصير هنا دور لا يقل عن دورك بشيء، فكلنا هنا نفعل ما نراه صواباً".

"إذ أنتم تستطيعون أن توقفوا هولاكوخان، فماذا تريدون مقابل ذلك؟ حجر الفلاسفة؟ ماء الحياة؟" فشزر العارف زال تارة أخرى، ووبخه بغضب "أهذا ما أنتهى بك المطاف عليه؟ أنت جاسوس لهم بصحبتك معي؟ هل أصحبت معتوهاً بعد أن رأيتني أقع في فخ البائقة من قبل؟ وأردت أنت تقوم بما قمت به أنا؟ هل أصبحت حياة الناس مقابل شيء واحد؟ هل غرقت في الخزي لهذا الحد؟ لم أكن أعلم أنك نزق الى هذه الدرجة، كان يجب أن أترك السم في داخلك، يقتلك بروية، وتتعذب كما تستحق".

فلم يجب زال على ماقاله العارف.

"لا تجيب؟ لا أريد أن أراك مرة ثانية! أغرب عن وجهي، لعلك تغرب عن الحياة بأكملها، لحاك الله[1]" رغا صوت[2] العارف على زال.

ومن دون أي كلمة أو همس، لم يعد للمهرب وجود في المقبرة المهجورة، إختفى زال بطريقته المعهودة في دياجير الليل.

---

١ لحاك الله: لعنك الله
٢ رغا: إشتد صوته صراخاً

"يا سيدي العارف، نحن نعلم أنك قد أعطيت اليعسوب كلّ من حجر الفلاسفة وماء الحياة، لا نطمح الى ما اتهمت به ابن العنقاء، نحن نريد أن يكون بيننا وبينك معاهدة" يقول الدفتردار.

"أي معاهدة تلك؟" يسأل العارف.

"إن إستطعت أن تقوم بأحياء الناس من موتهم، وتجلعهم ينعمون بصفاء العقل، ورجاحة الرأي، أن يقفوا صفاً واحداً، ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولايتفرقوا، وأن تطهرهم من كل السموم التي دست لهم من الخلفاء، والفقهاء، والعلماء، وغيرهم من الذين مزقوا وحدتهم، إذا إستطعت أن توحدهم، لينبذوا سنيتهم، وشيعيتهم، وعربيتهم، وتركيتهم، وكرديتهم، وفارسيتهم، وتجمعوا وتألبوا، تجمعهم خيرات أرض واحدة مشتركة، ليس لوقت طويل، ولكن لفترة من الزمن، يقفون أمام عدوهم، ليس هولاكوخان، ولكن كسلهم، وتقاعسهم عن التفكير، والقيام بمهام الحياة، والخروج من مغارات الطائفية، والعرقية".

ثم يضيف العلقمي "إن إستطعت القيام بهذا، أبعدنا عنهم هولاكوخان، ونحلف بالعروة التي سنقطعها معك، ومع الله، إن وقفوا صفاً واحداً، لن نبعد هولاكوخان فقط، وإنما سنعيد إعمار بغداد، ليس البناء والعمران، وإنما الناس، سنقوم بتثقيفهم تارة أخرى، ونعطيهم من علوم الارض، ونعيد لبغداد أمجادها، ولكننا لا نستطيع أن نقوم بهذا وهم متفرقون، أفكارهم في زنيم[1]، وأفعالهم في توار[2]، وتقطعوا أمرهم بينهم، فإن لم تستطع ذلك، فتحنا الباب لهولاكوخان، [4]إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء

١ الزنيم: اللؤم
٢ توار: إختفاء

إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون[١]، ونحن لن نساعدهم حتى يساعدوا أنفسهم، فكما يكونوا يول عليهم، وأذا كانوا متفرقون، أدخلنا عليهم عذاب الله، ففي الغابرين، كان الله يبعث بالصيحة، وريح صرصر، أما الان فالعذاب يأتي من بني البشر، فمن أباح للناس أن يقوموا بالبهتان ولم يقومهم، أتى عليه البهتان".

"ولكن بهذا، ستكون أسمائكم ملأها العار والشنار!".

"نعلم ما سيكتب بحقنا التأريخ، ونعلم من سيبرأنا ومن سيكفرنا، فالتأريخ لم يتغير، ولكن لا نرى من بعد هذا مخرجا، الناس يحبون أن يلقوا اللوم على الاشخاص، واللوم فيهم، يريدون طريدة يلحقوا وراءها، لينزهوا أنفسهم عن عيبوهم وضعفهم، فبها، فنحن نعلم مافي صدورنا، لكن المجتمع الذي لا يرى العيب فيه، وأفراده تنتقد دون تغيير ما ينتقدوه، وتراهم جميعاً في سبات، فهم في العلى عند اللمز، وفي الدرك عند العوز، فإعلم، هم الخونة وليس من يذكر في كتب التأريخ".

فتفكر العارف للحظات، وأدرك الاستقامة، والعديل في كلام كل من العلقمي، والدفتردار، فقال لهم "إن لكم منطقاً لا شطط فيه، لكم هذا، إن عجزت عنهم، أدخلوه عليهم، وكان وعداً مفعولا".

---

١ القران: الانعام ١٥٩

دار الحكمة

دخل العارف الى دار الحكمة في بغداد ومعه تينهنان، وگريگرس، فنظر العارف واغلق عينيه وقال وهو مكروب "في ما مضى، كانت أصوات ألالاف تتضارب في هذه الدار، منهم الراكض ومنهم الراكع، من الطلاب، والعلماء، والفقهاء، والناس الكبير منهم واليافع، فكان أهل بغداد يقرأون كل يوم، والان الكتاب وحيد جازع، تبكي كلماته على السطور، يحتضنها التراب حيفاً كالبراقع[1]، لاينجم عما فيها شيء، والقلم بالحبر دامع، هجرها إبن بغداد، كما هجر حياته، بحثاً عن المطامع، فأخذ الغم دثاراً له، وما كسب شيئاً، كالشجر الخالع[2]، وإستبدل القراءة بجلسات الحوار الفارغ والكلام غير الناجع، فكانت أفكاره في ضياع، وكانت أفعاله كالهاجع[3]، فأهمل العلوم، وبات مستهلكاً، ترك الحرفة وعَدِل عن المزارع، فهل للعقول من صحوة، وهل لأبواب النائمين من قارع؟" ففتح العارف عينه، ونظر الى تينهنان التي كانت تنظر الى عظمة دار الحكمة، أرضها من حجر المرمر، وحيطانها المنقوشة بأعظم النقوش، والزخرفات الفارسية والعربية، وتنظر الى السدف المطرز بحرفة عالية، والسجاد العجمي الذي فرش على الارض، والشبابيك المزخرفة بالرسومات، والتهاويل[4] الموزعة على زوايا الممرات التي لاحصر لها.

كانت قبة دار الحكمة عبارة عن مرصد فلكي، وكانت تشتمل على عدد ضخم من الحجرات، وقد خصصت كل مجموعة من الحجرات لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات الفقه، وحجرات الطب، حجرات الكيمياء، وحجرات التاريخ، وغيرها من كل

---

١ برقع: براقع: غطاء يغطي الوجه
٢ الشجر الخالع: الهشيم والساقط
٣ أفعال الهاجع: أي أفعال النائم من قلتها
٤ التهاويل: التماثيل

علوم الارض، وكان في المكتبة العشرات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها، الذين كانت أعدادهم بالمئات، وذلك لقلة المقبلين على الدار، ولم يعد للنساخين، الذين ينسخون من كل كتاب أكثر من نسخة وجود، والمناولون، الذين يناولون الناس الكتب من أماكنها المرتفعة، يجلسون في الحديقة، لا عمل لهم، والمترجمون الذين يترجمون الكتب الأجنبية هاجروا الى مكان أخر فيه الناس تقرأ ما في الكتب التي يترجموها، أما الباحثون الذين يبحثون في الكتب، فقد قل عددهم من الالاف الى العشرات، وكانت هناك غرف خاصة للمطالعة، وغرف خاصة لحلقات النقاش والندوات العلمية، وغرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، وكانت هناك غرف لإقامة طلاب العلم الذين جاءوا من شتى أصقاع الارض، ولكن كل هذه الغرف، يصرخ فيها الصدى تهنفاً[1]، أما منظر الكتب يسحر الانظار، فيوجد في هذه الدار ملايين الكتب في كل المجالات، من مختلف اللغات العربية، والعبرية، والسريانية، والارامية، واليونانية، والفارسية، والسنسكريتية، وغيرها من اللغات، فكانت دار الحكمة أكبر مكتبة عرفها التاريخ بعد مكتبة الاسكندرية.

"لماذا جئت بنا الى هنا؟" يسأل گريگرس.

"ستكون دار الحكمة مركز للعمليات" يجيب العارف.

"ماذا تقصد؟".

"لقد أعطانا كل من الدفتردار، والعلقمي عاماً واحداً، لننصح الناس، ونغير طريقتهم الملتوية في التفكير، فلا يوجد مكان أفضل من هذا، شاسع، لايوجد فيه كثير من الناس، فيه من الكتب ما أستطيع أن أحفظ أكبر كم ممكن".

[1] تهنف: صوت البكاء

"وماذا عن زال؟" تسأل تينهنان.

"لقد ظننت به ظن السوء" وأنبس[1] العارف، يجلس على أحد المقاعد.

فنظرت تينهنان الى گريگرس وكلها حيرة، ولايعلم گريگرس ماذا يفعل، فعم الصمت في دار الحكمة، ومضت الساعات من دون كلام، حتى دخل الخفاجي الى دار الحكمة ويتبعاه اثنان، أحدهما في العقد الثالث من العمر، والثاني غلام صغير، لم يكمل الخمسة عشرة عاماً.

"هذان هم من سيساعدانك في مهمتك" يقول الخفاجي للعارف.

فنظر العارف لهما، وكان الغلام على يمينه فسأله أولاً، فهذه عادات أهل بغداد سابقاً، أن يبدأ الشخص من اليمين بالكلام، أو السلام، أو التقديم، سواء إن كان غلاماً، أو شيخاً، أو طفلاً "عرفني عن نفسك؟" يقول العارف بأبتسامة.

"أنا عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني[2]" يرد الغلام.

"تشرفت بمعرفتك" يرد العارف، وينظر الى الرجل الذي في عقده الثالث، ويسأله "وأنت؟ لنا شرف معرفة من انت؟".

"شمس الدين محمود بن أحمد بن عبدالله بن داوود إبن محمد بن علي الهاشمي الحارثي الكوفي" يرد الشاب.

"أنت الحنفي الواعظ؟" قال العارف.

---

١ أنبس: سكت ذلاً

٢ والمعروف بابن الفوطي

"نعم، ولي الشرف بإن أخدمك في مسعاك، يا إيها العارف" يرد عليه الكوفي بكل ثقة وإحترام.

"أترى يا گريگرس، ليس كل الوعاظ سيئين".

"نعم ياسيدي، وأنت منهم".

فضحك العارف، وقال "هل لنا أن نبدأ؟".

وإنكب الكل في العمل، فالعارف في دار الحكمة بين الملايين من الكتب، ومعه كل من الصابوني والكوفي، يساعدانه، في حشد الناس، ويقومون بالحفظ، والتقييم، والترتيب من الكتب والمعارف وغيرها، ويجلبون له من أراء العامة في الشارع والمقاهي، وكانت تينهنان تتردد على قصر الخليفة، فهي الان من ساسة الدولة، تأخذ مقام العارف بين الوزراء والحكماء، فهي كأم موسى القهرمانية بهيبتها في دار الخلافة، تبعد تسلط الوزير والدفتردار عن الخليفة، وتحاول تسيير أمور الدولة بحزمها، وحكمها، وكان گريگرس مع الخفاجي، وقرة سنقر، يتجولون في بغداد، يعاينون أسوار المدينة، وأساليب الدفاع عنها، وخرائطها، وجيشها، فبغداد تتكون من ثلاثة أقسام، قسم دجلة الغربي، وقسم الشمالي من شاطئ دجلة الشرقي، وقسم الجنوبي من شاطئ دجلة الشرقي، فكانت بغداد الشرقية الجديدة يقيم بها الخليفة، فقصر الخليفة يختلف عما كانت عليه قصور الخلفاء في العصر الذهبي، فقصر الفردوس كان قد تهدم وزالت معالمه، والقصر الحسني القديم قد تهدم أيضاً، وهنا أنشأت المدرسة المستنصرية وقصر الريحانيين، على جنوب المدرسة يوجد قصر التاج القديم، يحيط بهذه القصور سور يفصلها عن محلات العامة، التي لحقها الضرر بسبب فيضان دجلة من محلات المأمونية، وباب الازج، والريان، والمختارة، ومسعودة، والمقتدية، وقراح القاضي، وقراح أبي شحم، وقراح إبن رزين، كل

هذه المحلات تقع داخل سور له أربعة أبواب، باب السلطان، وباب الظفرية، وباب الحلبة، وباب كلواذي، وكانت على هذا السور مئة وثلاثة وستين برجاً من أبراج الدفاع، كانت هذه المنطقة هي التي عرف گريگرس أن هولاكوخان سيقبل عليها، بحكم موقعها الشرقي، وعند العودة، لاحظ گريگرس إن بغداد الغربية تتصل ببغداد الشرقية بجسرين فقط، وأكثر الناس بدأت بالتنقل من الجانب الشرقي الى الجانب الغربي.

"بهذا العدد من الجنود، وبهذه الجدران التي لم تعمر منذ فترة، سيدخلها وهو نائم" يقول گريگرس حانقاً.

"ولا نستطيع أن نكثر من الجنود؟" تقول تينهنان.

"لا! إن أغلب الجنود هم من الشيعة، وأن فقهاء الشيعة أمروهم بألا يدافعوا عن الخليفة، وفقهاء أهل السنة لاصوت مسموع لهم، فلقد أختالوا على الناس بتزلفهم للحكام، فأصبح الناس بمنأى عنهم" يرد الخفاجي.

"لا هؤلاء شيعة، ولا هؤلاء سنة، فليس لهم من الاسلام شيء، كل من يدافع عن مصالحه الخاصة، كم أتمنى أن يُسقط الناس الكلام الطائفي من لسانهم بعيد عن معتقداتهم، ويتكلمون بما تخالجهم أفكارهم الشخصية" يقول العارف.

"لاحياة لمن تنادي" يقول الكوفي.

"يا إيها العارف" يقول الصابوني "لماذا لا تخطب بهم؟ فأنت محترم من عند الاثنين، فالخليفة لايستطيع أن يقف في وجهك، والمتأسلمين من سنتهم وشيعتهم يعلمون ثقافتك ودرايتك".

"لقد يأس الناس من الوعظ، والخطب الرنانة" يرد العارف.

"لإن الوعاظ يقولون ما لا يفعلون؟" يسأل الصابوني.

"نعم".

"إذا، إفعل ما تقول".

فنظر العارف الى الصابوني مبتسماً "ليتني أعلم، لِم يقود الكبار الدول، والصغار لا رأي لهم؟ فلا تجد الحكمة الا في أفواه الاطفال، ولا تجد الا الحنظل في أفواه الكبار".

"وماذا ستقول في خطبتك؟" يسأل گريگرس.

"إن كنت عربياً، فلا داعي لأن تخطب فيهم شيئاً جديداً، فهنالك خطبة واحدة، كانت، وماتزال، هي الخطبة التي لا غنى عنها في هذه الظروف الحالكة" يرد العارف.

"أي خطبة هذه؟".

"خطبة قس بن ساعد الايادي" يأتي الصوت من باب دار الحكمة، شخص يدخل الباب ويمسك بعصا، إنه ضرير، كان شيخاً، مليحاً، مهيباً، تعتلي وجهه الرصانة، كبير القدر والسن، ويقول بصوت رنان وكأنه يخطب "*يا أيها الناس، إسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، جمع وأشتات، وآيات، وأرض ذات رتاج، وبحار ذات أمواج، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا، تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية، والقرون الماضية، يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين ثمود وعاد، وأين الفراعنة الشداد، أين من بنى وشيد، وزخرف*

ونجد، وغره المال والولد، أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال أنا ربكم الأعلى، ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم آجالاً، وأبعد منكم آمالاً، طحنهم الثرى بكلكله، ومزقهم بتطاوله، فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خاوية، عمرتها الذئاب العاوية،

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر[1]"

فنهض العارف مبتسماً وتقدم على الضرير، فوقف الضرير ونظر ببصيرته على العارف "أنت في بغداد، ولا تأتي وتسلم على رسيلك[2]؟".

"العذر منك يا زين الدين، فلقد ضاقت عليّ الدنيا، وها أنا هنا، أحمل ما لا طاقة لي به" فسلم العارف وأحتضنه.

"من هذا؟" تسأل تينهنان گريگرس.

"إنه زين الدين علي بن أحمد الامدي العابر، إنه إستاذ في المدرسة المستنصرية، هو زميل العارف في بناء المدرسة وكان من أول أساتذتها، أبتدع الكتابة البارزة للعميان، فأصبحت للضرير حصص في المدارس، ودفع من أمواله ليدخل كل طفل في بغداد الى المدرسة، فضلاً عن ذلك، فهو آية عظيمة في تعبير الرؤيا، عبقري، وفطن، لسانه لاذع محمود، وعلمه واسع ممدود".

---

١ مقتطفات ومختارات من خطبة قس بن ساعد الايادي المشهورة
٢ رسيل: رفيق الدرب والنظال

فسلّم زين الدين العابر على من كان مع العارف، ودخلوا في نقاشات طويلة، كانت الايام والاسابيع تجري بسرعة، وكانت تينهنان، تحاول من دون جدوى بإقناع الخليفة لإتخاذ اللازم لمواجهة التتار، أو التزلف لهم، وكان گريگرس والخفاجي يقومان بما يمكن، لأنشاء الدفاعات اللازمة على أسوار المدينة، وكانا يحاولان توحيد صفوف الجند الذي لا جدوى منهم، فالجند، لا قوة لهم ولا عزم، وكان العارف، والامدي العابر، والكوفي والصابوني، يعملون على حفظ الكتب والمخطوطات، والعمل على توحيد صفوف الناس، ولكن الناس متنازعين في مابينهم، لا يسمعون أحداً فهم كالاخياف[1]، يجلسون في بيتوهم يندبون حظهم، والاراء في تناف، يلومون خليفتهم على الرزايا والعيش الحاف، فالسقام في أفكارهم، يسممهم التجاف، فما للعارف ومن معه ما ليوسف في السنين العجاف، فكأن كلامهم في شبك الصياد كالهواء، أموات أحياء، فما بعد هذا البلاء، بلاء، فهم كالطلل الدارس، والاثر الطامس، كالقلاع أدركتها الروامس، مايسمعون للقول الا الوساوس.

كان العارف جالساً في بيت الحكمة، وكان الليل إدلهم ظلامه، يجلس بين الكتب، يحفظ مافيها من الكلام، دموعه أسالت الحبر من على الورق، فقد برح به الامر، ولايعلم مايعمل، فالحائن[2] مقبل على الناس، وهم لايتقون، فلا يعلم مالعمل، فالناس بالملايين، والقادة بالعشرات، يسأل نفسه "كيف يحكم القليل الكثير؟ كيف يقبل السراة[3] حكم العبيد؟ عبيد المال والسلطان، بالغرم من أن السلطان للكثرة من الناس، ولكن الرماح إذا أفترقن تكسرت أفرادا".

---

١ الاخياف من الناس: الظروب المختلفة الاخلاق والاشكال
٢ الحائن: الهلاك والموت
٣ السراة: الاشراف من الناس

فأحس العارف بيد تتخلل في شعره، وشفاة تقبل رأسه، واذا بتينهنان، بملابس فضفاضة، مزخرفة، من دمقس، شعرها أسيل[1]، عيناها وضاءة، إبتسمت له بإبتسامة ملؤها رقة، وحنوّ "الا تريد أن ترتاح؟".

"لم أذق طعم الراحة منذ أن سلكت الدرب الاحنف" وينظر الى گريگرس الذي وقف عند باب دار الحكمة، كعادته حارساً، مستنداً على الحائط.

فنظرت تينهنان الى گريگرس وقالت "أحبه حباً جماً، فهو بسيط، قلبه نقي، رغم أنه لا يفهم".

"لا يغرنك، إنه يفهم كل مانقوله، ويعلم بما حوله، فهو فطن، ونبيه، لا يقل كياسة عنك أو عني، ولكن هو لا يحب أن يتخذ طريقاً في الحياة مثلنا".يجيب گريگرس

فتبسمت، ثم نظرت الى العارف بنظرة عميقة، وسألته "ماهي البائقة التي قمت بها؟".

"عندما كنت صغيراً، كنت وزيراً، وقاضياً، وفقيهاً، وعالماً، كلامي مسموع، وأمري مختوم، فإتبعت أهوائي، وأمرت بما أراه أنا صحيحاً، وليس ماهو صحيح، وقومت الناس بما يقوله عقلي، حتى وإن كان فيه تجاوز، حتى وصل الحد، بأن زورت الحقائق، فبت أقذف هذا، والعن ذاك، وأكفر هذا، وأقدس ذاك، فأصبحت كالمتخرص الولاغ[2]، شقار قتات[3]، كل مايفرقني عن الناس بإني من أبناء السراة، وبأني الشخص الذي طرد مخلوقات المرايا من عالمنا، وفصلت العالمين، وصفدت ملكهم ووضعته تحت إمرتي، محبوساً في مصباح، فإتفقت مع المستنصر أن أشيد له المدرسة المستنصرية، وأن يكون

---

١ لميس: طويل وأملس ولين
٢ متخرص: الذي يفتري على الناس ، الولاغ: ينهش في الناس وأعراضهم
٣ شقار: كذاب، قتات: الذي يزور الكلام وإبلاغه

لكلامي تابع، ووعدته بإن أجلب له حجر الفلاسفة، وماء الحياة من عالم المرايا، ولكني في داخلي كنت أريده لي، فكنت أريد العيش الابدي، حتى أحكم بالناس، وأغير قوانين الحياة، فعلمت كيف السبيل الى ذلك، فرصصت الطلاسم بطريقة مغايرة، وأدخلت الاقطاب في ما بينها، فأستطعت أن أنفذ في عالم المرايا، وقمت بسرقة حجر الفلاسفة، وماء الحياة، وعندما شرعت بالهروب، والانتقال من عالم المرايا الى عالمنا، إقتفى أثري محاربين من عالم المرايا، كالقبطان وقراصنته، والغول، والعنقاء، وغيرهم، فعالم المرايا مثلنا، لا كلهم شر، ولا كلهم خير، فلا يضن الناس بإن القرصان والغول شر، كان لابد مني أن أتخلص منه، بل أنا الشر لهم، لأني سرقت منهم الغالي والنفيس، فتبعوني طالبين مالهم به حق، قمت بهذا كله بسبب الشعوذة والسحر الذي بين يدي، فأعمتني الحياة، وماكانت لي بصيرة، فعلمت بإني مثلوب[1]، وأردت الاعتدال، فحلفت إن أنقذ الارض من أخطار ما قمت به، ولكني أقسمت بإن أقوم بإصلاح ما أفسدت بطريقة بعيد عن طريق الشعوذة والسحر، فمن منا لم يخطئ؟ فتبت عما قمت به، وبت أتجول في الارض، أساعد الناس، وأقيم الجامعات، وأشيد المدن، وأرفع من علوم الدنيا في شتى أصقاع الارض، لعلي أكفر عن ماقمت به، فعلِمت أن الحياة بالافعال، يجب أن أقوم بالافعال وأترجم أفكاري في الحياة وعلومها، ولكن، يبدوا أن لا مفر من الماضي، فمن سلأ عن ماضيه، أوقعه ماضيه في فخه، فالعقاب من جنس العمل، فعندما وهبت زال للعنقاء، وأعطيته شمشير زمردنگار، عاد من أتى من عالم العنقاء وطعن زال، فالعنقاء من عالم المرايا أيضاً، ولكني لم أعلم بهذا كله، حتى قابلت اليعسوب، وأعطيته ما سرقت من عالم المرايا، ولكن لم يكن هذا بكاف لأتخلص مما قمت به، الا بعدما أطلقت القوة التي بداخلي تجاه الغول، فعادت الطلاسم الى مكانها، تحللت الاقطاب في

---

١ مثلوب: منقوص وفيه عيوب

مابينها بالكامل، وبذلك إستطاع گريگرس قتل الغول، فما كنت أعلم، بأني يجب أن أصلح ما أفسدت أولاً، قبل أن أصلح الناس، ولو أطلقت القوى التي كان يجب أن أطلقها على القرصان لانقذ زال، لكان موت القرصان من المستطاع، ولكن يبدو أن الراهب الاسود، علِم بأني لم أصل الى ما كان يجب أن أصل له، فتعلمت الدرس، كما يتعلم الطالب من المعلم، فأراد الراهب الاسود أن أقابل اليعسوب، وأن يأخذ مني حجر الفلاسفة وماء الحياة، وأعادها الى حيث تنتمي، وعلمني ماكنت أظنه إستحضار أرواح، ولكنه في حقيقته، إستحضار ما في الروح من صور، فكما قال اليعسوب لي بإن الصورة الروحية، هي صورة مرسوم عليها أفكار وعلم صاحبها عندما كان جسدا قبل الموت، فلم أعلم ما يقصد، حتى تكلمت مع جلال الدين الرومي، وشرح لي، فإني لم أستحضر روحاً، بل صورة الروح، التي أجدها في الكتب، وفي أفعال الناس الذين ماتوا، فمن يترك وراءه كتاباً، أو علماً، او عملاً، فستكون روحة موجودة لمن يريد إستحضارها، وها أنا الان هنا، بعد أن دفعت ما على عاتقي من دَين، ولكن ماعلمت إن دَين الناس أثقل، فأصلحت مافي نفسي، وهذا لا يعني بإني ملاك، ولكني أعرف نفسي، وأعلم ما أريد، لا أتعصب لاحد، ولا أدلس الكلام بالباطل، أسمع قبل أن أتكلم، وبعد أن وصلت الى ماوصلت اليه، ولا أعلم أين، أرى الناس متفرقة، لا أريد أن أعظهم بالحسنى، فلعل فقير بسيط، له من الحسنى ما لا أملك، ولكني أدعوهم، للوفاق، فمهما كان في الناس من طلاح وصلاح، ماخابوا حتى تفرقوا، وتعصبوا، وتقاعسوا، فعظمة الحياة، ببساطتها" فتنهد العارف وقال "هذا ماقمت به أنا، العارف، من لا أسم له، التأريخ له، من أرادني فها أنا هنا، ومن لم يرد فالينهض بنفسه، في طيات أوراقي ماضي تليد، وفي ثنايا أعماقي مستقبل مجيد، ماخاب من لم يقطف منها، وما وصل من قطف منها، فكل ليس بقطفه، بل بما سيفعل بما يقطفه".

فرسان الارض

وتمر الاشهر، فذهب برد الشتاء، وقدم حر الصيف، والعارف مستمر بحملته لتحفيز الناس على الاعتصام جميعاً، وألا يتفرقوا، وبدأت حملته بالتوسع، فإنظم عدد من الناس لمساعدته، منهم، أم شمس الدين خديجة بنت طرخان، وأخوها، سعد الدين أبو زكريا، وأبن الساعي البغدادي، الذين رغم إختلافاتهم الطائفية، أتخذوا بما يقوله العارف ومن معه، فهو لا يدعوهم الى إيمان جديد، أو عقيدة ليعتنقوها، ولا يدعوهم لنصرة الخليفة، إنما يدعوهم ليقفوا متوحدين، ولكن الكل كان يكفر الكل، فالشيعة تكفر السنة، والسنة تكفر الصوفية، وكلهم يكفرون العلماء، والعلماء لا يفعلون شيئاً سوى النقد اللاذع، والكلام اللاسع، فماعاد علماء هذا الزمن بعلماء، بل إنهم يقرأون العلم، ويقولون بصوابه، ولكنهم لا يفقهون منه شيئاً، فلم يجربوا العلم بأنفسهم، ولم يطوروه أو يكتشفوا شيئاً جديداً، فينادون بالعلم بدل الدين، وهم ناسخون كغيرهم من الطوائف، لا أكثر ولا أقل، فالكل متعصب لما يقول.

وتمر الاشهر، والعارف لا حول له ولا قوة، وتينهنان لا تستطيع أن تغير في المستعصم من شيء، وگريگرس لا حيلة له، في حشد الناس للأنخراط في صفوف الجند، فالناس لا تقبل بالقتال، ولاتقبل بالتجمع.

"ماذا تريدون؟" يقول العارف، مخاطباً لجمع من الناس، في إحدى إيام الشتاء، قبل عيد القلنداس بأيام قلية.

"لن نقاتل" يأتي الضجيج من الجمع.

"لن تقاتلوا، ولكنكم إن تجمعتم، ووقفتم صفاً واحداً، سيتقهقر العدو، ويعود أدراجه، وتكون لكم حضوة عند الخليفة، إعزلوه إن أردتم بعد ذلك".

فلم يجبه أحد.

"ممّ تخافون؟ فمن لم يمت بالسيف مات بغيره، تعددت الاسباب والموت واحد[1]، فلماذا لا تموتون موتة شريفة، إن كتب لكم الموت علي يد المغول والتتار؟

إن القلوبَ إذا تنافر ودها ... شبه الزجاجة كسرها لا يشعب

تُبّا لـــدارٍ لا يدوم نعيمها ... ومشيدها عما قليـلٍ يخـــرب

لا تأمنِ الدهر الخؤونَ لأنه ... مـــا زالَ قدماً للرجـالِ يُهذب

وكذلكَ الأيامُ في غصّـــاتها ... مضضٌ يذلُ له الأعز الأنجب[2]"

وبدأ العجيج والضجيج، وبدأ الشيعة يلومون السنة، والسنة تلوم الشيعة، والصوفية لا يتكلمون، هائمين، والعلماء يلومون الدين، والمستفيدون من الدولة، ينادون بالتجنيد الالزامي.

فسمع الجمع صوت الهطاهط[3]، فنظروا الى البوابة، فدخل منها فرس أصهب، فطحل، صات بجلجلته كلام الجمع، وأصبح الناس يتهامسون فيما بينهم، كان الفارس هديداً[4]، مهيباً، مفخّماً، بشرته سمراء، عيناه فيها زرقة، في إحدى عينيه نقطة بيضاء، يحمل رمحاً بيده، والسيف في غمده، وكانت ملابسه بهيجة، نبيلة، درعه أصفر وعليه فهد أسود.

---

١ من شعر إبن نباتة السعدي
٢ من شعر صالح عبد القدوس
٣ الهطاهط: صوت الفرس المسرع في السير
٤ هديد: طويل وفارع

فكان الجمع يتهامس فيما بينهم، تمتلكهم الرهبة، وتسمع كلمات صامتة "إنه الامير الفهد".

فشفن الفارس الجمع شفنوناً[1]، وقال بصوت عميق"

أَقولُ لَها وَقَد طارَت شَعاعـــاً ... مِنَ الأَبطـــالِ وَيحَكَ لَن تُـراعي
فَإِنَّكِ لَـو سَأَلتِ بَقـــاءَ يَـومٍ ... عَلى الأَجَلِ الَّذي لَكِ لَم تُطاعي
فَصَبراً في مَجالِ المَوتِ صَبراً ... فَمـــا نَيلُ الخُلـــودِ بِمُستَطـاعِ
وَلا ثَوبُ البَقـــاءِ بِثَوبِ عِـزٍّ ... فَيُطوى عَن أَخي الخَنـعِ اليُـراعُ
سَبيـلُ المَوتِ غـــايَةُ كُلِّ حَيٍّ ... فَداعِيَـــهُ لِأَهـــلِ الأَرضِ داعي
وَمَـن لا يُعتَبَط يَســـأَم وَيَهرَم ... وَتُسلِمهُ المَنـــونُ إِلى اِنقِطـــاعِ
وَمـــا لِلمَرءِ خَيـــرٌ في حَيـاةٍ ... إِذا مـا عُدَّ مِن سَقَطِ المَتـــاعِ[2]"

فأخفض الجمع رؤوسهم، وتناثروا خزياً في أزقة بغداد.

"على الاقل، قضى على ضجيجهم الفارغ" يقول گريگرس متهكماً.

فتقرب الفارس من العارف، وكان العارف مشدوهاً، فقال العارف للفارس "ماذا تفعل في أرض العراق؟".

"سمعت بإنك بحاجة لمساعدة".

"وأتيت لوحدك؟ أم معك جندك؟".

---

١ شفن شفوناً: نظر بمؤخرة عينه كارهاً وساخراً ومتعجباً
٢ من شعر قطري بن الفجاءة

"ستسقط دولة المماليك تارة واحدة، إذا تحرك العسكر من مكانهم، لا يا إيها العارف، أنا هنا لوحدي".

فتبسم العارف وقال له "أهلاً بك يا بيبرس".

ودخل العارف، والفارس، ومن بصحبتهم الى دار الحكمة، وطال نقاشهم، فشرح العارف له موقف الخليفة، والنزاع بين الوزير والدفتردار، دون أن يشرح له مايدور بينهما في الخفاء، وشرح گريگرس لبيبرس حالة الجند، والاسوار، والدفاعات، وكان بيبرس حانقاً على مايراه أمامه.

"الوضع أسوء مما توقعت" يقول بيبرس.

"لو تراه بنفسك، لقلت الاسوء" يجيب گريگرس.

"لم تستطع ملكة الامازيغ فعل شيء؟" يسأل بيبرس العارف.

فيهز العارف برأسه، وإستمر النقاش والحوار، حتى إنتهت صلاة العشاء، فكان الناس يخرجون من المساجد والجوامع، يسمعون مواعظ الفقهاء، الذين لا يعظون الحكام، فكان الناس قلوبهم مثقلة، ومتعبة، وكان العارف مازال في دار الحكمة، فسمع صوت خطب في الخارج، فوقف گريگرس، وامسك رمحه حذراً، فخرج العارف وبرفقته المحارب، فسمع الناس تقول "لقد وصل الصليبيون الى بغداد، أما يكفينا التتار؟" وبدأ الرعب يدب بين الناس، وكل ينطلق مسرعاً الى منزله، يختبؤون خلف الجدران الواهنة، والابواب المكسرة.

"بيبرس أولاً، والان أنتم" يقول العارف مستغرباً، وهو يرى ثلاثة من الفرسان، يقفون في وسط ألشارع أمام دار الحكمة.

"ماذا تفعل هنا يا ميخائيل باليولوج[١]؟".

فتقدم ميخائيل، وكان يبلغ الخامسة والثلاثون عاماً، كان مقداماً، لبقاً، نافذ البصيرة، وكان يلبس لباساً غريباً، كان يجمع بين لباس الرهبان، والفرسان الصليبيين، وسيفه سيف السلاجقة، وعمامته رومية، وقال للعارف "لقد إنتهت مدة خدمتي لدى عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، وقبل أن أعود الى نيقية، وجدت هذان السيدان، فسألتهما عن وجهتهما، فقالا إنهما ذاهبان الى العارف، فلم أتردد للحظة، بأن أغير وجهتي، وأتيت معهما".

"أندريه؟ ياروسلاف؟" يوجه العارف السؤال للفارسين اللذين كانا يرافقان ميخائيل، يلبسان لباس الفرسان الروس.

"أنا أندريه الثاني[٢]، دوق فلاديمير" يقول أحدهم.

"وأنا ياروسلاف الثالث[٣]، أمير تفير" يقول الاخر.

ثم تكلما بصوت واحد، ووتيرة واحدة، وقالا "نحن أبناء ياروسلاف فسيفولودوفيتش، أمير كييف المعظم، وأمير فلاديمير المعظم، أتينا هنا بطلب من أخينا، ألكسندر نيفيسكي، أمير نوفغورود، هازم جحافل همج السويد".

---

١ Michael VIII Palaiologos
٢ Andrey II of Vladimir
٣ Yaroslav of Tver

فنظر العارف الى گريگرس وقال "دع الماضي الان، أعلم ماقام به الكسندر نيفسكي للسويديين، ولكنيّ في هؤلاء أرى بارقة أمل" فنظر العارف للناس وقال "إن أبناء الروس، والبيزنطيين، أتو للقتال معنا ضد التتار، فهل لكم من بعد هذا ذريعة؟".

فعم الضجيج تارة أخرى، وقال العارف "أن هؤلاء الثلاثة قاتلوا المغول، ويعلمون أساليبهم، ومبادئهم، إسألوهم، فنظر الجمع الى الفرسان الثلاثة، فتقدم ميخائيل وقال "إن المغول، قبائل همجية، لا ذمة لها، ولادين، إنكم تهابونهم لكثرتهم، ولكنهم بالجبن معروفين، عند وجود خطر أمام المغول لايستطيعون مجابهته ، فإنهم ينسحبون من ساحة المعركة دون قتال للحفاظ على قطعاتهم العسكرية، ويشربون الخمر، فيأتون الى القتال ولا يعرفون ماذا يفعلون، فإذا وضعت خطة محكمة، كان من السهل الايقاع بهم".

فبدأ قليل من الناس بالتهامس فيما بينهم، وبدأت أفكار الاتلاف بين قليل منهم تبزغ شمسها، ومازال معظم الناس رافضين لهذا كله.

فدخل العارف الى دار الحكمة، ويحيطه الان جمع من الفرسان، ويقول ميخائيل وهو يضحك "ماذا لو ذكرت لهم طريقة تدريب الجيش المغولي وفق منهج خاص يعرف بطريقة موغداي".

"حب الموت" يوضح أندريه الثاني للعارف معنى الموغداي "كل من قاتل المغول يعلم هذه الطريقة، فهم لا يأبهون بالموت".

ولكن لم يمنع هذا مزاج العارف أن يقل كدرة "حسناً، ماذا تفعلون هنا؟" يسأل العارف الاخوين فسيفولودوفيتش.

"أنت تعلم أننا كنا نقاتل القبيلة الذهبية، ولكننا بعدها، عدلنا عن هذا، فكانت حروب السويد أشد ضراوة، وكان أخانا ألكسندر له صلح وعهد مع المغول، فأعلنا الصلح مع المغول أيضاً، فطلبونا في سراي، عاصمة القبيلة الذهبية، وعندما كنا هناك، وصلتنا رسالة من مُهَرِبك، يطلب الحضور الى بغداد، فبعد أن أنجزنا مهامنا في سراي، إتجهنا جنوب ألاناضول، ولكن الوضع هنالك كان سيئاً جداً، فالمغول أشعلوا الحرب فيها تارة أخرى، فصادفنا ميخائيل، وأخبرناه بوجهتنا، وقرأ رسالة زال، فقدم معنا".

"وكيف إستطعت أن تأخذهم بين صفوف المغول، والحرب القائمة في بلاد الاناضول؟" يسأل العارف ميخائيل.

"أنت تعلم بأنني بعد أن طردت من نيقية من قبل الامبراطور، إنضممت الى مرتزقة الكنيسة في الاناضول، وأقاتل مع السلاجقة ضد المغول، خادماً للسلطان عزالدين كيكاوس، فلي دراية بأرض الاناضول وطرقها السرية، وفي أحد الايام أرسل لي الامبراطور بمهمة، وقال لي في رسالته، بأني إن نجحت في إنجازها، سمح لي بالعودة الى نيقية، وأن أخذ منصباً عالياً بجانبه، فلم أستطع إنجاز المهمة، حتى عثرت على زال، عندما كنت أنت في قونيا، فساعدني بإتمام المهمة، فأطلق السلطان كيكاوس سراحي من خدمته، وقبل أن أعود الى نيقية، لآخدم في حضرة الامبراطور، عثرت على هذين السيدين، فأرتأيت أن أقبل على بغداد معهم، وأرد الدين لزال، إضافة الى إني لن أنسى ما قدمته لوالدي" يرد ميخائيل مبتسماً.

"صحيح!" يقول بيبرس مقاطعاً "لم أنتبه كل هذا الوقت، أين زال، فإني هنا بطلب منه".

فنظر العارف اليهم، وسأل "متى وصلتكم رسائل زال؟".

"بعدما دخل هولاكوخان قلعة ألموت" يرد بيبرس.

"أي حين خروجنا من قونيا" يقول العارف لنفسه، والندم ينهش بداخله، لقد ظلم صديقه، ظلم الابن الذي لم يرزق به، ولكن أليست هذه شيمة الاباء؟ أن يظلموا أبناءهم، لانهم لا يفهموهم، حباً بهم، ولانهم يريدون أن يكونوا كما يريدون، دون أن يتفكروا أن لأبنائهم عقل يتفكرون به لأنفسهم.

فطلع صباح يوم الثاني، وخرج العارف من منزله، وكان يمشي الى دار الحكمة، فوجد الاصفهسلار ينتظره عند باب الدار.

"كيف لي أن أخدم الاصفهسلار؟" يقول العارف.

"أحببت أن أقول لك، بإنّ هنالك ما يناهز الالف شخص، إنخرطوا في صفوف الجند، هذا الصباح" فتبسم الاصفهسلار، وأكمل قائلاً "أعتقدت بأنك تريد أن يكون لك علم بهذا" وأنطلق الاصفهسلار مبتعداً.

"هذا جيد يا سيدي" يقول گريگرس للعارف.

"الف! لايكفي، نريد الالاف" يقول العارف متجهماً.

"ما يشغلك يا سيدي؟".

"زال".

فسكت المحارب الكبير ولم يقل شيئاً.

" گريگ" ينادي العارف المحارب بالاسم الذي كان يناديه به عندما كان صغيراً.

فتبسم المحارب "زمن طويل منذ أن ناديتني بهذا الاسم".

"نعم" قال العارف "إني أعتذر إن تجاوزت عليك يوماً، أو ...".

"لا تكمل، ولاتفكر" يقول گريگرس وعيناه تشع إحتراماً.

فتبسم العارف وقال له "لا تدخل في مشاكل مع أبناء فسيفولودوفيتش، تناسى عِرقك السويدي قليلاً".

"بالطبع ياسيدي، لن أفعل شيئاً بهم، إلا بعد إنتهاء المعركة هنا في بغداد" وأعتلت المحارب إبتسامة خبيثة.

"أين زال؟" يسأل العارف نفسه، فهو يذكر دائماً، كيف ينظر زال الى گريگرس، وكيف يتبادلان النظرات الخبيثة، عندما تلوح لهم بوادر المعركة.

"هنا" يأتي صوت زال من داخل دار الحكمة.

فدخل العارف، وگريگرس هرعّين، كان زال جالساً، ومعه كل من بيبرس، وميخائيل، والاخوين فسيفولودوفيتش، فترك گريگرس مكانه خلف العارف، وتقدم ليقف مع المحاربين، وقال "نحن لوحدنا جيش".

"نصف جيش" يرد زال، والنظرات التي بينه وبين العارف لم تتوقف.

وسمع صخب وضجيج في الشوارع والازقة، وخرج العارف ومن معه، فوجدوا الجمع من الناس في حشود، ينظرون الى رجل قصير، يلبس لباساً فاخر أشبه بملابس أهل سيّام،

فعيناه الحادتان تدل على إنه من القبائل التي تشبه أهل الصين، كان بهيجاً، وباسماً، يركب عربة يقودها فرسيّن.

الناس تتهامس فيما بينها "أنه من أرض الصين، أنظروا الى ملامحه".

فرفع هذا الشخص يده، ووضع الاخرى على سيفه ونادى في الجمع، موجهاً الكلام الى العارف "أنا، تران هونج داوو[١]، أمير فيت داي[٢]، من سلالة تران العظيمة، في خدمتك".

فتقرب العارف وسأله "وماذا أتى بك هنا؟".

فنزل أمير فيت داي من العربة، وقال "بعد أن مسح المغول سلالة دالي[٣] عن وجه الارض، بعث لي زال، وقال لي بإني، يجب أن أعرف كيف يقاتل المغول، لكي أستطيع أيقافهم من أن يدخلوا أرضي ومملكة والدي، فقدمت الى هنا طالباً، العزة، والعلم، والخبرة، وعلمت أنك أيها العارف محب للشعر، وإني شاعر، فهل لروح أشعارنا تبادل؟".

فتبسم العارف، وقال "بكلِ تأكييد".

وهل لي الشرف بأن أعرفكم على " منغراي[٤]؟" يقول تران هونغ داو للعارف.

فينزل مانغراي من العربة، وكان شاباً، في العقد الثاني من عمره، قصير، عيناه تقدح حصافة، وتعاظم، يلبس ثياباً من حرير مطرزة بحرفية عالية، ويقول "أنا مانغراي، إبن لاو مينغ، يرسل والدي لك أحر السلام، ويشرفني أن أقاتل بصفك أيها العارف".

---

١ Tran Hung Dao
٢ فيت داي/ و هو أسم فييتنام القديم
٣ Dali Dynasty
٤ Mangrai

"الشرف لناكلنا، كيف حال والدك؟" يرد العارف.

"كبير، ومريض، وأتمنى أن أعود له قبل أن توافيه المنية".

"هل أتممتم ما أنتم بصدده؟" يقاطع زال الحوار والتعارف بصوت خافت "لدي أخبار سيئة، ولكن قبل أن أقولها، لماذا لا تعطي الناس بعضاً من الامل بواحدة من خطبك المسجوعة؟" يقول زال متهكماً.

فبدأ العارف، والصابوني، والامدي العابر، وخديجة، وأبن الساعي، وسعد الدين، والكوفي، بالكلام مع الناس، تحفيز الهمم، وجمع شتاتهم، فهذه الجنود من كل أصقاع الارض توحدت لتنقذ أهل العراق، ولكن لم يستطيعوا إلا تجنيد، ومساعدة نزر من الناس بترك التعصب.

"لماذا لا ينظم السنة الى القتال؟" يسأل شخص من الجمع.

"وما دخلك بهذا وذاك؟ أنت تدافع عن نفسك أنت، فأنت عندما تصفي قلبك، وتتقبل الاخر مهما كانت طائفته وعرقه، فقد أصبت، ٩يوم لاينفع مال ولا بنون، ألا من أتى الله بقلب سليم، وأزلفت الجنة للمتقين[١]٩".

وعم الصخب، والضجيج، والجدال، فأغلب أهل العراق لا يريدون إنقاذ أنفسهم، فالتعصب قد أعماهم، وكلٌ يقول بإن الثاني مخطئ، وكلٌ يقول هو على صواب، فلا تجد في الحوارات، الا الصراخ، والقذف، والانتقاد، واللوم، والسب، كل حسب ديانته، أو عرقه، أو علمه.

١ القران: الشعراء ٨٨-٩٠

وتمر الايام مسرعة، كان العارف كعادته، يحفظ الكتب ويقرأها، ويساعدوه من معه في حفظ الكتب، المهم منها، وكان يساعد المحاربين بوضع خطط الحرب، فبدأت الاشياء في تحسن طفيف، فكان هنالك أناس قد تطوعوا في الجيش، ومنهم من بدأ بإعطاء ما لديه من الحنطة، والشعير، وغيرها من الطعام، ومنهم من ساهم في بناء الدفاعات، حتى أتى يوم قدم به قرة سنقر الى العارف، وقال "إني متوجه مع الدفتردار الى الدجيل[1]".

"وما فائدة عددكم القليل أمام جحافل هولاكوخان؟ لا يجوز أن تقاتلوهم في مكان مفتوح وواسع" يقول العارف مستغرباً.

"إن عليّ إتباع الاوامر، أودعك السلامة، وأعلم، أن الله لم يطبق الجبلين بالطائف، لعل من أصلابهم يخرج من لا يشرك بالله، والاشراك ليس بعبادة الاصنام، بل التعلق بالحياة، أرذلها، فأوصيك بألناس خيراً، لعل من أصلابهم يخرج من لا يطعن، ولايقذف، ولا يسب، ولايتقاعس، ولايندب حظه، ولعل من أصلابهم من يصاحب القول بالفعل، لان أسلافهم في هذا الزمن، يقولوا مالا يفعلون، ولعل من أصلابهم من لا ينافق، ولا يظهر للناس بوجهين".

وأنطلق قرة سنقر بقيادة الدفتردار مع عدد من الجند، متوجهين الى الدجيل، فعلم المغول بخطة الدفتردار، وإستطاعوا رسم خطة معاكسة، مما أدى الى إنهزام الدفتردار في معركة طالت عشرة أيام، عاد منها الدفتردار، ومعه نزر قليل الى داخل أسوار بغداد.

كان الفرسان والمحاربين جالسين، وكان زال قد عاد من الدجيل مع الدفتردار، وقال للعارف "لقد مات قرة سنقر".

---

١ مدينة تقع شمال بغداد

فسكت العارف، وكان وجهه مكفهراً، وكان الخفاجي يذرف الدموع.

"أنظر الى هذه الرسالة" يقول زال للعارف.

فأخذ العارف الرسالة وبدأ بقرائتها "أقيموا حوله مدينة، وسوراً من الحديد، وشيدوا حصناً، وحاجزاً من الصلب، إجمعوا جيشاً من الشياطين والجن، وسيروا بعد ذلك تحرقكم الرغبة في الثأر، فسأخفضه ولو كان في السماء، وسأصل اليه رغم أنفه، ولو كان في معقل الاسد".

"ماهذا؟" يسأل العارف.

"هذه رسالة هولاكوخان الى قائد جيشه".

"كيف حصلت عليها؟" يسأل ميخائيل.

"أنا زال" فنظر زال الى ميخائيل مستغرباً، فنظر ميخائيل الى زال ولم يقل شيئاً، فكلهم يعلمون أن زال يستطيع القيام بأشياء لا يعرفون سبيلها.

"أذا سيحاصر المدينة كما توقعنا" يقول بيبرس.

"سيتكبد خسائر بهذه الطريقة" يقول أندريه.

"في بادئ الامر" يرد زال "وبعدها سيقل عدد جنودنا، إن كان في صفوفنا جنود، ومن ثم سيستطع أن يدخلها كما يدخل حديقة منزله، ولكن هذا ليس ما يقلقني، فإني أعلم نهاية هذه الحكاية منذ بدايتها، إن ما يقلقني هو كلامه في الرسالة".

"جيشاً من الشياطين والجن" يقول الامدي العابر منتبهاً لكلام زال.

"بالضبط" يرد زال.

فنظر العارف الى الخفاجي، وسأله "مايزال في مكانه؟".

فنظر الخفاجي له بنظرة ملؤها رعب "نعم، أنه حيث تركته في منزلك، منذ أن غادرت بغداد".

السقوط والسموق

"الثلاثون من الشهر الاول من عام ألف ومئتين وثمان وخمسون" يؤرخ الصابوني الاحداث دون ذكر للتفاصيل، إنه اليوم الاول لحصار هولاكوخان على بغداد، فلقد أقام التتار، أسواراً موازية لأسوار بغداد، ففصلت المدينة عن جوارها، وكونت من الانقاض الموجودة أكواماً عالية، لتكون قواعد للعرادات[1]، كان الحصار في البدء عبارة عن حرب نفسية، فجيش هولاكوخان يقف خلف العرادات، التي ترمي الاسوار بالحجارة، فيُدوي صوت الحجارة بأزقة بغداد الفارغة، فالناس تختبئ في منازلها، تريد أن يسقط الخليفة، ولاتريد الدفاع عن أرضها، فهي تعلم أنها في مأمن، فالخلفاء يستبدلون، ويبقى الشعب على حاله، ولكن رغماً عن ذلك، فأصوات الحجر تطلق الرعب في صدور الناس، وترعد فرائص الجند المختبئ خلف الاسوار، وبعدها أطلق جيش هولاكوخان سهاماً، معلق عليها نشرات تقول "ليتأكد القضاة، والعلماء، والشيوخ، والشيعة، والتجار، وكل من لايحمل سلاحاً ضدنا، بإن حياتهم مصونة" فكانت أخر قشة للعارف إحترقت، فعزف الناس في بيوتهم كأنهم في الاجداث هامدون.

كانت عرادات التتار تتجشأ النيران، والدخان المتكور، بالأخشاب، والحجر المدرار على أسوار بغداد، حتى سقطت أبراج الدفاع واحدة تلوى الاخرى، وبعد أربعة أيام، كان العارف ومن معه، يلبسون لامات القتال، من اليمين يقف منغراي الشاب، ثم بيبرس، فأندريه الثاني، فگريگرس، فياروسلاف، فميخائيل، فتران هونغ داوو، يقفون كلهم تحت باب كلواذي من الخارج، وكان الخفاجي ومن معه من الجند المتطوعين من الناس

---

١ العرادة: منجنيق

ليدافعوا عن مدينتهم، يقفون خلف الاسوار، وكان العارف يقف مع تينهنان على أخر الابراج القائمة، برج العجم، وبدأت جحافل هولاكوخان تتكالب عليهم كالوحوش الكاسرة، فأطلقت عليهم الملكة الامازيغية وابل من النبال الشماء[1] من قوس الفايايا، ومن سهام تينهنان يتساقط من المغول العشرات، وهم يدنون من البوابة، فبدأت المعمعة الضارية، وتلاحم الاجساد المدججة، وغابة من الرماح المتشابكة، والدروع الكثيفة، والسيوف القادحة، فقارع هولاء الفرسان والمحاربين جحافل هولاكوخان العارمة، وبات القتال لايخمد له أوار، فالعارف والمقاتلين لهم من الشجاعة الرزينة، التي لا تنكصهم على أعقابهم خشية الموت، فالمحارب القفجاقي[2]، الظاهر بيبرس بجهيره، وضرباته القاتلة، يتساقط من أمامه الاعداء صرعى، وأندريه الثاني، وياروسلاف أبناء الروس، بسيوفهم العريضة يقطعون أجساد التتار الذين يكتوون بشواظ العذاب من ضرباتهم، وكان الخفاجي، العربي الاصل، بسيفه مرسب[3]، كان كالعاصفة الجائحة، إشتعلت في أحشائه نار بلا نور، كأنه عفريت من وهدة الجحيم، ينطلق من خلف السور من باب صغيرة على يمين باب الكلواذي، هو ومن معه من المتطوعين، يشقون صفوف العدو، ويرسلون الارواح الى خالقها في طوابير، ومن بعدها يعودوا ويدخلوا من باب تقع على شمال باب الكلواذي، بمناورة حربية متميزة، وكانت نشوة البيرسيرك قد تملكت گريگرس، فتغلل بين صفوف الكتائب العاتية، يقارعها، كأنه قارب يقارع البحر بثبجه ولججه، يخزق أجثاثهم برمح أودن، وكان سيف ميخائيل السلجوقي يقطر مناً، فضرباته ترسل عليهم الفوظ المحيق[4]، وكان منغراي الشاب سريع الحركة، أشبه بالمهرب، تثق كالسيد، ينحر رقابهم واحد تلو الاخر، وكان تران هونع داوو، يسكب الضنك في

---

١ شماء: عالية ومرتفعة

٢ قفجاق: وهي مدينة يعود أصل الضاهر بيبرس لها

٣ مرسب: إسم سيف خالد بن الوليد: وهو سيف يماني قديم: ذو إعوجاج

٤ الفوظ المحيق: الموت المحتم الذي يحيط بالاعداء

طعناته كأنه أرقم[1] سام، كانت سيوفهم، ورماحهم، ودروعهم، وضبح[2] خيولهم تصدر إرتجاجاً عنيفاً، ورعداً ملعلعاً، وصريراً داوَ، فبدأ العدو بالتقهقر، ودماء مئات الجثث الهامدة، تروي الارض العباب، وحتى عند تقهقرهم كانت تينهنان ماتزال ترسل عليهم وابل السهام، فما سلموا منها عند كرهم وما سلموا منها عند فرهم.

وفي هذه الاثناء كان مايزال الناس قابعين في بيوتهم، قبلوا بملاذ الاصفاد على مشقة الحرية، وكان العارف يأمل بإن يبزغ نور الفجر في قلوب الناس وعقولهم، ويخرجوا لمواجهة عدوهم، لا بالسيوف، ولكن بالتوحد، فمازال المجال قائماً، كي يظهر العارف لكل من الدفتردار والعلقمي، بإن أهل بغداد أحياء، ولكن ليس فقط أهل بغداد هامدون، فأين أهل العراق؟

وتوقفت المعركة، فالمغول لم يتوقعوا ما وقع بهم، فتقهقروا لتوحيد الصفوف، وحل الليل بسرادقه المظلمة، فلا قمر يبزغ، ولا نجوم وضاءة، كان گريگرس مستلقٍ على الارض، متعب، وكان الفرسان يعالجون كلومهم، ويريحون خيولهم المنهكة، فدخل عليهم زال الذي لم يكن موجوداً أثناء المعركة.

"ماعهدناك نكوصاً، إجفيلاً[3]" يقول بيبرس الى زال الذي لم يكن موجوداً في أرض المعركة.

"لن أجبن سجيس الدهر[4]، يا بيبرس، ولكنيّ كنت أهتم بأمور مهمة، فالجنود لن يشاركوا في المعركة".

---

١ أرقم: ثعبان
٢ الضبح: صوت الفرس عند العدو
٣ نكص: أي رجع عما يقوم به، إجفيل: الذي يجفل ويفزع
٤ لن أجب سجيس الدهر: لن أكون جباناً أبداً

"لماذا؟" سألت تينهنان.

"لم تُدفع لهم الجوامك[1]" يرد زال.

فاشتاط العارف غضباً "سأذهب الى العلقمي".

"لا داعي، فلقد دفعت جوامكهم من جيبي، وعادوا الى مواقعهم" قال زال.

"والله ماعهدناك متلافاً" يقول بيبرس ضاحكاً.

"كما يقول العارف" تقول تينهنان وهي ضاحكة "إن في الشر خير".

"لو كان بيدي، لنحرت رقاب أهل العراق كلهم، هلوعون، منافقون، مهانون، خوانون، نّواحون، بقاقون[2]، متحجرون" يرد عليها زال.

"وما يردك عن نحر رقابهم؟" تسأل تينهنان.

"إن نصالي لا تقتل الرعاع من الناس، من يقبلون بشطف العيش وصعابه" يرد زال حانقاً، فنظر العارف لزال، وأطالت عيونهم التزنير.

وطلع صباح اليوم الثاني، أستمر المحاربون بالقتال في الصباح، وكان دور العارف وزال في المساء، فكان العارف في المساء يلقي عليهم من البارود الذي أكتشف تركيبته مع كل من الرماح، وروجر بيكون، وكان زال يقوم بتخريب خطط العدو من التسلل ليلاً، أو من يحاول التقرب الى الاسور الداخلية خلسة، ولكن أستمرت هذه المعارك لخمسة أيام متتالية، فخارت قوى المحاربين، ولكن لم يستسلموا البتة، وفي اليوم السادس، أطلق

١ جوامك: الرواتب
٢ بقاق: ثرثار

هولاكوخان خدعته، فعندما كان المحاربين، يرسلون المغول الى أم قشعم بالعشرات، أطلق هولاكوخان الشياطين، والعفاريت، والجن، والنسانيس، القادمين من عالم المرايا ممن عبروا خلف العارف، وتوجهت هذه الوحوش صوب المحاربين.

"هذا قتال غير عادل" ينادي منغراي الشاب.

"ماعهدنا للمغول هذا الاسلوب في القتال" يقول أندريه.

"لأنهم لم يقوموا بهذا من قبل" يرد زال.

وفي هذه الاثناء، ما كان للعارف إلا أن يخرج شيئا من جعبته، ذلك الشيء الذي جلبه له الخفاجي من منزله، فكان يحتفظ به في مكان آمن لا يقربه أحد، وأخذ هذا الشيء بيده، وبدأ يفركه، فتعجب المحاربين لما يفعل العارف، فأنه يفرك بمصباح ذهبي، ومخلوقات المرايا صوبهم، فسمُع في أرض المعركة، صوت عرار[1] رهيب، وبدأ المصباح بالتوهج، وأنفجر الهواء، فخرج من المصباح مارد هائل، فران الصمت في المعركة، حتى حيوانات المرايا توقفت عن الكر، وقال المارد للعارف بصوت جهور كهزيم الرعد "لبيك وسعديك، عبدك بين يديك".

"خذ من لاينتمون الى هذا العالم، الى عالمهم، تحت طيات الفيافي المشرقة والحالكة" يقول العارف للمارد.

"هذا أخر طلب لك، يا أيها العارف" يرد المارد.

---

١ عرار: صوت انسان ينهض من النوم

"أعلم، خذهم، وأذهب معهم، فأنت حر طليق، أحكم بينهم بالعدل، لتعلو سيماء المجد، وعش بينهم بين التخوم الوضاءة، تكاتفوا وتعاضدوا، وخذوا من بني البشر موعظة".

"لك هذا" يرد المارد.

"هكذا دخل الى عالم المرايا إذن" يقول زال لنفسه مبهوتاً.

"لماذا لا تأمره بأن يبعد المغول أيضاً، يا سيدي" يسأل گريگرس مناجياً.

"لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً مدحوراً[1]" يرد عليه العارف.

"هذا ليس وقتاً لفلسفتك، وأيمانك، يا عجوز" يرد زال بغضب.

"إن مقياس الانسان الحقيقي، عندما تكون في يده قوة وسلطان، فإن غالى بها، فقد خاب، فهؤلاء الناس الذين يقبعون في بيوتهم مذلولين، لهم القوة أن يغيروا حياتهم بما فيها من ضنك، وكمد، وشقاء، وعناء، ولكن أيديهم مغلولة، ولم يحكموا أنفسهم في قوتهم، فهُم على أعقابهم ينكصون، فخابوا، وقعدوا ملومين مدحورين".

فعم السكوت، فرفع المارد يده الى السماء وهو منتصر، ونزل من المزن ماء منهمر، والبرق الخلب في السماء لايبقي ولايذر، وفار التنور فالارض تحتضر، وكأنه يوم نحس مستمر، والناس كأعجاز نخل منقعر، وأختفى المارد وشياطينه كلمح بالبصر.

---

١ القران: الاسراء ٢٩

بعد أن شاهد قائد الجيش ما حدث، أطلق كل جنوده على الاسوار، وظل المحاربون صامدين، حتى نظر العارف حوله وقال للفرسان والمحاربين "ذروا أسلحتكم، وعودوا من حيث أتيتم، فاليوم يوم النشور، أهل هذه الارض في عتو ونفور، ٩ومايستوي الاعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ومايستوي الاحياء ولا الاموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور٩[١]".

يأتي الدفتردار وإبنه، ومعهم سليمان شاه وأتباعهم "سنذهب الى هولاكوخان، نحن نعرض عليه شروط الخليفة للأستسلام" يقول الدفتردار الى العارف.

"إذا لقد فشلت" يقول العارف مطأطأً رأسه، فينظر الى الدفتردار ووجهه موجوم، ويقول "ولكنه سيقتلكم، فأنت تعرف أنه لن يذر شيئاً، حتى رسول الخليفة" يرد العارف.

"يحتاج التاريخ الى شهيد، يا أيها العارف، ويحتاج الى خائن، فلم ينصف التاريخ يوماً أحد، فالناس لا تحب أن تنظر الى نفسها، بل تحب أن تلعن الخائن، وتقدس الشهيد، بهذا يستطيع العامة من الناس، الخوض في مواضيعهم، لاعنين، مقدسين".

وخرج الدفتردار ومن معه، رسول من الخليفة الى هولاكوخان، فقتلهم هولاكوخان، وبعث برؤوسهم الى الموصل.

"هل جئنا لهذا؟" يسأل منغراي متحسراً.

"لقد جئنا لأنفسنا، يا مانغراي" يرد ياروسلاف مزمعاً.

---

١ القران: فاطر ١٩-٢٢

يدخل بيبرس الى البوابة، ويرى الازقة خالية، والجنود قد تركت مواضعها، فلا شاهد لما يحدث، وليس من أهل المدينة بحياء، فبصق في الارض وقال "

عش عزيزاً او مت وانت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنودِ

واطلب العز فى لظى ودع الذل ولو كان فى جنان الخلودِ[1]"

فما سمع بيبرس من الازقة الا صداه يعود إليه، فغمد سلاحه، وأتبعه البقية من الفرسان والمحاربين، غامدين سيوفهم، فلقد إنتهت معركتهم، فإن أهل المدينة لا يدافعون عنها، لم يدافع الاغراب عنها؟.

فنظر ميخائيل الى العارف وقال "لقد قمنا بواجبنا، حان الوقت أن يقوموا بواجبهم، فمنا من تعلم من خبرة الحرب، وخبرة العلم، ففي بغداد علم لا تضاهيها مدينة في الدنيا، من أراد ليرتشف من علمها، ويتعلم من العبر التي فيها، أنا تعلمت، وسأعود الى مدينتي، وأصبح إمبراطور نيقية، وإمبراطور بيزنطة، وأمنع زحف اللاتين من الغرب، وبطش التتار من الشرق، وسأجعل حكم إمبراطوريتي، أطول حكم إمبراطوري بيزنطي".

فنظر بيبرس الى ميخائيل قائلاً "وأنا الان أعلم بخطط المغول وأساليبهم، سأعد العدة، وأوحد الناس، وأخرج بجيش عرمرم، من المماليك، وعساكر الشام، وفرسان العرب، والتركمان، وغيرهم من قلعة الجبل في القاهرة، وسأدق أول مسمار في نعش المغول، ولن أجعلهم يصلون مصر، سأدحرهم في معركة، ترتشف عين جالوت منها، وساكون ملك المماليك، قصة عبد، أصبح فارساً، فأصبح ملكاً، وسأعقد الصلح معك يا ميخائيل".

---

١ من شعر المتنبي

فنظر ياروسلاف الى أخيه أندريه، سيأتي اليوم الذي نقف فيه أنداداً يا أخي، فبعد أن يموت أخونا الاكبر، الكسندر نيفيسكي، واحدٌ منا سيعتلي عرش الدوق الاكبر، وسأكون أنا".

فنظر اليه أندريه وقال "لقد تعلمنا هنا أن نكون وحدة واحدة، ولن نتفرق، حتى وإن أختلفنا، فالخلاف أمر طبيعي، لان البشر يتخاصمون، ويتحاربون، ويتصالحون، ويعملون، ويحلمون، ويخطئون، ويحسنون، لكن من يشكي، ويندب حظه، ويقول مالايفعل، ويتقاعس، وينتظر من الاخرين أن يقوموا بعمله، فقد خاب، وفاز بالذات من كان جسورا".

"وأنا" يقول منغراي الشاب "سأعمل مالم يقم به أحد، فلن يكون أهلي كأهل بغداد، سأخلف أبي في مملكة نغيون يانغ، وأتحالف مع مملكة فاياو[١]، ومع مملكة سوكوتاي[٢]، وأدحر المغول إن حاولوا الدخول، وسأجعل الممالك مملكة موحدة، أكون أنا ملكها، وأسميها مملكة لانا[٣]".

فنظر تران هونغ داوو الى من حوله من الفرسان، وقال "الشرف بأن أستل سيفي معكم، أنا لا أطلب الحكم، فصحبة الاخلاء مثلكم، أعظم شأناً من حكم الملك، ولكني سأستل سيفي، وأصد هجمات الجيش المغولي، وإن إستمرت لثلاثين عاماً، ولن يستطع الجيش المغولي دخول بلادي، ووعدي أمامكم، يا إيها الشرفاء، سأغرق أسطول المغول بالكامل في قاع النهر، وسأبقى كما عهدتموني، محاربٌ، وناظمٌ للشعر".

---

١ Phayao
٢ Sukhothai
٣ Lanna Kingdom

فنظر المحارب الاسكينديناوي الى الفرسان، وتبسم قائلاً "أما أنا، كصديقي تران هونغ داوو، لم أحلم يوماً بأن أملك شيئاً، كل ما سعيت اليه في حياتي، هو أن أُشرّف إسمي، وأن أكون مقبولاً ومحموداً عند والدي، سأعود الى السويد، متزوجاً من الحسناء الرومية، وأعيش هنالك من دون حروب، وأكون بصحبة عدد من الابناء الاشداء، أنشأهم على الوئام في ما بينهم، وألا يتفرقوا، فها أنا المحارب، قاتلت في مشارق الدنيا ومغاربها، وإن مت في فراشي فليس عيباً، فأعلم إني قد قمت بواجبي، وإن الانسان الذي يثق بنفسه، ويؤمن بما يقوله، وأدى عمله على أتم وجه، من حقه أن ينعم بحياة الراحة، فلا يطلب الراحة الا من يستحقها".

فنظر زال الى العارف، وكان العارف ينظر الى زال وعيناه تدمع.

"زال" فسُمع صوت مارد المصباح.

"أنا قادم" أجاب زال من دون أن ينظر الى المارد الذي يحوم في السماء فاتحاً بوابة عالم المرايا.

كان الفرسان والمحاربين مشدوهين، فنظر گريگرس الى زال ويسأله "ماذا يحدث؟".

"حان وقت العودة الى عالمي الحقيقي" يرد زال مبتسماً، لا يريد أن يظهر حزنه لمن معه، "أنا أول مخلوقات عالم المرايا الذي خرج من رحم إمهِ في هذه الارض، أضعف قوة من عالم المرايا، ولدي ما لا يملكه أحد من عالم البشر" يرد زال على صديقه المحارب الاشقر، وكلماته فيها وداع، ثم نظر الى العارف بنظرات متسائلة "لقد طلبت من مارد المصباح، أن يدخلك عالم المرايا، وطلبت منه أن يأخذ الشياطين الى عالم المرايا، ما كان الطلب الثالث؟".

"لهذا يا أيها الامير، رواية أخرى" يرد العارف متبسماً، ودموعه منهمرة.

اغرورقت عينا زال، وقال بصوت شجي "أبي، وها قد غادر الفرسان، وبغداد تشتغل بالنيران، سموم تعتلي سماء من الاضغان، إلا دم الخفاجي فواح كالريحان، والمنية ما أبقت حرمة لأنسان، ولهب المخطوطات ينفث الدخان، والقرطاس سداً يوقف دجلة عن الجريان، فلم يسلم شيعتهم ولا السنة في أمان، قُتل المتفرقون من الفرقتان، فخاب نائمهم ولعن اليقضان، وقرون مضت ومازل الجمع في القيعان، فمالله بمستجيب لمن خبله الهذيان، فالناس يتقاذفون بينهم بالبهتان، فأصبحت ياعارف بلقعاً، جف فيك النهران، يطعنك إبنك حبأ، ويلعن مافعلت فيك الازمان، مابقت فيك الا زقورة وضرائح، تتغنى بك الاوطان، وإبنك يا عارف سارح، يخلو منه الوجدان" وأختفى زال من هذه الارض، ذاهباً الى عالم المرايا مع مارد المصباح.

فنظر العارف الى تينهنان، وكانت عيناها تدمع، حزينة، فهذا يوم الفراق، فقال لها "إن الامكنة والاحداث ليست حولنا فقط، بل فينا أيضاً، فإما أن نثبت هذه ألاحداث في التأريخ، أو تأخذنا الاحداث في طي النسيان، فأنا الارض، حتى وأن أخذتني الاحداث في طي النسيان، سأظل وطن للغرباء، وعلم للجهلاء، أنا التأريخ لمن لا حاضر له، أنا من لا إسم له، أنا العلم، والفقه، والتأريخ، والدين، من قلب صفحاته، أنا كل الزمان، أنا كل مكان، أنا روح الكتب، ان أسمي علم تنهض به الاوطان، لست من وضع على بصره غشاوة، وختم على سمعه، وأعاد الكرة نفسها، وجلس في منزله أمناً، خائناً، متعصباً، يتساقط من حوله ملايين الناس موتاً، ليس بضرب السيف، بل بصعاب الحياة وكدرها، انا ليس كمثل ﴿من أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾[١]، ولست كالعطشان ، ﴿كباسط

١ القران: التوبة ١٠٩

كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه[١]، ياملیكتي،أبلغي قومك، لن يجدوا الموعظة الا في التاريخ والارض، قولي لهم إنهم لن يكونوا كالملائكة، ويجب عليهم كبح أهوائهم ، لن يستطيعوا أن لا يرتكبوا الاثام، فمن دعا الى هذا فإنه لا يفقه من الحياة شيئاً، ولكن ليتذكروا، مهما طال بهم الدهر، وذهبوا بعيداً، فالتعصب أسوء الصفات، قولي لهم إنتموا الى ما أنتم منتمون، وهيموا في الارض كما تريدون، ولكن تعلموا، فمن لم يتعلم، ولم يعمل، وتعصب، فلن يظلم إلا نفسه، وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فهل في الزمن القادم من هذه الارض من يستل سيفه؟ ما الصوارم من دق الحديد وشحذها فما السيف للصّيقل الا سلعته، وما الحسام في غمده مهاب كبدر في ديجورٍ زآولَ غيبته، فالبطل من غمد سيفه وبارز بالقلم وصبر على مكربته، أم سيكون لدهر هذه الارض أموات بأرواح وهم أصحاب المشأمة؟ من نار يسقونها بجهالة، فتعصبوا لنار هي عليهم مؤصدة، وأنطلق الفرسان تاركين المغول كلٌ الى مدينته، يقتل التتار الملايين من الامنيين الخونة، ويحرقون الكتب ويلقونها في نهر إسود لونه، وما أشبه البارحة باليوم، فهلا أخذنا من حديث التأريخ موعظة؟".

---

١ القران: الرعد ١٤

الفهرس

المقدمة	٥	تينهنان	١٣٧
شكر خاص	١١	ملحمة سونديانا	١٤٥
اهداء	١٣	من لا اسم له	١٥٤
المصادر	١٥	الدمنة	١٦٥
لندن ١٢٥٠	٢١	معبد بيلاخ	١٧٥
سارك	٣٧	انصاف الحقائق	١٨٧
ميثاق اللصوص	٥٠	الملاحدة	١٩٤
عالم المرايا	٦١	ابن عربي	٢٠٣
إبن العنقاء	٧٥	الرومي	٢١٢
البيمارستان	٨٧	هزار افسانة	٢٢٥
القدور الراسيات	٩٢	دار السلام	٢٣٢
الزنادقة	٩٧	سياسة بغداد	٢٣٨
جلجميش	١٠٥	المعاهدة	٢٥١
السمندر	١١٢	دار الحكمة	٢٦١
الهراطقة	١١٩	فرسان الارض	٢٧٢
ابن رشد	١٢٦	السقوط والسموق	٢٨٦

يعد القرن الثالث عشر ميلادي من أكثر القرون إضطراباً وتشويشاً, بسبب أحداثه المتداخلة بمشارق الارض ومغاربها، من الشرق يواصل المغول إكتساحهم للاراضي الشاسعة, وفي الغرب تتهاوى أخر عروش حضارة الاندلس العظيمة، أوربا تشهد صراعات العلم والحكم والدين، كل هذه الظروف أدت إلى ظهور فلسفات وأراء ساهمت في بناء المجتمعات اللاحقة, من خظم هذه الاحداث, جائت رواية العارف متناولة أبرز الاحداث التاريخية في هذه الحقبة الزمنية, برؤية مغايرة وبطريقة سهلة ومشوقة, تمكن القارئ من الالمام بالاحداث وشخوصها وفلسفاتهم وإسهاماتهم العلمية والفكرية. لمن أراد معرفة التاريخ والاتعاض من دروسه، لمن اراد الدخول لعالم الفلسفة بشكل بسيط، ولمن أراد التشويق المستمد من الاساطير الشعبية العالمية، ولمن أراد متعة أدبنا العربي من شعر ونثر, نهدي له هذا الكتاب.

دار المرتضى